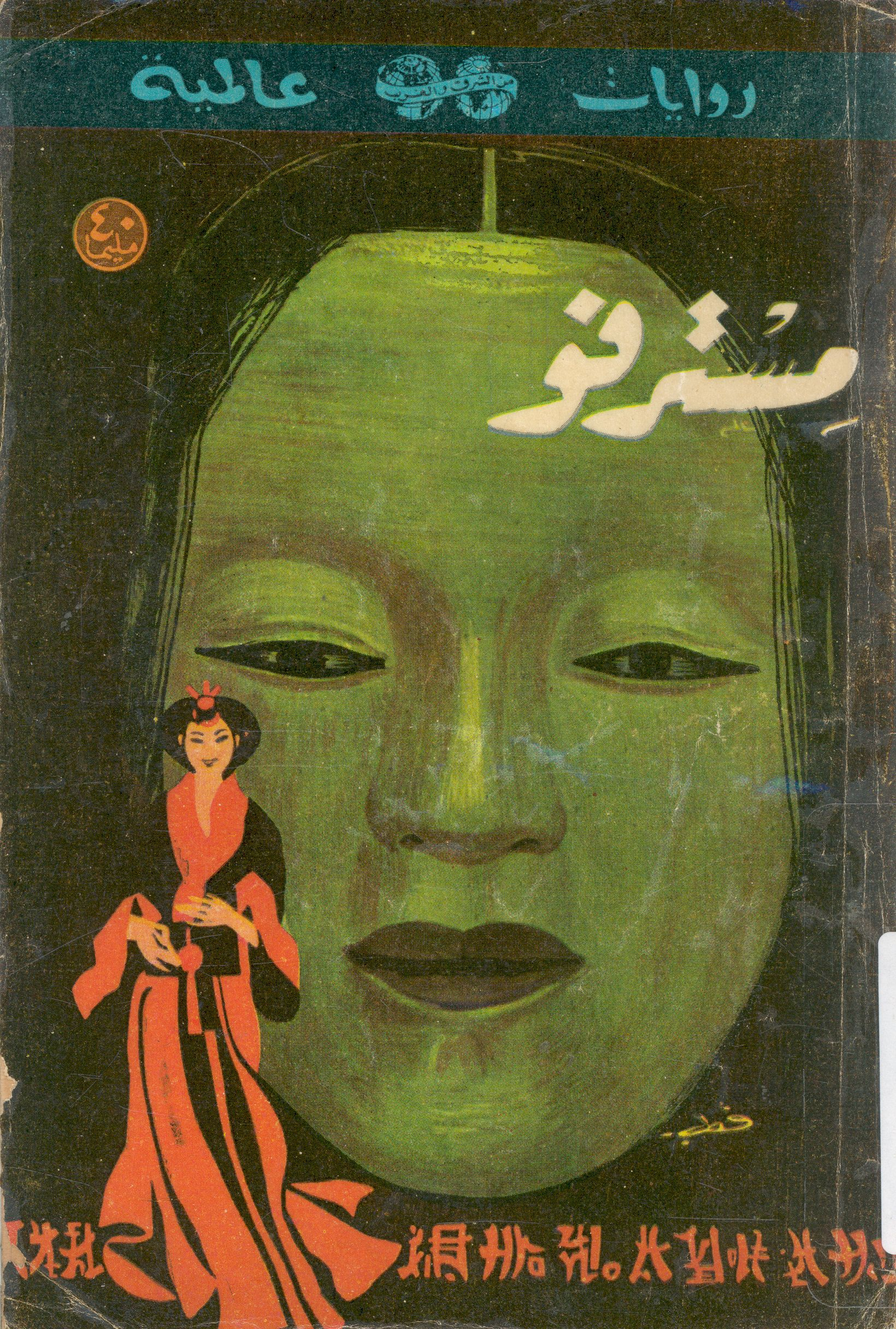

روايات عالمية
من الشرق والغرب
٤٠ مليما
مُشرقو

إهـــــــداء2006

الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر
الإسكندرية

روايات عالمية

مستر فو

رواية انسانية مؤثرة من نوع جد

نضال عجيب بين عقليتين

بقلم الكاتبة الانجليـ

لويز جوردان

الفصـــل الاول

« فوشنج يو » و « فولى شانج »

وقف الغلام فى رهبة وخشوع بين يدى جده الطاعن فى السن الذى استقدمه من الحديقة حيث كان يرتع ويلعب ، واخذ يتفرس فى وجهه المستدير الاصفر وملابســه الموشـاة بالفراء والاحجار الكريمة ، التى يكاد ينوء بها هيكله الضئيل .

كان « فو » الاكبر فى الثمانين من عمره .. أما « فو » الاصغر فلم يجاوز العاشرة ..

ورغم الغنى المفرط الذى تفرد به هذا النبيل الصينى فانه كان يلتزم البساطة فى هنـــدامه .. غير أنه كان يرضى كبرياءه وتعشقه للابهة والفخامة ان يرى حفيده فى هذه الملابس الثمينة التى تكسوه من قمة راسه الى اخمص قدميه وكأنه ذاهب للمثول بين يدى الامبراطور الصـــينى فى « بكين » ، لا مقيم فى مقاطعة « تسى ـ شوان » مقر اسرتهما العريقة فى النبل والشرف ..

كانت الغرفة شـــديدة الحرارة تنبعث فى جوها ســـحائب البخور المعطر الذى كان يحترق فى موقد باقصاها .. وبعد أن لبث الجد برهة ينظر فى اعجاب ومحبة الى هذا الحفيد الذى كان مناط آماله ومعقد رجائه . اخذ يحدثه حديثا متصلا .. ثم قال له أخيرا :

ـ قد سمعت يا بنى .. فما قولك ؟ .

فانحنى الغلام باحترام عميق حتى كاد يلمس الارض برأسه .. انحنى ثلاثا مشبكا يديه فوق صـــدره ، غاضا بصره .. ثم قال

ـ مولاى وسيدى النبيل .. انت اكبر سنا وأرجح عقلا .. وقد تكلمت .. فلك منى الحمد والشكر على ما تفضلت به من هذا النطق السامى .

ـ هل يسرك أن تذهب ؟

ـ يسر طفلك يا سيدى المبجل أن يمتثل لرغبتك .

ثم انحنى الغلام حتى الارض باسطا كفيه قبولا .. واردف :

ـ انى لشديد السرور يا مولاى المعظم .

فضحك الجد وقال :

ـ كلا .. أنت تكذب .. وانت تمقت الذهاب .. وانا اكره أن ادعك تذهب ، لكن الخير فى ذهابك .. واذن ستذهب .

وبسط يده الصفراء الشبيهة بالمخلب فتناولها « فو » الصغير ووضعها باحترام فوق جبينه . ثم وقف مستندا الى ركبة جده وأخذ يعبث بحبات مسبحته الطويلة المدلاة من عنقه .. بينما قال « فو » الاكبر :

ـ لا باس .. قل ما فى نفسك .. ودع كلمات المديح . تكلم ببساطة ، وقل ما تحب ..

لكن هذا الغلام الصغير السن الكبير العقل الذى نشأ على حب الطاعة والنظام كان يعلم انه لا مفر من ذهابه ، وقد تقبل هذا بالتسليم والامتثال ، ولذا قال :

ـ ومتى أذهب ؟ .

ـ بعد زواجك .. فى الشهر الثالث بعد الزواج .

اشرق وجه الغلام . فهو لم يكن يجاوز العاشرة من سنه .. وما دام قد تقرر أن يتم هذا النفى الذى يجزع منه بعد الزواج الذى سيكون ولا ريب بعد أعوام ، وهو عادة يستغرق وقتا طويلا واجراءات معقدة ، فأمامه اذن أجل كاف ومهلة مديدة .

بيد أن النبيل الصينى الهرم هز راسه فى كآبة ، وقال :

ـ لا .. لا تظن هذا .. سيتم زواجك حين تزهر اشجار الكرز فى المقاطعة .

فما كاد الغلام يسمع هذه العبارة حتى بدرت منه زفرة مكتومة بينما استطرد الجد :

ـ احسب ان هذا افضل .. ان زوجتك ولدت فى الشهر الماضى وقد جاءنى العداءون أمس برسالة من أبيها المبجل .

اهتم « فو » الصغير بهذا النبأ .. فقد طالع عن مثل هذا الزواج وكان يعلم انه يتم احيانا ، والحق أن هذا المشروع قد راقه وصادف هوى من نفسه .. وتمنى لو لم يكتب عليه هذا النفى الى انجلترا حيث يمضى سنوات مخيفة وهو أغلب الظن بعيدا عن « عقيلته » فقد حدثته غريزته الصينية ان السيدة « فو » الصغيرة لن ترافقه فى رحلته الى الديار الانجليزية .

اجل .. كان « فو » الصغير يميل الى الزواج ويستطيبه .. وكان يهيم بالاطفال هياما شديدا ويستقدمهم اليه حيث يطعمهم الحلوى ..

وود لو يتبسط جده الآن فى الحديث عن زوجته الرضيعة . بيد أن « فو » الاكبر لم يفعل .. وما لبث أن نهض متصلبا من مقعده ، وقال للحفيد !

ـ اقرع الناقوس ..
فاسرع الغلام الى قرص كبير من الذهب المطروق كان معلقا فوق أص من الريحان ، وتناول القضيب العاجى المصنوع على هيئة الافعى وقرع الناقوس مرة واحدة . وسرعان ما تراكض عدد من الخدم فى أردية زرقاء يعلوها شعار « فو » . فقال الكهل بايجاز :
ـ الارز . .
ثم بسط يده للغلام .. فقال هذا مبتهلا :
ـ استند الى . ! استند على بكل قوتك .. ان عظامك الموقرة متبعة ..
فقال الجد فى كآبة :
ـ ان عظامى تؤلمنى اليوم حقا . لكن اخلع ملابسك أولا .. فلا يمكن أن تأكل وأنت بهذا الحشو ..
فطرح الغلام سترة الفراء التى تعلو ملابسه . وراحت اصابعه تعمل بسرعة فى الازرار والمشابك والاربطة .. وانحسرت عنه الاردية واحدا بعد واحد الى الارض . فهرع الخدم اليها وجعلوا يتناولونها باحترام وخشوع .. ولم يبق أخيرا فوق الغلام سوى رداء فضفاض من نسيج رقيق ارجوانى ، وبدا هيكله الرشيق ضئيلا نحيلا . وما لبث الجد الهرم أن توكأ فوق كتفه الصغيرة ، وقصد الاثنان الى « الارز »

* * *

كان جيمس موير الاسكتلندى ، مربى الغلام ، ينتظرهما فى غرفة الطعام وقد اختاره الجد لهذه المهمة وجاء به منذ ثلاث سنوات من « بكين » حيث كان أستاذا فى جامعتها ، وأجرى عليه راتبا مغريا ووعد أن يهيىء له من الفرص لدراسة الحياة الصينية من كثب ما لن يتاح له مهما أقام فى عاصمة الامبراطورية .
والحق أن « فوشنج يو » كان رجلا شديد الحنكة نافذ البصيرة مهف الحس ، وقد استشف فى آفاق مستقبل هذا الوطن الذى يضطرم قلبه حبا له احداثا جساما ومصائر حافله ؛ ولذلك اختط لحفيده ثقافة فريدة وتربية ناضجة .
رأى الشيخ ببعد نظره أن أوربا ستطرق أبواب الصين وتقتحم معاقلها ما فى ذلك ريب ولا دافع من دونه .. ومن الخير لحفيده « فولى شانج » أن يتأهب لذلك ويتزود بالسلاح الكامل ويعرف أوربا كما ينبغى أن تعرف قبل أن تغزو الصين وتغترف من ثرائها الموفور وتسمن من مواردها الغزيرة .. وقد راح الجد يدرس عن كثب أطوار الامم الآرية التى استقرت فى بكين وهونج كونج

وشنغاى وهانكو .. فلم يجد من هم أقرب اتصالا وأشد تأثيرا فى الصين من الانجليز .. رآهم قوما تخشى عدواتهم وتستحب صداقتهم . ولمس فيهم خلقا متينا وجلدا غريبا . وهكذا استقر عزمه على أن يبعث بالغلام الى انجلترا حتى يتزود من الاسلحة بما يهيىء له أسباب الكفاح متى عاد الى وطنه .. لكنه رأى أن يمهد لهذه الغاية بخطوة أساسية حتى يذهب الغلام وهو ملم بالعناصر الاولية اللازمة .. ومن هنا كان اختياره لجيمس موير مربيا للدب الصينى الصغير .. وقد أقام موير ثلاثة أعوام يشرف على تربية الغلام ويعده للمرحلة الشاقة التالية .. وقد كاشفه الجد من أول لحظة بما علمه الحفيد منذ قليل .. وهو أنه ذاهب لتلقى الدراسة فى جامعة اكسفورد .

ومن ناحية أخرى فان الجد لم يهمل تثقيف الغلام وفاقا للانماط الصينية . بل جد فى ذلك حتى صار فى وسع الحفيد أن يرتل كتاب الطقوس الدينية « لى - كى » عن ظهر قلب ، ويرسم الحروف الصينية المعقدة فى يسر وسهولة ، كما ألم بتاريخ قومه واتقن المصارعة ومهر فى لعب الشطرنج حتى كان يفوز على جده .

وفى المرحلة التالية مرحلة التعلم على يدى جيمس موير ، أبدى الغلام من ألوان الجد والتفانى فى الدرس والتحصيل ما هيأ له فى نهاية أعوام ثلاثة أن يلم بالثقافة الاوربية الماما وافرا .. وصحيح أن أوربا الحقيقية كانت أمامه كتابا مقفلا . بيد أن الجد كان مطمئنا الى التغلب على هذه العقبة متى أقام حفيده فى الغرب بضع سنوات .. ثم يعود الغلام المحبوب لخدمة وطنه والفوز بنصيبه .

وقد جلس الثلاثة الآن فى غرفة الطعام يتناولون « الارز » فأما الجد فكان يستخدم ملعقة من خشب .. وأما الغلام ومربيه فكلاهما كان يستخدم شوكة من فضة .

وكانت الغرفة حافلة بالالوان الصارخة والعطور والازهار ومجالى الثروة والترف .. وقد شيدت قرب سقفها الاخضر ذى النقوش الرائعة شرفة تدلت منها ثلاثة مصابيح دقيقة الصنع جميلة الشكل ينبعث منها بخور عطرى يسكر الحواس ، وجلس فيها ثلاث فتيات يعزفن الحانا عذبة على الدفوف والمزامير .

وكان الطعام سائغا لذيذا فأكل منه موير بشهية ، أما الغلام

وجده فأصابا منه شيئا يسيرا لما كان يساورهما معا من الكآبة والم الفراق القريب .

ثم جاءت خمس نساء من محظيات النبيل الصـــينى يحملن الفواكه والحلوى .. فتناول الغلام بعضا منها وابتسم لاحـــدى النساء اذ كان يعرفهن جميعا ويحبهن وطالما لعب معهن .. أما الجد فلم يكترث لهن اذ كانت العناية بحفيده هى شغله الشاغل وهمه الوحيد .. وان كانت المحظيات مع ذلك يجدن فى داره كل رعاية وعطف .

وفجأة أقبلت أفعى ضخمة تسعى فى أرض الغرفة .. ومع أن موير كان يعرفها تماما ويعلم انها مستأنسة وانها لا تؤذى ، فلم يتمالك أن رفع قدميه عن الارض .. أما الغلام فألق اليها قطعة من الحلوى .. فزحفت الافعى والتهمتها ثم تسللت الى أحـــد جوانب الغرفة والتفت على نفسها واستسلمت للنوم .

الفصــــــــل الثانى

رحــــلة الزوج

كانت حفلات زفاف « فولى شانج » الحفيد من أبهى وأمتع الحفلات وسار الموكب الى مقر العروس فى فجر يوم مشرق من أيام الربيع .

امتطى الجد والحفيد والمربى جيادا ثلاثة تتدلى منها الاجراس الرنانة اشعارا للمارة باخلاء الطريق .. وتبعتهم النقالات الخفيفة يحملها خدم فى ثياب مزركشة حتى يســـتقلوها اذا تعبــوا من الركوب .

وكانت هدايا العروس مؤلفة من أكداس الحرير والديبـــاج والعطور والتوابل والخزف الثمين ، جمعت فى أكياس وســــلال أربى عددها على الثلثمائة ، رفعها الحمالون فوق عواتقهم وساروا بها الهوينا خلف الموكب الحافل ، وكانت الحرائر وحـــدها تكفى لكسوة العروس « لى ــ لو » وبناتها الى الابد .

وقد اشتملت الهدايا فوق ذلك على مئات من «كعك الزفاف» الدسم ، وستين نارجيلة « شيشة » دقيقة الصنع منوعة الاحجام لكى تدخن فيها العروس ، ومئات من الاحذية ، وطيـــور حية مفردة فى اقفاص مرصعة بالاحجار الكريمة ، وأخرى غير حية مصنوعة من الذهب والمرجان ، وعديد من دقائق العاج والخزف النادر والمرايا المصنوعة من الفولاذ المصقول .

كما تألفت الهدايا من عشرين جارية نصفها للعروس ونصفها لامها وسلحفاة أليفة موضوعة فى قفص زجاجى جيء بها من جزيرة « سيلان » ودربت خصيصا لحمل الاطفال فوق ظهرها ، وقد أريد الان أن تحمل العروس « لى ـ لو » حالما تستطيع أن تصمد فوقها .

وتألف الموكب فوق ذلك من مائة وثلاثين موسيقيا وموسيقية لعزف آلات الموسيقى الصينية المنوعة ما بين المزامير والقيثارات والاجراس والطبول والدفوف ، هذا الى جيش جرار من الطهاة والخبازين .

خرج هذا الموكب الحاشد الحافل من قصر الجد وعرج أولا على المعبد القريب حيث دلف اليه الجد والحفيد لاداء واجب العبادة والتقديس للاباء والاجداد .. ثم استأنف الموكب السير فى طريق متدرج فى الارتفاع حتى اذا مر بقبر فخم انحدر الجد والحفيد وجاوزاه سيرا فى رهبة وخشوع .. اذ كان يضم رفات أم « فو » الاكبر التى انتحرت شنقا وهى فى أزهى وأنفس ثيابها حدادا على وفاة زوجها .

واصل الموكب السير .. وكان يمكن من أول الامر وضع حد لهذا العناء بحضور العروس نفسها الى بيت الزوج كما هى القاعدة المرعية ، لولا أنها كانت صغيرة السن لا تحتمل بنيتها الضئيلة هذه الرحلة الشاقة .

وقد مروا بحانات متناثرة فى أرجاء الطريق غير أنهم لم ينزلوا بها وانما كانوا يحطون رحالهم ويتناولون ما طاب من الطعام . حتى اذا أقبل الليل دلفوا الى أكواخ من الخيزران كانت تقام لهم سلفا .. فيأكلون ويلعبون الشطرنج ثم تشنف الموسيقى أسماعهم من خارج الاكواخ حتى يستولى عليهم النوم .

وقد مر الموكب بسهول تفيض بالحياة والسكان ، ومعابد لا عداد لها يتقاطر اليها الحجاج من كافة الانحاء والبقاع ، وغابات مترامية الاطراف تنبت فيها الوان الاشجار والثمار ، وأنهر وغدران تجيش فيها المياه أو تترقرق كذوب اللؤلؤ كلما داعبها النسيم .

وما يكاد الليل يرخى سدوله حتى تبرز فى الظلام مئات من المصابيح الحريرية والورقية الملونة يحملها المارة على أبواب المعابد أو جوانب الطريق أو فى بطون السهول وفوق رءوس الروابى

والآكام .. فيكون لها مشهد رائع يبهر العين ويأخذ بمجامع القلوب .

كانت أيام الرحلة مشرقة ذهبية ولياليها لألاءة النجم صافية الاديم ولم يظفر جيمس موير فى حياته بمثل ما ظفر به فى هذه الرحلة من مجالى اللذة الحسية والمتاع الشامل .. وقد استغرقت الرحلة شهرا كاملا .

الفصل الثالث
زوجة « فو » الصغير

حل الحب فى قلبى العروسين لاول نظرة .

فقد صاحت العروس حين وقع نظرها على « العريس » .. أما هو فقد نسى وقاره ورصانته الواجبين فى هذا المقام ، وصفق بيديه الصغيرتين ورقص طربا ..

وقد مزقت العروس الطفلة نقابها ورفضت صارخة أن يبقى فوق وجهها .. وهكذا أتيح لفو الصغير أن يرى هذا الوجه قبل الاوان .. فاذا هو وجه بض يفيض صحة ونضارة .

وضحكت طربا حين قيد معصمها الى معصمه بالخيط القرمزى .. وتمت مراسم الزفاف وهى فى مهد من الخيزران اقيم فوق منصة عالية ..

وبعد تمام عشرات الطقوس هم والدها « لى » بحملها الى غرفتها الخاصة ، غير أنها بسطت يديها الصغيرتين الى « فو » الصغير فى رغبة واضحة .. فوثب اليها وحملها بين ذراعيه وذهب بها الى مرضعاتها ونسائها وهو يعد نفسه اسعد الازواج على وجه الارض .. فلم يتمالك الآباء أن ضحكوا طربا بينما ابتسم موير متفكها بهذه المشاهد الغريبة ..

وراح الغلام يمرح حرا طليقا فى الفناء الداخلى مع اخوة العروس .. بيد أنه كان يمضى سواد وقته مستلقيا على الارض أمام العروس الطفلة فى غرفتها يرعاها ويتعهدها أو يحملها بين ذراعيه فتبسم له بسمات مشرقة ثم تستسلم للنوم ..

وهكذا مر « شهر العسل » على هذا النحو الهنىء اليسير ..

ولم يكن مشروع الزواج هو وحده الذى حمل « فو » الاكبر على الحضور الى بكين .. فقد كانت له فيها أملاك واسعة يشرف عليها وكلاؤه وعماله .. وما كاد يفرغ من مراسم الزفاف حتى راح يتفقد شئون هذه الاملاك وينظر فى أعمال ولاته عليها .. وقد استغرق فى هذه المهمة وقتا طويلا ..

فلما عاد الى بيت مضيفه « لى هنج شانج » أستأذن منه فى العودة الى مقره فى « تسى شوان » مصطحبا « فولى شـــانج » الصغير على كره ومضض ..

وقد سأل الغلام جده أن يأذن له باصطحاب العروس الطفلة أيضا ، واجترأ على القول بأنها صارت الآن ملكـا لهم .. بل انه صارح جيمس موير فى غير حرص انه يتوق الى اصــطحابها فى رحلته الى انجلترا ..

فأما الجد فقد أقر وجهة نظر حفيده فى أن العروس أصبحت الآن ملكا لهم حقا .. لكنه قرر انه يؤثر أن يعيرها فى الوقت الحالى لابويها حتى يعود « فو » من أوربا ..

فلما سمع الغلام هذا الكلام حزن فى نفسه وثار فى ضميره . بيد أنه احتفظ فى الظاهر بهدوئه وابتسامه . وانحنى حتى الارض بين يدى جده ثلاث مرات قائلا :

ـ لتكن مشيئتك الحكيمة .. وسيعمل بها عبدك الذليـــل راضيا .

ثم تزود من « السيدة فو » النائمة فى مهـــدها الارجوانى بنظرة كسيرة . وسار متثاقل الخطوات الى محفته ..

الفصـــل الرابع
العـــودة

ذهب الموكب فى الربيع .. وعاد فى الخـــريف .. ولم تكن مجانى الطبيعة فى هذا الفصل بأقل منها فى الربيع ..

وفى أكثر من ليلة من ليالى رحلة العودة كان الجد وحفـــيده يجلسان الى نار مشبوبة خارج المضارب ويأخذ الجد فى حـــديث رصين يلقيه على سمع حفيده ، بينما يجلس موير ينصت اليهما وهو يدخن غليونة

ولم يكن هذا الحديث يدور حول الرحلة المزمعة الى انجلترا . فقد تم ذلك من قبل وصار أمرا مقررا ..

وانما كان الحديث ينصب حول الحياة المقبلة بعد أن يعـــود الحفيد الى وطنه ويستقر بين اهله وعشيرته .. وكان ســـواد الحديث يدور حول النساء . فطالما كان الجد يحدثه عن تاريخ نساء أسرته الذى كان يذكر بالتمجيد والفخار .. فقد اشتهرت سيدات بيت « فو » بالجمال والعلم والحكمة ورجاحة العقل ، وزوجت أحداهن الى أحد أباطرة الصين وانجبت له «ولى عهد» . كما عزفن كذلك بسمو الخلق والتمسك بأهداب الفضيلةوالمحافظة

على الشرف .. وكن جميعا موضـــع الحب ومناط الاجـــلال والتقدير ..

والواقع أن « فولى شانج » الصغير كان يذكر أمه وحزن أبيه لوفاتها . فقد قضى نحبه ولما يخلع ثياب الحداد عليها .. ولم يعقب منها سوى هذا الابن الصغير .

ومما هو جدير بالذكر أن الجد والحفيد قد تحدرا عن طريق الام من سلالة « كونفوشيوس » حكيم الصـــين الاكبر . وقد دبجت احدى نساء الاسرة المجيدة مصنفا أدبيا جليلا لم يزل يشار اليه بالبنان فى أدب الصين وحكمتها .

* * *

وكان الجد اذا فرغ من هذا الحديث جلس يلعب الشطرنج مع حفيده ويتناول النبيذ الحار المتبل مع جيمس موير .. وفى أثناء ذلك يأخذ دب مدرب أليف أهداه والد العروس الى « فو » الصغير فى الرقص والوثب فى ضوء اللهب ، فيضج الغلام بالضحك ويصفق بيديه طربا .. ومهما يكن فان قلب الغـلام لا يمكن أن ينطوى على حزن دائم لاجـل عروس طفلة لم يعرفها الا منـــذ شهرين وهى لم تزل بعد تزحف على الارض .

الفصـــــل الخامس

فراق

مرض النبيل الصينى الهرم عقب العودة الى داره . وظل طريح الفراش طوال أيام الشتاء القارسة .. ومهما يكن الصينى قليل الاكتراث للموت فان هذا الشيخ لم يطاوعه قلبه على فراق الصبى وهو لم يزل حليف السقم ، رغم ارادته الحديدية وعزمه الغلاب .

على أنه تماثل للشفاء بقدوم الربيع .. وما وافى الصيف حتى تم اعداد المعدات اللازمة لرحيل الغلام .. وتأهب للسفر برفقة مربيه الاسكتلندى

وشهدت وداع الجد والحفيد تلك الغرفة التى قضيا فيــــها سواد وقتهما .. ووقف كلاهما قرب التابوت الثمين الذى أهدته جدة الغلام الى زوجها يوم مولد وحيدهما ــ والد الغلام ــ لكى يضم رفاته .

ووضع الجد احدى يديه فوق غطاء التابوت .. واستقرت الثانية فوق منكب الغلام .. وقال له :

ـ أرجو أن تكون هنا لكى تطرحنى وتمددنى فى هذا التابوت وقت أن يحين أجلى وأرقد رقدتى الاخيرة بين خشبه الثمين .. وسواء كان هذا أو لم يكن ، فلتذكر دائما يا ولدى انك سليل بيت « فو » ، سيد الرجال ، وابن وأب لفضليات النساء ، وصينى صميم .. لقد كنت دائما مصدرا لسرورى وغبطتى ، فلتذهب الآن .

فسجد الغلام فوق الارض ووضع راسه فوق قدم الشيخ الذى انحنى فوقه وباركه ، ولما نهض الغلام قال له الجد :

ـ اذهب ! ..

فخرج الغلام دون ان يلقى نظرة ، او يفوه بكلمة .

ولاحظ جيمس موير الذى كان ينتظره عند الباب الخارجي أن الغلام لم يلق خلفه نظرة واحـــدة طول الطريق الى جزيرة « هونج كونج » حيث تقرر أن يبحرا منها فى غضون أيام قلائل .. بل شبك يديه داخل كميه الطويلين ورافقه بهدوء وسكون رافع الرأس تعلو محياه الشاحب ابتسامة محزونة اليمة .

ولما ساراالى الجنوب ثم الى الشرق لم يتكلم الغلام الا لماما .. ولم يكن يشكو أو يصخب أو يتضجر أو يحزن .. وان ساوره الحزن حقا فقد كان يخفيه ويلوذ باكناف الصمت والتحفظ .

وكان يدور بعينية فى جميع الارجاء ، لكن وجهه كان خلوا من المعالم والدلائل وشفتيه مطبقتين .

وكان يمر بالقرى والمدائن والبحيرات والروابى فيتطلع اليها فى رصانة ولا يبدى كلاما .. بل انه لم يبداهتماما غير عادى حين دنوا من الجزيرة العتيدة .

ووقف موير ممسكا بيد الغلام فوق سطح السفينة يجيل النظر فى أرجاء الميناء حيث تلتقى أوربا وآسيا على اليابسة وفوق سطح المياه وراح يتزود بنظرة أخيرا من هده الديار التى جاءها فتى حدثا ودرس من معالم حياتها ما لم يتح لاوربى قبله . وهو الآن يفارقها عائدا الى وطنه وأمه وفى النفس لوعة لفراق هــذه المعالم التى أحبها وتغلغل حبها فى سويداء قلبه . ومهما عاش فلن ينساها ولن تغيب ذكراها عن خاطره .

وانسابت السفينة مبتعدة عن هذه المعالم وقد وقف المربى والغلام يرقبانها حتى غابت عن أنظارهما .. وما لبث الغلام أن سحب يده برفق من يد المربى وقصد الى مخدعه بهدوء ..

وراح موير يراقب الغلام وهو يبتعد عنه فى جـــلال مؤثر ورزانة فريدة لكنه لم يتبعه .. فقد أدرك انه يريد أن يخلو الى نفســـه .. وقد سره هو أيضـــا أن يخلو كذلك الى خواطره وأفكاره ..

ولما قصد موير بعد ساعتين الى المخـــدع لابدال ملابســـه استعدادا للعشاء الفى الغلام حليف البكاء ، لاول مرة فى حياته . وآنس منه ازورارا عن الطعام . فلم يشأن أن يثقل عليه بما لا يحب ، وتركه لدموعه .

* * *

وفى الصين نفسها انصرف شـــيخ طاعن فى السن عن طعامه وأطال الركوع أمام ألواح اسلافه يصلى فى خشوع .

الفصـــــل السادس

طفولة معـــــذبة

تعاقبت مشاهد الرحلة . وتغلب الغلام على حزنه . وأخذ يتسلى بما يقع تحت نظره .

على انه ما كاد يصل الى ميـــناء « سوثمبتون » حتى راح يتساءل عما حمل جده على ان يطوح به الى هذا المنفى المروع .

فقد ثارت نفسه على جميع المشاهد التى رآها .. وبدت فى عينيه بشعة كريهة . وفقد كل شيء طرافته وجدته . وما كاد يرى اوربا عن كثب حتى بدت قذى فى عينيه وشجى فى حلقه ..

وقد امضيا الليل فى أفخر فنادق الميناء .. ومع أن « فو » كان قد ألف الطعام الانجليزى فقد لفظته معدته هذه الليلة ومجته نفسه .

ولما استقلا مقصورة الدرجة الاولى فى اليوم التالى فى القطار الذاهب الى لندن ، ريع الغلام اول الامر حين الفى نفسه رهين جدران مقفلة . ثم ثارت نفسه .

وقصدا الى السفارة الصينية حيث كان الغلام يمنى نفسه بأنه واجد قطعة من وطنه . لكن خيبته كانت مرة . فقد الفاها مصبوغة بصـــبغة انجليزية بحتة .. واستقبله ملحق انجليزى مصفف الشعر بالزيت اصفره وقرر له أن السفير مدعو لتناول الشاى فى وزارة الخارجية وانه لا يلبث أن يعود .. ثم دعاه الى الجلوس فى غرفة الانتظار .

على أن « فو » تنفس الصعداء بعودة السفير . وبعد العشاء قاده السفير الى غرفة داخلية كانت أقرب الى الصين من كل ما رآه .. لكن « فو » ظل يمقت السفارة الصينية فى لندن حتى آخر أيامه .. وقد أقام فيها خمسة أعوام ثم انتقل الى جامعة اكسفورد .

ولم يتعلق « فو » بلندن طوال اقامته فيها .. ولم يدن لديه ما يدعوه الي التعلق بها .. على أنه أحب الاماكن الخلوية فى ارجاء الريف الانجليزى .. وطالما اختلف اليها برفقة موير فى عطلات عيد الميلاد وعيد الفصح .

وقد نال جيمس موير وظيفة « بالمتحف البريطانى » كانت فى انتظاره . على أن واجباته كانت يسيره . ولم ينقطع راتبه الموفور الذى كان يجريه عليه النبيل الصينى فى « تسى شوان » . وكرس جانبا كبيرا من وقته وعنايته لتلميذه العتيد .

ولولا هذا الاسكتلندى وبعض الصينيين الذين تعرف بهم الصبى فى دار السفارة لجن وتزلزلت أعصابه بتأثير هذا النفى وهذا الحنين الذى كان يحسه لارض الوطن . على انه تعزى به وبهم .. ووجد فيهم عونا وملاذا .. وأخذ يجد فى الدرس والتحصيل دون أن تفتر همته لحظة واحدة .

ومع انه لم يجد فى الدنيا ما يعدل وطنه فان اكسفورد وحدها راقته واستراحت اليها نفسه .. وكان يؤثرها على دار السفارة .

ولما أرادوه على قص ضفيرته ونزع ملابسه الفضفاضة الثمينة وارتداء زى الكلية ، ثار غضبه ورفع راية العصيان . فقد كان يفخر بهذا الزى العريق شعار اجداده الاماثل وأسلافه الامجاد . ولم ينزل عن عناده الا بعد أن قيل له ان هذه هى رغبة جده . فسكت مكرها . وان لم تطب نفسه ..

وقد أقام الفتى الصينى فى هذا المنفى عشرة أعوام تعرف فى اثنائها بكثيرين ، لكنه لم يصادق الا شخصا واحدا .. أما الباقون فكان يضيق بهم ويتبرم بلقائهم ..

لكن الصدمة الاليمة التى تلقاها وكانت أفدح فى نفسه من قص شعره وابدال زيه هى وفاة جده . فانه ما كاد يمضى سنة واحدة فى انجلترا حتى نمى اليه نبأ وفاة هذا الجد العظيم الذى كان عماده الوحيد فى هذا العالم ..

كانت فاجعة اليمة حقا .. وقد حزت فى نفس الفتى ومزقت نياط قلبه المعذب ..

احدق به اليأس المطبق .. واصبح فى الحياة وحيدا وتقطعت به الاسباب .. ولم يعد يمت بسبب الى مخلوق فى هذا العالم .. ولم يمت اليه أحد بسبب سوى طفلة صغيرة تتعثر فى خطواتها فى غرفة فى بكين العتيدة تبعد عنه ثمانية آلاف من الاميال ..

الفصـــــل السابع

ســـــلوى

وجد « فو » فى جوانب حيـاة اكسفورد ما ذكره بوطنه ، وجد فيها الجمال ، والوقار ، والهدوء ، والتفانى ، وغير ذلك مما لا يشبه تمام المشابهة ما ألفه فى الصين ، ولكنه كان برغم ذلك مذكرا له بوطنه محببا اليه الحياة فى هذا الجو الصافى الصريح .. فانه لم يكن أدعى لنفوره من هذا الخلط الشائن بين الشرق والغرب الذى ألفاه فى السفارة الصينية وذلك التهالك على الجمع بين النقيضين فى صعيد واحد ..

وقد جمع (فو) فى حياته بين التفانى فى الدرس والتحصيل، والاستمتاع باللهو البرىء الى أقصى حدود المتاع ...

ومع أنه طالع كتبا عدة ودرسها دراسة عميقة فانه لم ينس لحظة واحدة انه لم يقصد الى أوربا الا لدراسة أهليها شـــعوبا وافرادا .. وقد التزم هذه الخطة ولم ينحرف عنها قيد شعرة .. ولم يقصر فى دراسة الجنس اللطيف كذلك كلما تهيـأت له الفرصة . بيد أن صلاته بالنساء لم تخرج عن حـــدود التحفظ والمجاملة .. وبقى منصرفا بقلبه الى الصين وحدها ، ولم تستطع فتاة انجليزية واحدة أن تؤثر فى نفسه أدنى تأثير أو تظلل سماء حياته الصافية .

والواقع ان جيمس موير نفسه قـد ساوره بعض الخوف على الفتى فيما يتصل بالمسائل الجنسية حين أشرف على دور الشباب .. وكان موير يعلم ان الانجليز أنفسهم فى ديار الغربة يستجيبون لنزوات النفس فى هذه المرحلة .. لكن (فو) استمر فى حيـاته لا يهتز ولا يتأثر .. وحيدا فى أوربا .. راضيا بوحدته ..

وهو لم ينس زوجته (لى لو) . لكنه لم يكن يفكر فيها الآن

الا لماما .. ولاريب أنها ستقوم بدورها خير قيام متى حان الوقت لتحقيق سلطانه عليها ولانجاب الابناء .. أما الآن فقد كان مستفرغا جهده باذلا أقصى عنايته فى تنفيذ رغائب جده وتحقيق الخطةالتى رسمها له .

على انه كان أحيانا يختلف الى فتاة فى ابرشية أبيها ألفاها أدعى الي الاهتمام من سائر بنات جنسها .. وكانت فلورنس جراى ترحب به فى حياء وخفر . وتدعوه لتناول الشاى على مائدتها ، وقد علمته لعبة « الكريكيت » التى كانت بارعة فيها ، فاستطاع أن يقهرها فى الشوط الثانى .. وقد أهدى والدها أرغنا جديداً قابله بالشكر والامتنان .

وبعد اتمام الدراسة فى اكسفورد شرع « فو » فى القيام برحلات عديدة واسعة النطاق ، بعضها برفقة جيمس موير ، وبعضها كان يقوم بها وحده . وفى أحد فصول الصيف نزل « فو » ضيفا على أسرة موير فى مقرها باسكتلندا .

وقد مالت الام الاسكتلندية الى الفتى الصينى ، واحبها الفتى بدوره بعد حبه لجده ولمربيه .. وكان يمضى الساعات الطويلة يبادلها الحديث فى رصانة وهدوء .. وكان أحيانا يمد اليها يد المساعدة فى الشئون المنزلية .. وما يكاد يرى ذلك جيمس موير حتى يأخذ فى ضحك صامت رقيق لانه كان يعلم ان هاتين اليدين الرقيقتين الصفراوين لما تألفها أعمال الخدمة ، واغلب الظن انهما لن تمارسها فى يوم ما ..

وكان (فو) اذا خلا الى نفسه فى تلك الساعة الليلية حين يكتب ويفكر ويناجى نفسه بالصينية ، وحين يتجه بقلبه الى أسلافه عبر الدنيا يقدسهم ويسبح بحمدهم ، كان يدون فى عناية تامة كل ما يسمعه من هذه الام الرصينة المدبرة وما يتعلمه منها ، وينذر اذا رزقته الآلهة ابنة فى عداد من تهبه من الابناء أن يلقنها مبادىء الين موير وتعاليمها ..

وأكثر ما كان يحمد لها انها لم تكن تجلس الى مائدة العشاء فى تلك الملابس المنكرة التى تكشف عن جسد المرأة وتبدى عريها .. وصحيح انه كان يعلم أن سواد السيدات الانجليزات اللاتى كان يراهن فى المسارح ويلقاهن فى الحفلات الارستقراطية بهذا التجرد كن من فضليات السيدات .. لكنه كان يستبشع هذا التجرد وينكره ولا يكاد يرى كيف يترخص فيه المجتمع الى هذا الحد ..

وفى احدى الرحلات الطويلة قصد (فو) ومويير الى جبال الالب للتسلق والاستمتاع بروعة الطبيعة العذراء فوق قممها الناصعة .. ونشرت الصحف اللندنية على الاثر ان (فو) قد قضى نحبه فى هذه الرحلة .. لكن الذى لقى حتفه كان صينيا آخر مندمجا فى جامعة (كامبردج) يدعى (كو) وقد زلت قدمه أثناء التسلق فهوى وابتلعته الثلوج .. بيد أن هذا الخطأ شاع فى اكسفورد ، وأسف له كثير ممن سمعوه .. وقد نمى الى سمع فلورنس جراى وهى فى الاسبوع الاول من شهر العسل بعد زواجها ، فأسفت قليلا على الفتى لكن هذا الاسف لم يدم طويلا ..

وقد أقام (فو) وحده ثلاثة أشهر كاملة فى (تور) بفرنسا حيث تفرغ للدراسة لغتها ومعرفة أطوار أهليها ..

والواقع ان (فو) قام بعد انتهاء دراسته فى اكسفورد برحلات متعددة فى أرجاء أوربا بقصد الدراسة والاختبار والاستفادة طبقا للخطة التى رسمها جده . وكان جيمس موير يصاحبه فى بعضها أحيانا ولكنه كان أحيانا أخرى يتنقل وحده .

ولما بلغ (فو) الرابعة والعشرين من عمره عاد الى وطنه .. وكان موير يتوقع أن يدعوه (فو) لمصاحبته ، ولكنه لم يفعل .

فقد تم له ما كان يريد من أوربا . وأحب أن يكون وحده بين أبناء جلدته وفى مهد أجداده .

وفى طريقه الى أرض الوطن التزم جانب الصمت ما استطاع فى رحلته الطويلة ، وكان يجلس محدقا فى أمواج البحر متجها بناظريه شطر الصين ..

على انه لم يكن وهو كذلك مستسلما للاحلام والخيالات ... وانما كان يدبر ويرسم الخطط لنفسه ولابناء وطنه ..

فقد كانت سحب دولية توشك أن تخيم فى جو الصين .. ورآها (فو) ببعد نظره .

ولما وصل الى جزيرة (هونج كونج) أمضي فيها أسبوعا حافلا . ثم استأنف سيره الى الصين الرئيسية التى لم تكد تطؤها أقدام أهل أوربا ، وقصد الى داره .

وقد زار اول الامر قبور اجداده وأدى اليهم واجب التقديس والاجلال .. ثم عكف على تنظيم بيته وأملاكه .. لكنه ألفى كل شيء سائرا فى مجراه الطبيعى فى أثناء غيابه الطويل الامد . فكأن روح جده العظيم كانت ترفرف على كل شيء وتلهم صواب التدبير ..

وأمضى (فو) بضعة أشهر فى تفقد ممتلكاته الواسعة . فلما تم له ذلك ورتب كل شيء على ما يحب ويهوى، ولى وجهه شطر (بكين) وطرق أبواب صهره (لى) .

الفصـــل الثامن

(لى لو)

لم ير (فو) زوجته حين وصوله الى بكين .. وقد اقام بضعة أيام مع صهره (لى) يتبادلان الاحترام والمجاملة ويشربان الشاى المغلى والنبيذ الحار المتبل . وصرح له الصهر انها بخير ، وانهـا لا تكاد تجد العزاء والسلوى لقرب فراق أهلها ، وانها تبكى بكاء متصلا وتعول عويلا مستمرا .

فانحنى (فو) حين سمع هذا الكلام وابتسم .. فقد كان ذلك ما ينبغى . ولا ينتظر غير هذا من أية عذراء صينية . وعلى قدر سمو مركز الفتاة يكون نصيبها من الحزن العميق .. ولما وصل نحيبها الى سمع (فو) طابت نفسه وأدرك انها نالت تربية طيبة .

ثم ودع (مستر لى) وزوجته وداعا حارا وأسرع بالعودة الى مقـــره ..

وراح على اثر وصوله يعد المعدات اللازمة لاستقبال زوجته واقامتها .. فلما تم له ذلك تفرغ لوضع الاسس اللازمة بشـــأن صلاته مع (الجمعيات السرية) المنتشرة فى كافة نواحي الصين وهى التى تؤدى أدوارا بارزة فى كـــافة الشئون الحيوية ، وعلى الاخص فى كل ما له اتصال بالمسائل الدولية ومعاملة الاجانب فى الصين ..

وكان (فو) قد توفر أثناء اقامته فى أوربا على دراسة المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دراسة وافرة وعول على أن يقتبس منها ما يفيد فى اصلاح احوال قومه وتحسين شئونهم .

ورغم المدة الطويلة التى قضاها فى أوربا فانه لم ينقطع يوما واحدا عن الاتصال بالصين اتصالا روحيا والتفكير فى أحـــوالها . وكان يعلم ان تيار حيويتها الزاخر يجرى فى الخفاء وحيث لا تدركه العيون .. ومع انه قد تشبع بالدراسات الاوربية فانه لم يقع فيما كان يقع فيه مواطنوه البارزون ممن درسوا مثله فى أوربا وجالوا

فى أطرافها من خطأ الاستهانة بقيمة (الجمعيات السرية) ونفوذها ونشاطها ، تلك الجمعيات التى تبدو منها آثار سطحية ولكنها مع ذلك متغلغلة فى كافة نواحى الصين مؤثرة فى كيانها تأثيرا محسا ملموسا ..

كان يعلم أنه لا بد لمن يريد حكم الصين حكما فعليا أن يحكمها من طريق الجمعيات السرية المنتشرة فى بقاعها .. وأن من أراد خدمتها والتأثير فى مصائرها فلا مفر له من العمل بواسطة هذه الجمعيات والا كان أثره محدودا تافها ..

وقد اعتزم (فو) أن يحكم فى الصين حقا وان يكون من القوى المؤثرة الفعالة تحت العرش الصينى ومن روائه . فقد كان يدين بالولاء للعرش الامبراطورى ، ولم يضمر فى نفسه أدنى ميل للجمهورية أو الثورة ، وآلى على نفسه أن ينفض يديه الى الابد من كل ما يتصل بهما بسبب ..

اعتزم (فو) أن يحكم اجابة لدوافع العظمة التى تجيش فى دمه ، ووفاء لواجبه كفرد من بيت (فو) العريق . على أنه اعتزم كذلك أن يقرن هذا الحكم بخدمة وطنه . فهو خادم هذا الوطن وحامى ذماره وهو قد كرس حياته للصين ووهبها اخلاصه وولاءه فى كل يوم من أيام اغترابه ..

واذن فقد استقر عزمه على أن يحكم ويخدم وطنه عن طريق (الجمعيات السرية) الموجودة فعلا ، وان يعمل على تكوين غيرها واظهارها الى الوجود .. فقد أدرك بجلاء أنه ينال بذلك غايته ويحقق مطامحه مطمئنا الى النجاح ..

وقد أقام فى داره وفيما جاورها ينتظر قدوم العروس فى موكبها الحافل الصاخب .. لكنه كان يستقبل كل يوم رسلا متعددين من كافة أرجاء الصين .

وبرغم ذلك فقد تيسر له فراغ كاف لاتمام الترتيبات النهائية لاستقبال زوجته ..

فأنشأ لها حديقة خاصة كانت تموج بأنضر الزهر وأينع الورود وتفوح فى أرجائها أعطر الروائح وأزكاها حتى لكأنها قطعة من الفردوس ..

وشاد فى الحديقة معبدا وقنطرة وبحيرة ينبت فيها اللوتس ومزولة شمسية وغابة متشابكة فيها ألوان الشجيرات .

وكان المعبد مؤلفا من احدى عشرة طبقة .. لكل طبقة سقف بارز ذو ثمانى زوايا .. يتدلى من كل زاوية جرس من الخزف

الثمين الازرق المموه بالفضة .. فاذا ترقرق النسيم هز الاجراس فتحدث رنينا موسيقيا يطرب الاسماع .
ثم جاءت الزوجة أخيرا محتجبة فى مقعـــدها المقفل المظلل بالورود والازاهير ..
جاءت فى موكب رائع حافل بالغوا فيه مبالغة تامة تعويضا لمـا فاتهم من ذلك وقت عقد الزواج نظرا لصغر سن العروس .

وانحنى (فو) عند باب الدار وهم برفعها من المقعـد الذى وضعه الحمالون على الارض . وما كاد يزيح الستار حتى تراجعت امامه منكمشة على نفسها الى أقصى زوايا المقعــــد .. ولما بسط يديه لحملها جعلت تلهث برقة كأنها حمامة مذعورة .
ولم يستطع أن يرى وجهها رغم انه حملها بين ساعديه .. فقد كانت محجوبة من قمة رأسها الى أخمص قدميها بنقاب حريرى قرمزى .
وكان كل ما شهده منها كتلة أرجوانية أحس بها غضة لدنة بين ذراعيه ، تبرق من ثناياها الحلى المؤلفة من الذهب والمجوهرات
على انه لم يشهد أحد ما شهد .. فانه حالما وضع المقعد على الارض أدار الحمالون وسائر أفراد حاشيتها ظهورهم ووقفـــوا مستدبرين المقعد .

ولما وصل (فو) بعروسه بين ساعديه الى مدخل الدار أدارها فوق مبخرة موضوعة على الارض قرب البـــــاب طردا للارواح الشريرة عنها ..
وفى البهو الكبير اجلسها فوق مقعدها الفخم وجلس فى مقعد مماثل بجانبها .. وظلا كذلك ساعة كاملة لا ينبسان بكلمـــــة واحدة .

ثم شربا من كأس واحدة . وقيد الخيط القرمزى حـــــول معصميهما دلالة على اتصالهما الابدى فى السراء والضراء .
وأخيرا نهض من مكانه وقادها الى ألواح أجداده حيث جثـا كلاهما أمامها وقاما نحوها بواجب التقديس والاجلال .
وتلت ذلك وليمة الزفاف .

وفى أثناء هذا كله كان البخور المعطر ينتشر فى الجو والموسيقى الشجية تشنف الاسماع وغناء الجوارى يهز الاعطاف .
على انه فى خلال ذلك لم ينظر الى وجهها ولم تشهد هى من وجهه سوى لمحة غائمة .

لكنهما تركا وحدهما آخر الامر .. وانصرف الحضور واحدا واحدا بعد ان كرروا الخضوع والانحناء .

فقادها (فو) الى غرفة داخلية مترفقا متئدا ثم رفع النقاب وتطلع الى محياها .

وبعد لحظة طويلة رفعت عينيها الجميلتين ونظرت فى عينيه .. ووقفا هكذا جامدين يفصل بينهما كوم من الحرير المكدس عند قدميها .

وفجأة بدر من (فو) صوت فجائى يشبه النحيب .. وبسط نحوها ذراعيه قائلا :

ـ يا زهرتى !!

وطوال هذه الليلة كان شذى الورود وأريج الازاهير ينفذ اليهما من خلال النوافذ ممتزجا بنغمات الموسيقى وغناء القيان .

وبعد هذه الليلة نسيت (لى لو) انه كان لها أم وأب واخوة وصديقات فى بكين القاصية .

وترك (فو) الايام تمر تباعا ناسيا شئونه الخاصة ومشروعاته الوطنية ، بل حتى جده العظيم .

وعاشا كلاهما عاما فى فردوس أرضى يرشفان رحيق الحب والسعادة .

ثم حملت زوجته وانجبت له طفلة .

ولكن عاجلتها المنية أثناء الوضع ، فقضت نحبها .

الفصـــل التاسع

(نانج بينج)

تعاقبت الاعوام .. ولم يتخذ (فو) زوجة ثانية .. فقد رأى الحياة منفسحة والعمر ممتدا أمامه ..

وألف حياة العزوبة بتوالى السنين وتفرغه جسدا وروحا للمشروعات الضخمة والمهام الجسيمة التى أخذها على عاتقه ..

ولم يشعر بأقل خيبة لجنس مولوده الاول وكونه انثى .. وربما كان اشتداد حزنه على زوجته هو سبب عدم اكتراثه لهذه النقيصة الكبرى فى جنس المولود .. أو ربما كان تحدره من سلالة الملكة (ين فى) وغيرها من فضليات النساء هو العامل الاول فى تقديره لجنس المرأة ، ذلك التقدير المناقض للعادات والتقاليد الصينية ..

وقد التمست السيدة (لى) أم الزوجة المتوفاة بسط ورعايتها على الطفلة .. بيد أن (فو) قابل هذه الرغبة بالرفض البات .. وان يكن أبدى بعض التساهل فى مسألة أخرى شكلية ..
فقد كان للسيدة (لى) شقيقة شابة ترملت وقت وفاة ابنتها (لى لر) وهى لم تزل عروسا .. والتمست هذه الشقيقة ان تكون مربية وخادما للطفلة اليتيمة .. فقبل (فو) هذا الرجاء ، لحين على الاقل ، لسالف معرفته زوج الارملة ، ورثاء لحالتها المؤسية، اذ كان الترمل هو أقسى ما تمنى به امرأة فى الحياة الصينية ، ولانه آثرها على استئجار مرضعة غريبة ..

اذن .فقد جاءت (سنج كونج ياه) الى بيته وعكفت على تربية الطفلة ، وقامت بواجبها خير قيام حتى استوجبت ثناء « فو » ورضاءه .. والحق أن تعلقها بالطفلة وتعلق الطفلة بها كان مضرب المثل ، وأصبح وجودها فى الدار أمرا مقررا لازما .. وكان « فو » يعاملها باحترام ويلزم اتباعه بطاعتها واحترامها مما يندر أن تظفر به أرملة فى هذه الديار المتشبثة بالتقاليد ، حتى أفعم قلبها شكرا وامتنانا ..

ولما بلغت (نانج بينج) الثالثة من عمرها جاء بها والدها الى (كولون) المتاخمة للاملاك الانجليزية فى جزيرة (هونج كونج) .. ولما ناهزت الثالثة عشرة جعلها صاحبة الامر فى ضيعة صغيرة حافلة بالجمال كان قد ابتاعها فى هذه المنطقة وأولاها عنايته وكان يتخذها مقرا له كلما جاءت به أعماله الكثيرة المتشعبة الى (هونج كونج)

وأدرك (فو) أنه بات مقضيا عليه ألا يتخذ زوجة أخرى .. فانه لم يأنس ميلا لذلك .. ولم ير ضرورة .. اذ كان بوسعه أن يتبنى ولدا .
لم تكن الزوجة لازمة . لكن اتخاذ ولد كان ضرورة محققة . فبغير الولد لا يدفن كما ينبغى أن يدفن .. ولا يوجد من يحزن لموته ويقدس ذكراه ..
وجمع (فو) مالا موفورا وثراء جما أضيف الى ما ورثه من كنوز جده .. لكنه الى جانب هذا الغنى الضخم استأثر بالسلطان الكبير والنفوذ العظيم .. وكانت سلطته ممتدة متشعبة لا حدود لها ولم يكن يفوقها سوى سلطة الامبراطور (تسى شى) نفسها .

والواقع أن (فو) كان يسيطر سيطرة تامة شاملة على الصينيين من شنغاى الى بنانج الى رانجون الى يوكوهاما ..

ولزم الاعتدال فى حياته الاجتماعية . ولم يكن يتردد فى اقتباس ما هو طيب من النظم والانماط الانجليزية .. كان يقتبسها جهرة ولكن لخدمة الصين ، وبطريقة الصينى المخلص ..

وكان فى بيته يرتدى الزى الصينى ويأكل الطعام الصينى .. واذا خرج الى الموانى الساحلية ارتدى الملابس الانجليزية . على أنه لم يلتزم ذلك على وجه الدوام .

وتمتعت ابنته (نانج بينج) بحرية لم تظفر بها فتاة صينية فى مقامها . وكان يشرف عليها مربيات انجليزيات بين وقت وآخر وأصبحت تتكلم الانجليزية بطلاقة ، وان لم تتمكن منها كأبيها ، وألمت مثل المامه بالفرنسيه .. وبرعت فى العزف على (البيانو) براعة سجلها أستاذها الالمانى بالاعجاب ، وقرر لابيها انها فاقت فى هذا الصدد هيلدا جريجورى ابنة مدير شركة الملاحة المقيم فى (هونج كونج) .

وكانت هذه الاسرة مؤلفة من الام وابن وابنة فـــوق الوالد نفسه لكن الفتاة الانجليزية والفتاة الصينية لم تتلاقيـا فى مكان واحد .. فان هيلدا جريجورى كانت تتنقل فى كل مكان .. أما (نانج بينج) فلم تغادر (كولون) الا نادرا .

الفصـــل العاشر

فى حديقة اللوتس

كانت حديقة (نانج بينج) قطعة من الفردوس ..

فقد جمعت من الازاهير انضرها . ومن الورود والرياحـين أعطره ومن الاشجار والافنان ابهاها وأجملها .. ومن الثمـــار أشهاها وأعذبها وكانت تشقها بحيرة هى الى الغدير الرقراق أدنى وأمثل . تقوم فوقها قنطرة تشابكت عليها الافنان وزانتها التماثيل .. وتسبح فيها أزهار اللوتس والزنبق مؤتلفة الالوان .

وعلى قيد مسافة من الدار شيد معبد رائع كان يرى الناظر فوق أرضه وسائد مخملية متناثرة ، وبعض الكتب ، ومنـــديل امرأة ..

وفوق هذا الفردوس الارضى كانت الشمس ترســل ذوبها العسجدى فتزيده روعة وتضاعف من سنائه وبهجته .

وراح عازف على القيثارة يتهادى فوق الارض السندسية وهو يعزف ألحانا شجية ويغنى غناء عذبا رخيما . ولمــــا وصل الى

القنطرة كانت أربع فتيات يتعابثن فوقها ويتضاحكن . حتى اذا رأينه رحن يقذفنه بالريحان والياسمين حتى اختفى عن الانظار .

وفى هذه اللحظة خرجت نانج بينج من الدار تتبعها ابنة عمها (لوسونج) . ووقفت الفتاة تنصت الى الغناء وعزف القيثارة واضعة اصبعها على شفتيها ، متجهة بناظريها شطر التلال .

ولما ذهب المغنى وفطنت الفتيات الوصيفات الى سيدتهن نانج بينج أسرعن اليها ودعينها الى اللهو والمرح معهن .. بيد أنها تخلصت منهن فى تبرم وسألتهن أن تبقى وحدها .. فعملن برغبتها .

ولما انصرفت الفتيات ذهبت نانج بينج وابنة عمها الى المعبد وأجالتا النظر فيه .. ثم طافتا بأرجاء الحديقة تتفقدان أطرافها فى حذر واحتراس ويممتا أخيرا شطر البحيرة .

انحدرت الشمس الى المغيب وأخذ الظلام يرخى سدوله ، وفى هذه اللحظة سمع صفير خافت متصل صادر من ناحية سور الحديقة فأمسكت نانج بينج بطرف ردائها فى حركة عصبية ، وهمست فى اذن ابنة عمها :

ــ اذهبى وراقبى من فوق القنطرة .

لكن « لوسونج » كانت أسبق الى العمل برغبتها .

وتكرر الصفير وزاد وضوحا . فجاوبته نانج بينج بصوت كتغريد الاطيار .. وفى اللحظة التالية بدأ رجل يعتلى سور الحديقة ، ثم وثب الى داخلها ، فركضت نانج بينج نحوه وقد بدرت منها صيحة خافتة .. فتلقاها بين ساعديه .

لم يكن هذا القادم عاشقا صينيا يرتدى الملابس الفضفاضة ، ولكنه كان شابا انجليزيا عسلى العينين واسعهما متموج الشعر يرتدى سترة بيضاء .

ونظر اليها الشاب وهى بين ذراعيه فى رقة ومودة وطرب .. أما هى فقد تطلعت اليه بعينين تشع منهما عاطفة ملتهبة . عينين تنبئان عن العبادة والايمان العميق .

وغمغم الشاب وهو ينظر الى وجنتيها الموردتين :

ــ آه يا ملاكى السماوى الصغير !.

فاستلقت الفتاة على صدره وزادت به التصاقا وتنهدت راضية قريرة العين .. وراح هو يعبث بالحلية المدلاة من شعرها الجميل ..

ثم قالت له فى رقة دون ان تتحرك من مكانها :
ـ لقد كنت قاسيا زمنا طويلا يا بازيل ..
فضحك بازيل جريجورى ضحكة يسيرة وقال لها :
ـ احقا ؟.. لم أستطع الحضور قبل ذلك .. انت قليلة الصبر ..
فهزت نانج بينج راسها وقالت :
ـ كلا .. انا لست كذلك .. لكن المزولة لا تكذب .. وانت لم تحضر مسرعا .. وقد اشتقت اليك كثيرا ..
ـ لا بأس .. انى جئتك بأنباء .. خمنى ..
ـ والدتك الفاضلة ..
ـ بالك من فتاة ذكية .. انك تكهنت بسرعة .. ان أمى وهيلدا شقيقتى ستجيئان الى هنا غدا للتعرف بالآنسة (فو) اللطيفة ولمشاهدة حديقتها الجميلة ..
فقالت الفتاة فى صوت كالهمس :
ـ امك وشقيقتك .. آه !..

انهما شديدتا السرور بهذه الزيارة .. ولا سيما أمى .. فهى تسرح بالذهاب الى حيث أريد .. وقد كنت وأمى دائما صديقين حميمين .. أما هيلدا فهى صديقة لأمى .. غير أنها تهتم بالصين وتعشقها .. ولا ريب انك ستقدمين لها الشاى مصنوعا على الطريقة الصينية .

فقالت نانج بينج :
ـ سيكون ما تريد .. وسيتم استقبالهما صينينا صرفا ..
ـ اذن فلن يكون هناك حد لسرورهما ..
فقالت الفتاة :
ـ ما أعجب ان أتحدث مع امك الفاضلة !.. وشقيقتك !.. هل هى تشبهنى ؟.. أم هى أحلى ؟..

فاهت الفتاة بهذا السؤال فى رصانة وجد .. ولكى يكون حكمه أكثر انطباقا على الحقيقة ابتعدت عنه قليلا وفتحت مروحتها وبسطت ذراعيها ، ووقفت أمامه صورة مجسدة للجمال الصينى تترقب فى لهفة هذا الحكم الانجليزى . ثم كررت سؤالها فى رازنة :
ـ هل شقيقتك الفاضلة تشبه نانج بينج ؟. أم هى أحلى منها ؟..

فضحك بازيل ضحكة رقيقة وقال وهو يضع قبعته فوق مقعد حجرى وحب يجلس فوقه :
ـ هيلدا ؟. ان جميع الفتيات اللطيفات متشابهـــات يانانج بينج .. ان هيلدا لا بأس بها .. لكن توماس كاروثر سكرتير أبى يراها رمز الجمال .. وأحسب ان كاروثر سيصبح صهرى .. ولن يعارض أبى . . فان توماس شاب لا غبار عليه .. وكذلك صديقنا القس الفاضل جون برادلى يستملح شقيقتى .
ـ وهل تجدنى مليحة ؟.
ـ كل الملاحة ..
وبسط لها ذراعيه .. فجاءت اليه وجلست بجانبه .. فانحنى جريجورى وقبلها . فبادلته الفتاة قبلته . ثم قالت له :
ـ أواه !.. لو كان يمكن ان ...
ثم كفت عن اتمام جملتها . فقال وقد اقلقته نبرات صوتها !

ـ ماذا تقصدين يا نانج بينج ؟.
فأجابت ببساطة وقـــد شفت نبرات صوتهـــا عن عميق انفعالها :
ـ لو كان يمكن أن نخبرهم بكل امرنا !.
فجزع جريجورى .. وهتف بصوت أجش :
ـ نخبرهم بكل امرنا !!..
فهمست وهى تتسلل بين ذراعيه :
ـ آه !.. لست اعنى كل شىء .. هنـــــاك اشياء لا يبوح الانسان بها حتى للطيور ..
فما كاد جريجورى يسمع هذه العبارة حتى وخزه ضميره . وارتجف ساعده ، لا رقة ، ولكن خجلا وعارا .

لكن الدفاع عن النفس هو اولى غرائز الرجال . ولذا سارع قائلا :
ـ لا يهمنى ما تسرين للطيور . لكن يجب أن تحذرى كل الحذر ان تطلعى امى او أختى على شىء .. كل الحذر !.
وردد الشاب عبارته الاخيرة بلهجة التوكيد .. فسألتـــــه الفتاة :
ـ ولم ؟. .
ـ لأنهما لن تفهما !.
ـ ولم ؟..
فلم يجبها .. وعادت الى سؤاله بعد لحظة !

ـ هل تكرهان أن تعلما انك سعيد ؟.
ـ طبعا لا .. لكن ...
ـ .. واني أنا مصدر سعادتك ؟.
فتململ الانجليزى فى مقعده قلقا وقال :
ـ آه .! لا !. لا تقولى لهما شيئا من هـــذا القبيل يا نانج بينج .. ولا تحاولى أن تفهمى . بل دعى كل شىء لى .
فقالت الفتاة فى اصرار وهى تطوقه بساعديها :
ـ آه !. الا تفهمان معنى الحب ؟.
فقال مراوغا :
ـ آه .. حســـــنا . يمكنك ان تفهمى انهما انجليزيتان . انجليزيتان صميمتان ..
فهزت الفتاة رأسها وقالت وهى تبتسم غير مقتنعة

ـ لكنهما امرأتان .. والنساء كافة يفهمن الحب .. حتى قبل أن يجىء الرجل ويلقنهما أسراره .. ونحن معشر النساء هـكذا خلقنا . ان والدتك الفاضلة وشقيقتك الكريمة تفهمان .. ونانج بينج على ثقة من هذا ..
ـ انهما تفهمان الى حد .. لعلك تدركين ان هـــذه الامور تختلف عندنا .. انهم لا ينظرون الى الحب السرى نظرهم الى .. الحب المنتهى بالزواج ..

فضحكت الفتاة ضحكة رقيقة وقالت :
ـ اذن يجب الا يبقى حبنا سرا مكتوما ..

واستطردت مغتبطة وهى تريد ان تجعل قومه قـــومها ، وطرائقهم طرائقها :
ـ ستخبرهم !.
فقال بازيل يائسا :
ـ آه !. لكن يا نانج بينج !.
لكن نانج بينج لم تقبل اعتراضه .. وقاطعتـــه قائلة وهى تلتصق به :
ـ لو جاهرنا بحبنا يا بازيل ، وهربت معك قبـــل ان يعود والدى الفاضل ، فهل تحبنى والدتك المحـــترمة وترحب بى فى بيتها ؟. ان الحب يدفعنى الى كل شىء ..
كاد جريجورى يختنق .. لكنه تغلب على نفســـه .. ولم يستطع الا أن يقول لها فى صوت أجش :
ـ يا لك من طفلة محبوبة !.

ثم قبلها قبلة امتزج فيها الحنو بالانفعال ووخز الضمير ..
لكنها لم تحس منه سوى حنوه وانفعاله ..

وتخلص منها برفق وابتعد عنها ووقف ينظر مهموما الى ازهار اللوتس العائمة وهو محزون مكروب وقد طارت عنه سعادته هذه الاسابيع التى قضاها معها يستمتع بمسرته المملوءة أنانية واستهتارا .. وما لبث اخيرا أن قال لها متبرما :

ـ أواه يا نانج بينج !. ليتك لم تقابليني أبدا !.

وزاد ابتعادا عنها وهو لا يستقر على قرار .

لكنها لم تفهم بعد . بل نهضت فطوقته بساعديها الرفيعين .. وقالت له فى حنو ويقين :

ـ لا .. لا تقل هذا . لانى سعيدة .

ثم أردفت على الاثر :

ـ اذن فان والدة بازيل الفاضلة ستحبني اذا .. اذا أنجبت ولدا لكي يتعبد قبور أجدادك !.

تراجع جريجورى مبتعدا عنها . تراجـــع وقد بدرت منه صيحة مروعة . صيحة الرجل الذى ثاب اليه ضميره لاول مرة .. صيحة الرجل الذى وقع فى الحفرة التى احتفرها بيده .

على أنه لم يلبث أن ساورته رحمة بها ورثاء لها وقد كان قبل الآن أبعد ما يكون عن ذلك . فتغلب على شعوره لاجلها . وقـــد كانت هذه مهمة عسيرة . لكنها على عسرها لم تكن كثيرا فى مقابل ما بذلت لاجله . ولم يكن بوسعه حتى وهو فى وهدة هذا الجزع المطبق الا أن يقابل بذلها بشىء من المعاملة الرقيقة . ولذا عاد اليها .. وأمسك بمرفقيها . وعالج الكلام قائلا لها

ـ يا نانج بينج ! . ما هـــذه الآراء العجيـــبة التى تدور برأسك ؟ .

فقالت فى قوة :

ـ لا .. ما هذا .. اصغ الى ..

وخلصت ساعديها منه . فهوت ذراعاه الى جانبيه فى يأس وانشب اصابعه فى راحتى يديه . ثم استطردت :

ـ ما من امرأة فى الصين الا وتصلى فى المعابد صلاة حـــارة للربة « كوان ين » مبتهلة اليها أن ترزقها ولدا .

فلما سمع اصرارها على هذا القول تحول اليها قانطا موجعا .. وقال بصوت متقطع :

ـ أواه ! . ما كان أشد حمقى ! .

فاسرعت نانج بينج نحوه هاتفة :
ـ آه . ! شد ما أحبك يا بازيل . أود أن أملأ يدى سعادة لكى أصبها تحت قدميك !. هل تدرى كيف ماتت أمى ؟ . ماتت حالما انجتنى لولاها ووالدى .. وانى لارحب بمثل هذه الميتة ؛ ولا أطمع الا أن يكون المولود ذكرا ، لكى يتعبد عند قبرك ، ولكى يلقن ابناءه واحفاده هذه العبادة .
وتعلقت به وقد غمرتها موجة من الحب والتفانى وكرست له كل انوثتها .. ثم ضحكت ضحكة رقيقة وضمت يديها وقالت :
ـ اواه ! . انى لاود أن اجمع الندى من فوق الازهار واسبح فى عطره لكى أبدو امامك أوفر جمالا واكثر حسنا .
سمع بازيل هذه الصيحة القلبية وهو غارق فى عاره .. ولم يتمالك أن مال فوقها بحنو وقال لها :
ـ لكن لك جمال الزهرة وحسنها يانانج بينج .
فمالت الى الخلف وتفرست فى عينيه مستطلعة . ثم استفزها الطرب فرقصت بهجة وجذلا .. وقالت :
ـ انى لاكاد أطير سـعادة ! . آه ! . واذا راونى ، أفـلا يعرفون ؟ .
فسارع بالجواب قائلا :
ـ آه ! لكن يجب الا تدعيهم يعرفون . !
فهزت راسها بتؤدة وقالت :
ـ لكنى لن استطيع اخفاء الحقيقة لفرط سعادتى .
ثم ساورتها فكرة طارئة أفزعتها .. فقالت له فى قلق !
ـ هل يأخذونك منى اذا عرفوا ؟ .
فأجاب مسرعا وقد تشبث بهذا السلاح الذى قدمته له !
ـ نعم .. نعم .. سيأخذوننى بلا ريب .
فقالت وهى ترتعد :
ـ اواه ! . كلا ! . كلا .. ان هذا يقتلنى ! .

فدنا منها ووقف خلفـها وطوقها بذراعيه وقال فى لهـجة النغم :
ـ آه ! . يجب الا تفكرى فى الى هذا الحد يا نانج بينج .. لقد كنت سعيدة قبل .. قبل أن قابلتنى .
فقالت :
ـ لكنى كنت انتظر لقاءك .
فلم يتمالك أن قبلها .. بينما استطردت !

ـ انى كنت نائمة منتظرة .. مثل أزهار اللوتس .. منتظرة حضورك لكى توقظنى من نومى .. أنت صيف حيـــاتى .. وشمس وجودى ! .

فقال وهو يعبث بشعرها

ـ هذا كلام شعرى يا نانج بينج .. لكن لا يجب أن تعتنقيه وتؤمنى به ..

فما كادت تسمع ذلك حتى أفلتت منه وقالت له :

ـ لست أفهمك .. انت نور حياتى ! . أنت الأنشودة التى أغردها فى قلبى ! .

فظللت وجهه سحابة القلق والحيرة .. وكان حقـا قلـقا متحيرا .. بيد أنه دنا منها وداعبها مترفقا .. وقال لها :

ـ اصغى الى يا نانج بينج .. ان أهلى عائدون الى انجلترا .. ابى وأمى وشقيقتى هيلدا ..

تصلبت الفتاة قليلا عند سماع اللهجة التى صاغ بها هـذه الجملة ، شان المرأة حين تتلقى ضربة . وقالت :

ـ ابمثل هذه السرعة ! .

غير أنها رغم ذلك لم تقنط .. واستطردت :

ـ كيف يطيقون فراقك ؟ .

فقال ميثوسا :

ـ لن يمكنهم ..

فى هذه اللحظة تصلبت تماما ، وبدا فى عينيها اتهام مؤثر .. بيد انها لم تنبس بكلمة .. وما لبث أن قال لها بلهجة ملتوية :

ـ وهذا ما تعين على أن أقوله لك .

فقالت الفتاة باتم هدوء :

ـ هل ـــ هل تتركنى ؟ .

ـ لا بد ..

فقالت فى تبلد :

ـ لكنك لن تذهب .. ستخبرهم انك لا تستطيع الذهاب .. « الآن » !

ـ لا يمكن أن أحدثهم عنك يا عزيزتى .. ان مثل هـــذه المسائل ليست هينة عندنا ..

فابتهلت اليه قائلة :

ـ لـكنك تستطيع ان تقول لهم انه لا يمكنك أن تتركنى .. « يجب » أن تقول لهم هذا .

فقال متلعثما :
ـ لكنى لن اتركك الى الابد يا صغيرتى .. ان انجلترا لا تستغرق أكثر من بضعة أسابيع .
ـ نعم .. لكن لا يمكننى أن أتبعك .
هاله أن يخطر لها هذا الخاطر .. فسارع قائلا :

ـ لا بالطبع .. بالطبع .. لكنى ساعود .. وستجدينني يوما فى حديقة اللوتس أو فى المعبد على غير انتظار .
فقالت فى أنين :
ـ المعبد ! ..
فاستطرد من فوره :
ـ فى المعبد ، حيث تعلمنا الحب ..
وحاول أن يجذبها اليه .. غير أنها تراجعت عنه .. وهتفت بحرارة :
ـ لا .. لا .. اذا هجر طير الحب يوما عشه ، يرد العش
وألقت نفسها على درجات القنطرة وأخذت تنتحب فقال لها فى يأس وذلة :
ـ أواه يا نانج يينج ! . لم أعرف أن حبك سيكون بهذه الصفة ! . لكن .. لكن .. ألا تفهمين ؟ . الا يمكنك أن تفهمى ؟ . وحتى لو لم أذهب ، فما كان يمكن أن يستمر امرنا الى الابد .. أنا لست عظيما فى وطنى . ولا ابن عظيم . وأنت تعرفين انه لا بد لك من الزواج بعظيم هنا .. فى وطنك .

فتطلعت اليه فى رعب .. وقالت بلهجة الجزع :
ـ ليس الآن . واذا يينت لابى السبب ، قتلنى .
فهتف فى جزع شديد :
ـ هل تطلعينه على ذلك ؟ .
ـ نعم .. لانه لم تبق لى الآن رغبة فى الحياة .
فقال بخشونة :
ـ يجب الا تخبرى أباك .
فقالت نانج يينج ببساطة ، وبغير مرارة :
ـ لن أخبره الا بعد ذهابك . والا قتلك أيضا ! .
فانكمش الانجليزى على نفسه كأنما تلقى لطمة .. بينما استطردت :
ـ سيسألنى سبب عصيانى لامره ، فأخبره .
ـ لا تفعلى ذلك ! . لا تفعلى ! . احتفظى بسرنا يا نانج يينج

.. فكرى فى الاخطار التى جابهناها معا حين كان هنا .. وفى السعادة التى تذوقناها حين كان بعيدا عن هنا ، كما هو الآن .. لا تخبريه بشيء والا حيل بيننا الى الابد متى عدت الى هنا .
ـ انك لن تعود أبدا .

ـ بل سأعود . أقسم انى سأعود . انى ارى الامور بعين اخرى

ـ انك لن تعود أبدا .

وتحولت عنه متباطئة .. واتجهت الى المنزل دون أن تنظر لخلفها .

فأخذ يناديها :

ـ تعالى ! . نانج بينج ! . نانج بينج ! . تعالى ! .

كانت تعلم أنه يناديها لكى يبادلها على الاقل تحية المساء كما كان دأبهما فى المعبد .. لكنها لم تكف عن السير ولم تحول رأسها مرة واحدة .. وابتعدت عنه وتركته وحده عند حافة البحيرة ..

ووقف لحظة ينتظر معتقدا أنها ستعود اليه .. فلما لم تعد ذهب متسللا وهو شديد الندم والاسف ، وان يكن قد استاء منها بعض الاستياء .. فان المسيء دائما قريب السخط سريع التبرم ..

وعادت « لوسونج » من حيث كانت تراقب وراحت تتطلع خلفه متسائلة عما حدث .. وهى لم تر الا قليلا ولم تسمع شيئا .. غير أنها آنست فى الجو تلبدا وتجهما .. ولم يتحول بازيل أو يخاطبها بكلمة ولما ذهب قصدت فى تؤدة الى المنزل .. وبقيت الحديقة ساكنة مشتملة بالظلام لا يبدده سوى وهج المصابيح المبعثرة هنا وهناك .

الفصل الحادى عشر

نقمة أوربا

لم يكن بازيل جريجورى يعلم كثيرا عن مدى نفوذ « فو » ومكانته الحقيقية فى الصين ، وكان يجهل كل الجهل حقيقة الاخلاق والطباع الصينية ..

بيد انه قد طالع عنه بعض البيانات فى الصحف ، وألم ببعض أطواره مما شاهده من انماط الحياة فى بيت نانج بينج .. ولذلك ادرك بالفريزة أنه مستهدف للخطر من جراء هذا التطور الذى

تطورت اليه الصلة بينه وبين الفتاة ، وان لم يلو على وجه التحديد مدى هذا الخطر ولا كنهه ..

علم الشاب اذن انه فى حاجة الى مشورة تعينه على الخروج من هذا المأزق .. على أنه لم يجرؤ على التماس مشورة والديه فى هذا الشأن فقد خشى نقمة أبيه وغضبه .. وكان يفضل أن يلقى نفسه فى ميناء « هونج كونج » او نهر « تيسنتان » على أن يطلع أمه التى يحبها ويجلها عن حقيقة ما بينه وبين نانج بينج .

واذن فلم يجد أمامه فى هذه الساعة سوى القس جون برادلى الذى كان رفيقه فى الجامعة وقد أسدى اليه فى ذلك العهد بعض المعاونات القيمة ، والذى استقر منذ عام فى جزيرة « هونج كونج » كواعظ فى كاتدرائية « سانت جون » .

ولذلك ما كاد بازيل ينزل من القارب الذى أقله الى الجزيرة حتى استوقف مركبة يدويه استقلها وامر قائدها بأن يذهب به رأسا الى بيت القس الشاب فوق قمة الربوة .

ولما وصل الى دار القس الفاه يتناول العشاء وحده . وقد دعاه برادلى الى مشاركته طعامه . فلبى الدعوة مسرورا ان يؤجل بعض الوقت سرد القصه الكريهة التى جاء لاجلها .. ولما سرى الشراب فى جوفه فقدت قصته بشاعتها فى نظره ، حتى بدا له انه هو المساء اليه لا المسىء المذنب ..

على ان ذلك لم يكن راى جون برادلى حين جلسا فوق الشرفة الخارجيه والم القس بالقصة . فقد بدا الحزن على وجهه .. وبذل جهدا لسماع القصه حتى النهاية .. ثم بدرت منه عبارات تشف عن السخط والاستنكار ..

فقال جريجورى معترضا

ـ اصارحك انى كنت أتمنى لو لم يحدث ما حدث .. لكن لا حاجة بك الى التهويل وتجسيم الموقف .. فان الفتاة ليست من بنات جنسك .. صحيح أنها فتاة لطيفة .. وأنا مغرم بها .. لكنها ليست منا .. هى صينية ..

فلطم برادلى حاجز الشرفة بيده فى غضب شديد ، وقاطعه قائلا

ـ يا لجهنم ! . هنا وجه البشاعة ! . لو انك اغويت فتاة من بنات جنسك لكان موقفك أقل عارا وشناعة ! .

انعقد لسان الشاب ، ولم يحر جوابا . بينما استطرد القس منفعلا :

ـ يا لها من نقمــة سلطتها أوربا اذ يهبط أمثالك الى آسيا ويقترفون مثل هذا المنكر ! .. ستغلى فى الزيت جزاء ما فعلت ! .. يا لك من جاهل غبى ! .. ألا تدرى من هو والد الفتاة وما هى حقيقته ؟ .. لو انك أسأت الى الامبراطورة « تسى شى » نفسها لكان موقفك أقل سوءا . ستغلى فى الزيت جيـــا كمــا أنذرتك ، وأقسم بالله انك أهل لذلك ! . ولولا أملك لساعدت « فو » فى غلى الزيت جزاء وفاقا . ما قولك لو أن رجلا صينيا فعــل باختك ما فعلت أنت بهذه الفـــتاة ؟ . آه ! . لا حاجة بك الى الوثوب على هذا النحو . فى وسعى أن القى بك غير نادم من هذا الارتفاع الشاهق الى وهدة الطريق المنحدر . أواه يا بازيل ! . يا رفيق الصبا ! . كيف جرؤت .. كيف جرؤت على ارتكاب هذا الاثم ..

فقال الشاب فى لهجة السخط :

ـ حسنا . لست أول من فعل هذا .

ـ ولن تكون الآخر . أين النهاية ؟ . أين النهاية ؟ .

ـ كنت أظنك ..

ـ أواه ! . لست أعنى نهاية هذه القصة . فانى اعرف كيف تنتهى قصتك مع هذه الفتاة التعسة . لكنى أعنى هذه المأساة التى لا تفتأ تتجدد ! . هذا الدنس الذى نقترفه نحن الاوربيين ونلوث به هذه الامة ! . ثم نزعم نحن الانجليز الذين ندوس على شعور الصين ونتجاهل وجودها ، ونتلف تراثها ، ونزدرى شـــعبها ، ونسمن من خيرها ـ نزعم اننا رجال ! .

اننا نقتحم طريقنا فى الصين عنوة ! . ونستهزىء بكل مقدس لديها ونسخر بما ينبغى أن يكون مناط الاعجاب والتقدير منا ! . ونستخف بما يعوزنا التقدير لفهمه وادراكه ! . ونزدرى ثقافة عريقة فى القدم يرجع تاريخها الى أربعة آلاف من السنين ، وهى ثقافة أعمق من ثقافتنا وأجل قدرا . وننال بالسطو والسلب كل ما نريده ! . ونغرى شبابها بتدخين الافيون ! . ونفشى فيها الفساد ونشيع الخبائث والموبقات ! . ونساؤها ! . نساؤها يا ربى ! .

وكف القس عن الاسترسال فى ثورته القلبية وقد اغرورقت عيناه بالدموع . ثم استطرد بعد قليل :

ـ لكانى بك تهم أن تنشب أصابعك فى عنقى اذ اقول لك : « ما رايك لو أن رجلا صينيا فعل باختك ما فعلت انت بهــذه الفتاة ؟ » فاعلم اذن انى اكرر هذا القول وأعيده ، رغم ما أكن لاختك من الاجلال والتقدير ! . بل اقول اكثر من هذا .. اقول

ماذا يمنع أن يحدث هذا لاختك ؟ . فقد ضربت المثل ! . ومهدت السبيل ! . أنت وآلاف من مواطنيك الشرقاء الافاضل ! . لكن ثق أن يوم الحساب قريب ! ..

فاه القس بهذه الجملة فى قنوط وألم .. ثم أخرج غليونة وحشاه تبغا وأشعله .. وراح يمتصه مهموما مفكرا .

اما بازيل فقد جعل يراقبه مضعضع الحواس مكروب النفس .. لكنه لم يحفل بالكارثة الشاملة كما صورها القس مثلما كان يحفل بورطته الخاصة .. ولذا عالج الكلام قائلا :

ــ قلت انك تعرف كيف تنتهى هذه القصة فيما يختص بى »

ــ وفيما يختص بها ايضا .. لقد كانت الانانية بداءتها . وستختتم الآن والى الابد بالتعاسة .. لكن هناك وجها آخر لهذه المسألة ان الجرم يخف شناعة اذا حيل دون استفحال شره وأذاه . ان جرمك شنيع حقا . وسيقف عند هذا الحد . لا بد أن تتزوجها .

ــ أقول ..

ــ لا مجال للقول أمامك .. لقد جئت تلتمس مساعدتى .. وسأساعدك بقدر ما تتسع له طاقتى .

ــ لكن ..

ــ آه ! . سيكون لهذا الامر شر كثير . فان « فو » لن يصفح عنك أو عن الفتاه التعسة .. وان كان اللوم يقع على رأسه لتركه فتاة صينية وحدها بلا رقابة ونحن الانجليز نحوم حولها . ان عقابه سيحل بكما معا . و « فو » رجل يجيد ما يفعل .

ولن تفلت من قبضته . فليس فى الدنيا مكان يعصمك منه أو يحجبك عن عينه .. ولن تستطيع البقاء فى الصين معها . فان مركزها يكون عسيرا . ولا بد لك أن ترافقها الى انجلترا ، لو استطعت الوصول اليها وحتى لو تركك « فو » تبذل ما تستطيع من جهد لشق الطريق لك ولها فى هذه الحياة المرقعة البشعة فلن تكونا الا شقيين فى انجلترا . لكنه دون شقاء الحياة هنا . ان فى انجلترا وحدها يمكن أن يحيا هذا الخليط من الذرية حياة أفضل من حياة الحشرات والهوام .. ولعلك لا تجهل ما تستهدف له مثل هذه الذرية هنا من الأزدراء والامتهان ، وعلى الاخص فى أعين الصينيين انفسهم ! .

على انه لم يكن فى نية بازيل ان يجرب هذه التجربة فى الصين

أو فى غيرها .. فقد استقر عزمه على الافلات .. لا التكفير عن جرمه .. ولذا قال :

ــ صدقت .. ولو لم يكن الاجانب الابناء وحده ، أفلا ترى انه يحسن أن تنتهى المسألة عند هذا الحد ؟ . لن يكون الآن سوى ولد واحد .. على أسوأ تقدير .. لكن اذا تزوجت نانج ورافقتها الى انجلترا فسيكون أولاد آخرون ..

فقال برادلى بلهجة الموجع :

ــ هذه مسألة شديدة العسر . ولست أرى طريقى فى هــذا الظلام . ولا بد ان تهيىء لى وقتا للتفكير .. وقد أستطيع غدا أن أرى أفضل الحلول .. أو أقلها شرا ..

وراح برادلى يئن ويتوجع .. بيد أنه لم يخبر جريجورى بما تذكره الآن من أن الزواج الشرعى بغير موافقة « فو » قد يكون ضربا من المحال .. لان هذه الموافقة قد لا تنال أبدا .. فهم فى الصين يحلون هذه المعضــــلات على وجه آخر . هم يقطعــونها قطعا ..

الفصــــــل الثانى عشر

فلورنس جريجورى

اتفق جون وبازيل على مسألة واحدة .. هى أن تبقى مدام جريجرى وهيلدا فى جهل تام بما حدث ، ما تيسر ذلك

وحرص بازيل على الا يخبر القس بأمر الزيارة المزمعة غدا .. زيادة أمه وأخته لنانج بينج .. ولو اســتطاع لالغى هـــذه الزيارة .. لكنه عجز عن الاهتداء الى مبرر لذلك .. فان أمه قد شغفت وتشبثت بها .. وأدرك انه يستطيع أن يعتمد على كبرياء نانج بينج فى اتمام الزيارة بسلام وانقاذه من نتائجها .

والواقع أن بازيل لم يكن يحب مخلوقا فى الدنيا حبه لامه .. حتى حبه لنانج بينج لم يكن الا من قبيل العبث والتسلية والتلهى

أما أمه فكان يعبدها عبادة .. وكان يجمعهما وثاق روحى يكاد يجعل منها قلبا واحــدا نابضــا بالحب العميق فى جسدين منفصلين .

وكان يأسره منها شبابها الدائم .. فان الاعوام لم تكد تنال من نضارتها .. وكانت تبدو وكأنها أخته .

أما حبها له فكان يجل عن الوصف .. هو حب الام لوحيدها وكفى ..

كانت فلورنس جراى ابنة قس فقير من اكسفورد .. ولما تزوجت روبرت جريجورى الغنى حسبت انها نالت كل ما تبغى المرأة فى الحياة من سعادة .. وقد ظفرت بذلك فى الاعوام الاولى من حياتها حقا .. لكن سرعان ما تبدد السراب الخالب .. اذ كان العمل هو شغل جريجورى الاول .. وكان الاهتمام بزوجته يجىء بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. وخيبت فلورنس فى آمالها الشاعرية وأحلامها الخيالية .. غير انها عاشت مع ذلك فى كنفة عيشة هنيئة راضية .. فهو لم يكن يدخر وسعا فى توفير أسباب راحتها طالما كانت رغائبها ومطالبها غير متعارضة مع رغائبه ومطالبه .. ولو لم يكن يضن عليها بمال ولا ترف .. وكانت الحلى التى يجلبها لها مضرب المثل .

على أن اثمن حلية تلقتها فلورنس كانت من صديق لم يره جريجورى فى حياته .. من طالب صينى أتم الدراسة فى اكسفورد قبل وصوله هو بعام . وكانت هذه الحلية اسورة نادرة الوجود من الزمرد والماس هى أجمل وانفس ما تملك فلورنس .. ولم تكن تتحلى بها الا فى المناسبات التى توازى ندرتها ونفاستها .

الفصل الثالث عشر

يقظة نانج بينج

كانت « سنج كونج ياه » خالة نانج بينج ومربيتها غائبة عن « كولون » فى زيارة احدى قريباتها .. وكان غيابها وغياب « فو » يجعل من نانج بينج صاحبة الامر والسلطان على نفسها وعلى بيت والدها .

وما كادت تبتعد عن بازيل بعد أن تركته وحده فى الحديقة حتى ذهبت الى غرفتها واغلقت بابها عليها بعد أن علقت منديلها القرمزى خارجه حتى لا يجسر أحد ، ولا « لوسونج » نفسها لا على تعكير خلوتها .. ولما رن جرس العشاء ولم تخرج نانج بينج من مخدعها جاءت « لوسونج » بصحفة الطعام وتركتها عند الباب بعد أن طرقته طرقا خفيفا ، ثم عادت ادراجها مستاءة متبرمة ، فهى قد ساهمت فى مراحل غرام الفتاة ، بالقدر الذى سمحت به الظروف ، واستهدفت معها لمخاطر هذا الحب المحرم ، فعز عليها الآن أن تقصى عن المشاطرة فى هذا التطور الفجائى الذى تطور الموقف اليه .

وقد آنست تباطؤ بازيل وتلكؤه .. وسمعته حين ذهب .. ولم تفتها حركة واحدة في أرجاء الدار ، ولا غفلت عن هجـوع الجميع حين سكنت الحركات وخفتت الاصوات .

وفي بكرة الصباح زايلت مخدعها وأخـذت تجـول في نواحي الحديقة هائمة شاردة بيد أنها لم تعرج على المعبد ثم عادت الى غرفتها قبل أن ينتشر النهار وقرعت جرسها فأسرعت وصيفاتها اليها دهشات مثقلات بالنوم .. فاغتسلت وارتدت ثيابها ..

وكان من عادتها أن تبادل وصيفاتها الحـديث وهى ترتدى ملابسها . بيد أنها لم تتكلم في هذا الصباح الا لماما .. ولم يجسرن على مخاطبتها . وبعد أن انتهت من تصفيف شعرها استدعت « لوسونج » وأمرت باعداد الطـعام .. وافطرت الفتـاتان في صمت . ثم أخذتا تتمشيان في الحديقة دون أن تتبادلا كلمة واحدة حتى اشتدت حرارة الشمس .

بيد أن « لوسونج » بدأت تفهم .. وزاد ادراكها للحقيـقة بمرور الوقت . فان المرأة الصـينية كتـلة من الحس المرهف والشعور الدقيق .. وفيما كانت الفتاتان تسيران جنبا لجنب فهمت « لوسونج » كل شيء .

***

وفي عصر هذا اليوم أرسـل بازيل رسـالة خاصـة الى « نانج بينج » ، بذل كل جهده لوصولها خفية الى يدها وحدها قرر فيهـا انه سيتشرف بلقـائها بعد قليل كما وعـدها ، حتى يعرفها بأمه واخته .

وقد أدركت نانج بينج الباعث على هذه الرسالة وارتـعدت شفتها حين ألمت بفحواها وهمت بتمزيقها .. بيـد أنها تمالكت ودستها في ردائها ..

فانه لم يكن في حاجة الى اخطارها . وكان يمكن أن يثق بها وبقيامها بدورها حتى النهاية كما ينبغي لها .

ولم يخف عنها ما في هذا المسلك من الجبن ، والبلادة .

الفصـل الرابع عشر

لقـاء الامهات

جاء بازيل يسير بخطى سريعة . فاستقبلته نانج بينج بهدوء . فقد رأت أن تبدى له هذا الترفع الذى كانت تحسه في هـذه

اللحظة . بيد أن « لوسونج » كانت تعلم أن قلب رفيقتها يختلج اعياء وألمـا .

وقد حيت « لوسونج » القادم بهدوء .. لكن نظراتها كانت تشف عن حقد مرير .. ثم تحولت من فورها وقصدت الى مكانها المعهود فوق القنطرة .

سألته نانج :

ــ هل يأتون الآن ؟ .

ــ نعم .. هم يتمهلون فى السير قرب البحيرة الكبـــيرة فى الحديقة الخارجية ، ومهدوا لى بذلك الفرصة لمحادثتك بضـــع لحظات .. أواه يا حبيبتى ! . هل أوحشـــتك ؟ . لم تركتنى أمس على هذا الوجه ؟ . كيف حالك يا عزيزتى ؟ .

فابتسمت نانج ابتسامة غريبة . ولم تقل شيئا ..

وفى هذه اللحظة نادت « لوسونج » من فوق القنطرة نداءها المعروف محذرة .. وسمعت على الاثر أصوات نسوية مقتربة فقال بازيل بلهجة عصبية :

ــ هم قادمون .. وسأتركهم عند انصرافهم .. سأنتـــحل عذرا وأذهب وأختبىء فى المعبد قرب البحيرة ..

فرددت نانج بينج كلماته بلهجة غريبة :

ــ آه ! . فى المعبد ! . قرب البحيرة ! .

ــ سأنتظر حتى ينصرفوا ، ثم أعود اليك .. انتظرينى بعد انصرافهم .. لا بد أن أتحدث اليك . تذكرى ! .

وابتعد عنها وذهب الى مصـــباح حجرى عتيق وتظـــاهر بفحصه والاعجاب برؤيته ..

أما نانج بينج فهتفت منادية « لوسونج » ، فأسرعت اليها الفتاة وطوقتها بساعديها .. ووقفت كلتاهما كذلك لحظة .

بيد أن الاصوات زادت اقترابا الآن . فتخلصت نانج بينج من ذراعى صاحبتها الرفيقة بها الحانية عليها ، ووقفت وحدها تنتظر ..

تقدمت فلورنس جريجورى وهى فى نضرة شـــبابها ووفرة حسنها حتى ليحسبها الناظر فى منتصف العقد الثالث من عمرها لا عند حدود الاربعين .. وجاءت هيلدا بجانبها وهى لا تقل عنها ملاحة ورشاقة .. واقبلت خلفهـــما « آه وونج » خادمة الام الصينية ..

ووقفت فلورنس ونانج تتطـــلع احداهما الى الاخـــرى فى فضول وعجب ، فأما المرأة الانجليزية فان نظرتها الى الفتاة لم

تكن تخلو من استخفاف لاستهانتها بخطر المرأة الصينية فى الحياة وأثرها فيها بالقياس الى الرجل . وكان اهتمامها برؤية الحديقة ومشاهدة الدار التى سمعت عنـها كثيرا أقوى من اهتمامها بالفتاة . غير انها مع ذلك استملحتها وكانت نظراتها اليها مشوبة بمودة صادقة .

واما الفتاة الصينية فجعلت تنظر الى ضيفتـــها فى اعجاب ممزوج بالاستياء والنفور .

اذن فهذه أم بازيل .. وهى صورة منه ! .

هذه هى الام الفاضـــلة التى جاءت به الى نور الوجـــود وأرضعته وحملته فوق صدرها .. وهى المرأة التى من أجلـــها سيهجرها بازيل ويحرمها الى الابد نعـــيم الحـــياة والشرف والفردوس ! . ولاجل هذه المرأة التى وقفت أمامها تبسم لها سيحول بازيل دون ذهابها معه الى وطنه ، ويحرمها لذة الامومة وسعادتها . بل انه أغلق حتى الصين فى وجهها ! . فما ذنبها ؟ . وما حيلتها ؟ .

ادركت نانج بينج انها لن تضع أبدا على وجهها نقاب العرس القرمزى الرقيق .. ان هذه السعادة العظمى التى تحلم بها كل فتاة قد ذهبت ومرت حين قبلها بازيل فى المعبد لاول مرة . وقد قضى على ذلك الجنين الذى يتحرك فى أحشائها ، وأغلب الظن انه ذكر وأزرق العينين أيضا ، أن يولد ميتا .

أدركت نانج ذلك الآن . وعلمت، أن ذلك المولـــود لن يبكى ويتلوى ويتشبث فوق صدرها ! .

وقفت أمام أم بازيل . تلك الجدة الفاضلة التى ستنجب لها حفيدها الاول ! .. فما اهول هذا الموقف ، وما أعصبه ! .

لم تتمالك الفتاة أن تسرب الى عينيها بصيص من ذلك الالم اللاذع والخيبة المرة التى كانت تعصف بقلبها الممزق .. فوهى جلدها وتزلزل بنيانها وخارت قواها وساورها الجزع والاعياء . وكادت تترنح وهى واقفة وقفتها الرشيقة بين الورود والرياحين .. وأحست بالجنين يثب فى أحشائها .

ووقف بازيل يقلب نظره بين أمه وبين نانج مضطربا متحـــيرا .. فالتفتت اليه مدام جريجورى باســـمة وقالت له وهى قريرة العين :

ــ آه ! . هذا أنت يا بازيل ..

فقال وهو يتكلف الطلاقة :

ـ نعم يا أمى .. انى تهت عنك ، وجئت الى هنا لكى أعرفك بالآنسة « فو » ..

وأومأ الى الفتاة باحترام .. فتقدمت مدام جريجورى اليها باسطة يدها .. وتقدمت نانج بدورها قليلانحوضيفتها وحيتها ..

وقالت الام :

ـ ان هذه الزيارة الى حديقتك الجميلة هى الطف ما تمتعت به منذ حضورى الى الصين يا آنسة « فو » ..

فانحنت نانج أمامها وقالت :

ـ يسرنى أن أستقبلك اثناء غياب والدى المبجل .. انه لقى عطفا كبيرا فى انجلترا .. وقد كان شعاره ولم يزل ان يستقبل أصدقاءه الانجليز فى اعظم حفاوة وترحاب .. وهذا من بواعث سعادتى .. هذه ابنة عمى « لوسونج » ..

فقالت مدام جريجورى باخلاص :

ـ أهلا بك .. هذه هى ابنتى ..

وتبادلت الفتيات الثلاث الانحناء .. بينما قالت مدام جريجورى وهى تنهل من جمال الحديقة بعينيها :

ـ ما أروع وأجمل هذا المكان . !

فقالت نانج بينج :

ـ هى حديقتى الخاصة ، حيث أتمشى مع صديقاتى ..

فقالت الام فى مرح :

ـ انها تكسف حديقتنا الصغيرة فى لندن ..

فقالت نانج فى رقة :

ـ أحسب انه لا يوجد لديكم فى لندن سوى الجدران والسقوف

فقالت مدام جريجورى :

ـ انك طبعا زرت عاصمتنا يا آنسة « فو » ؟ .

ـ انى لم أزر أى بلد .

ـ أحقا ؟ . لكنك تتكلمين الانجليزية بطلاقة .

ـ ان مدرسى الفاضل كان انجليزيا . ووالدى المبجل يجيد الانجليزية مثلكم . وهو قد درس فى اكسفورد .

ـ أحقا ؟ . انى ولدت فى بلدة اكسفورد .. وقد درس ابنى بجامعتها .

فاستطردت نانج .

ـ وقد علمني والدى المبجل أن أجل الانجليز لانهم جميعا ..
« وتوقفت الفتاة لحظة ، بيد أنها لم تنظر الى بازيل ، ثم اردفت وهى تبتسم ابتسامة رصينة : » .. لانهم جميعا رجال شرفاء .
فقالت أم بازيل فى صدق واشفاق :

ـ أحسب أنه لكل قاعدة شواذ أحيانا .

ووضعت الام يدها على ذراع ابنها رغبة فى اشراكه فى الحديث ثم استطردت وهى لا تزال تنظر الى نانج :
ـ لكن الواجب يحتم على كل انجليزى أن يكون أهلا لمثل هذه السمعة الغالية .
فسارع بازيل بالكلام وهو يخلص ذراعه برفق من قبضة أمه :

ـ لابد لى من الانصراف يا أماه .. أرجو أن تأذن لى الانسة « فو » .. كنت أظن أبى قادما معكم .
ـ بل جاء فعلا .. وقد تركناه مع توماس عند بحيرة الاسماك يتحدثان مع البستانى

ـ لا بأس .. أظن انه يجب على أن أذهب الى المكتب .. وسأقصد الى الفندق رأسا .. فى موعد العشاء المعتاد بالطبع .
ـ بالطبع يا عزيزى .. الا اذا أردت أن تقدم هذا الموعد او تؤخره .. هل تعلم يا بازيل انك لم تتعش معنا منذ أيام ؟ .. انى بدأت أقلق على صحتك يا عزيزى .. تبا لهذا المكتب ! .. انك لا تبدو على مألوف طباعك ! ..

فضحك الشاب ووضع يده تحت ذقنها ، بينما كانت نانج تتطلع اليهما عاجبة ، وقال لها :
ـ ما هذا الكلام يا أمى العزيزة .. أنا على ما يرام .
لم يساور الام أقل عجب أو ارتياب لما رأته من تعجل ابنها فى الانصراف .. وأرجعت ذلك الى قلة مبالاته بهذا الجو الذى لا يسترعى اهتمام شاب فى سنه ، وان كانت تفضل فى نفسها لو أنه أبدى شيئا من المجاملة لضيفتهم وحدثها ولو حديثا موجزا .

ولما ابتعد بازيل عن أمه تقدم الى نانج بينج مستأذنا .. فاستقبلته برصانة هادئة بدت طبيعية لا شائبة فيها .. وقال لها وهو يخلع قبعته :
ـ طاب يومك يا آنسة « فو »
فهزت يديها نحوه بتحية صينية .. وتطلعت اليه وعلى شفتيها ظل ابتسامة ولم يختلج هدب واحد من أهدابها .. ولم

يتمالك بازيل أن التفت الى ناحية الفتاتين الاخريين .. فالفى « لوسونج » مولية ظهرها تحدث أخته عن مجموعة من الازهار النادرة .

وفيما هو يهم بالانصراف استوقفته الام قائلة :

ـ بهذه المناسبة يا بازيل ، قد صرح البستانى لوالدك انه يعرفك .

بوغت بازيل بهذه المفاجأة ، وصوب الى نانج نظرة ارتياع لم تفطن اليها أمه ولمحتها هيلدا ولوسونج .. ووقفت نانج رابطة الجأش غير أن بصيصا من الجزع بدا لحـــظة فى عينيها .. ثم التفت بازيل الى أمه متظاهرا بعدم الاكتراث ، وقال لها :

ـ يعرفنى ؟ .. أنا .. هو لم يرنى مرة هنا فى حياته ! ..

فدنت هيلدا منهم وقالت :

ـ هو لم يقل انه رآك هنا يا أبله .. بل قال انه شاهدك فى هونج كونج » ..

فضحك بازيل ضحكة فاترة وقال :

ـ آه ! .. فى هونج كونج .. هذا جائز .. والان لابدمن ذهابى حقا .. الى اللقاء يا آنسة « فو » .

فكررت الفتاة انحناءها أمامه فى أتم هدوء وبلا أدنى انفعال . ثم تحولت عنه قبل أن يذهب تماما .

ودعت نانج مدام جريجورى الى الجلوس فوق المقعد الحجرى بينما كانت هيلدا ولوسونج تشاهدان روائع الحـديقة ، وكانت طائفة من الخدم على رأسهم « آه سنج » منهمكين فى أعداد معدات الشاى الانيقة .. فلما استقر بالام الجلوس التفتت الى مضيفتها قائلة :

ـ اذن فقد كان مستر « فو » فى اكسفورد ! .. ما أبـدع هذا ! .. ترى متى كان ذلك ؟ . انى تعرفت هناك بطالب صينى حينما كنت فتاة صغيرة .. وقد نسيت اسمه لان ذاكرتى سيئة فى الاسماء .. ولا يمكن أن ذلك الطالب كان والدك ، لانى أذكر الان تماما انى سمعت عقب زواجى ان ذلك الصديق لقى حتفه صريعا وهو يتسلق جبال الالب .. لقد كان رياضيا طيبا ..

فقالت نانج بينج :

ـ علمت من أبى الفاضل أن كثيرين من أشراف الصينيين يقصدون الى جامعة اكسفورد .. أما اليابانيون فيفضلون جامعة كامبردج ..

ـ نعم .. ومع ذلك يخيل الى أن اسم « فو » لم يكن غريبا على سمعى من أول الامر .. وأكاد أذكر الان ان الرجل الذى عرفته فى اكسفورد كان يحمل لقبا كهذا .. أو هو نفس هذا اللقب .. ما أعجب هذا ..

فقالت الفتاة :

ـ ان اسرة « فو » من الاسر المتعددة الإفراد .. وهى عريقة فى القدم ..

فابتسمت مدام جريجورى ودعت نانج بينج الى الجلوس بجانبها . فانحنت الفتاة وجلست عند طرف المقعد .

وفى هذه اللحظة فتحت « آه وونج » مظلة سيدتها مدام جريجورى وقدمتها اليها .. فتناولتها والتفتت الى الفتاة واستأنفت حديثها معها :

ـ اننا تمتعنا بالاقامة فى بلادكم يا آنسة . ومن دواعى أسفنا الشديد ان اقامتنا لن تطول بينكم .. فاننا سنعود الى وطننا عن قريب ..

ـ وهل تعودون كلكم ؟ .

كانت نانج تعلم انهم عائدون جميعا الى انجلترا .. لكنها لم تتمالك من القاء هذا السؤال .. فأجابتها الام :

ـ نعم .. نحن الاربعة .. واحسب ان ابنى سيسر بالعودة الى وطنه ، بعد أن أقام عاما فى الشرق ..

فقالت الفتاة فى هدوء غريب :

ـ لا أشك فى ذلك .. لكنه قرر انه يحب الشرق ..

ـ آه .. نعم .. هذا صحيح . وكلنا نحب الشرق .. ومن لا يحبه ؟ . لكن هذا لا يغنى عن الوطن كما تعلمين ، ولا سيما فى تقدير الرجل .. وفوق ذلك فان لبازيل أصدقاء عديدين يشتاق الى رؤيتهم .. هذا الى اننا لا نريد أن يكون بيننا أعزب فى الاسرة ..

فقالت الفتاة فى نبرات موجعة :

ـ معنى هذا انه عائد الى وطنه للتزوج ؟ .

فقالت الام :

ـ حسنا .. هناك فتاة أعتقد انها ستسر بعودته .. ولذلك أرجو أن ينتهى الامر الى هذه النتيجة .

فضحكت نانج بينج ضحكة غريبة ثم قالت باسمة :

ـ وهل لن يعود الى هنا بعد ذلك ؟ .
فقالت هيلدا التي جاءت فى هذه اللحظة :
ـ آه ! .. نعم ! .. قد يعود يوما ، بعد أن يتم استقراره ، لكى يشرف على ادارة فرع شركة الملاحة هنا ..
وما لبثت نانج أن نهضت وصفقت بيديها تستقدم « آه سنج » ودعت الضيفتين لتشريفها بتناول الشاى . ثم قادتهما الى حيث أعدت مائدة أنيقة فاخرة حوت ما لذ وطاب ، واستأثر باعجاب الانجليزيتين ..

الفصل الخامس عشر

مفاجـــأة

انضم روبرت جريجورى وتوماس كاروثر الى الجالسين حول المائدة فخفت نانج بينج لاستقبالهما ، وتقدمت نحو رب الاسرة مرحبة .. لكن جريجورى رفع قبعته فى غير اكتراث وبادرها فى ايجاز قائلا دون انتظار لما تقول :
ـ كيف حالك ؟ .. الانسة « فو » كما أظن ؟ .. لا شك انها مكرمة منك أن تسمحى لنا بمشاهدة هذا المكان .
ونهضت مدام جريجورى بدورها ودنت من نانج وهى تقدر نفور الفتاة من هذه اللهجة التى لم تألفها ، وان كانت مع ذلك لم تعرب بأدنى دلالة على هذا النفور ..
وقالت الزوجة وهى تقدمه للفتاة فى لهجة تشف عن الاحترام لم تخف عنه :
ـ زوجى يا انسة « فو » .
فانحنى الرجل أمام الفتاة فى مودة كافية وبادلته نانج تحيته بمثلها ..
والحق أن الفتاة لم تأنس ميلا الى رب الاسرة .. هذه الاسرة التى كان يمكن أن تصبح أسرتها .. ثم قالت موجهة حديثها اليه :
ـ لعلك تشرفنى بتناول الشاى ..
فقال باقتضاب :
ـ الشاى ! .. طبعا ..

وتقدم الى المائدة كما يتقدم الى مكتب عمله اليومى ..
وتولت مدام جريجورى تعريف الفتاتين بتوماس كاروثر ..
ولما تم ذلك وعادت نانج الى مقعدها قالت :
ـ يؤسفنى انى لم أهيىء لكم الشاى طبقا للطريقة الانجليزية

فقالت مدام جريجورى :

ـ لا .. ليس أظرف من اعداد الشاى الصينى بالطريقة الصينية .. وهذه حفاوة صادقة بنا .. وفى وسعى أن أتناول الشاى مجهزا بطريقتنا الانجليزية فى أى وقت شئت ..

فقال جريجورى معقبا على هذا الحديث وهو يمد ساقيه فى استخفاف :

ـ لابأس .. أما أنا فأحسب انى لم أمض هنا مدة طويلة تكفى لتقدير العادات الصينية .. ومرجع هذا الى تعلق الانسان بانجليزيته يا انسة « فو » .. ان المرء محروم من التمتع بوسائل الراحة التى الفها فى انجلترا ..

لمح توماس كاروثر آثار اشمئزاز يسير تبدو على محيا نانج .. ورأى دلائل الجزع تعلو وجه مدام جريجورى .. فتدخل فى الحديث مشيرا الى قدح الزوج :

ـ قدحك يا مستر جريجورى ..

كان الجميع ينتظرونه لشرب الشاى معا .. والا أوذيت تقاليد الضيافة .. فغمغم جريجورى وهو يرفع غطاء القدح فى غير رقة :

ـ آه ! .

وتذوق الشراب أولا كأنما يتذوق سما .. بينما راح الجميع يرشفون أقداحهم .. وما لبث أن أعرب عن استهجانه .. وقال وهو يقدم القدح باشمئزاز الى أحد الخدم :

ـ تعال يا ولد .. خذه ..

فتقدم الخادم وهو ينحنى احتراما .. وحمل القدح وسار به فى رزانة .. وفى أثناء ذلك كانت الزوجة تنظر أمامها محزونة جازعة .. أما الفتاتان الصينيتان فكانتا تشاهدان ما يجرى بهدوء ..

واستحوذ جريجورى على طبق من الحلوى استطاب مذاقه ثم قال مخاطبا نانج :

ـ أقول لك بهذه المناسبة يا انسة « فو » انى شديد الاستياء من والدك ..

فابتسمت نانج فى أنفة ، وقالت وهى تنهض :

ـ يؤسفنى أن يكون هذا شعورك نحو والدى المبجل ..

ـ نعم .. وأنا أشاطرك هذا الأسف .. وأصارحك انى أكرس كل شىء فى حياتى لشئون العمل .. ولكن والدك ابتاع بغير اكتراث

لمصلحتى قطعة أرض لازمة أشد لزوم لأرصفة السفن القاصدة الى استراليا .. ولما كتبت له فى هذا الشأن رد على ردا اعتقد أن فيه شيئا من التحامل والتحرش ..

فعادت نانج الى الجلوس وقالت :

ــ لكنك لم تر والدى الفاضل منذ مدة طويلة .

ــ انى لم أر والدك أبدا يا آنسة (فو) .. لكن وكيلى هولمان رآه منذ ساعتين .

***

اهتزت أصابع نانج بينج بحركة عصبية حين سمعت هذا التصريح . ولم يفطن الى ذلك سوى (آه وونج) خادمة مدام جريجورى .. بيد انهم لاحظوا انتفاض (لوسونج) بجلاء . بينما قالت نانج :

ــ هذا غير ممكن .

ــ بل هو الحقيقة . ان هولمان لايزال يتمتع بعينيه . ونظره على مايرام .

فقالت الفتاة وقد شفت نبرات صوتها برغمها عما ساورها من القلق :

ــ لكنه كان فى كانتون منذ عشرين يوما .

فقال جريجورى بغير مبالاة :

ــ لابأس .. لابد أن يكون عاد منها .. ان هولمان اجتمع به منذ ساعتين فقط وأخبره بأننا سنزور داركم هنا فى (كولون) . فرغب والدك على الخصوص أن نتفرج على حديقته ، وصرح بأنه يرحب بكل فرد من أفراد عائلتى .. وهذه فى الواقع كلمات من السهل أن يقولها أى انسان بعد أن يسيء الى غيره ويؤذيه فى أعماله

ونهض جريجورى من مكانه وجذب مقعده الى قرب زوجته واستقر فيه ثانية . فقالت الزوجة :

ــ ما أحسبك تتوقع ياروبرت أن تجد من الآنسة (فو)اهتماما بمتاعبك فى العمل .

ثم التفتت الى الفتاة واردفت :

ــ هذه مفاجأة سارة لك .. فانك لم تعرفى بعودة والدك ..

فهزت نانج رأسها هزة يسيرة وقالت :

ــ كلا ، وهذا عجيب .. فانه لم يعودنى غير الرقة والمودة .

فاستأنف جريجورى تحرشه السالف :

ــ آه .. انى أعرف ماجاء به .. والمسألة كلها عناد وتصلب .

وقد كتبت اليه وأبلغته هذا الرأى .. لأن قطعة الارض لااهمية لها عنده .

فتنهدت فلورنس جريجوري وقالت بلهجة صارمة .

ـ فى يقينى ياروبرت أن مستر (فو) لايضايق كريمته بمتاعبه العملية ..

فقال باستياء وتبرم :

ـ نحن لانتكلم فى متاعبه ياعزيزتى . ولكن فى متاعبى . وبهذه المناسبة يا آنسة ، هل لوالدك « الفاضل المبجل » شقيق ؟

فأجابت الفتاة بأسف دون آن تفطن الى رنة التهكم التىشابت حديثه ، وأن كان الجميع فطنوا لها :

ـ لا بكل أسف . ان والدته الفاضلة لم تنجب سوى نجلواحد

فقال الانجليزى فى جفاء :

ـ لاباس .. كدت اعتقد أن لها توأمين .

فقال كاروثر الذى عجب مما يقصد اليه رب الاسرة :

ـ توامين !.

فقال جريجورى ردا على نظرات الاحتجاج التى وجهتها اليه وزجته :

ـ ياعزيزتى .. انه لم تكد تمضى ساعتان منذ أن قابله هولمان فى هونج كونج .. ومع ذلك لانكاد نصل الى هنا ياآنسة (فو) حتى يصرح لنا بستانى حديقتكم أن والدك وصل الى (كولون . قبلنا بقليل ، وانه كان هنا أمس ، وان كنت لاأراه فى أى مكان ، رغم انى أريد مقابلته .

فقالت نانج بينج بهدوء :

ـ ان البستانى سان فونج اخطأ فى بياناته .

ونهضت الفتاة فى كرب ظاهر رغم انها بذلت كل جهد للتغلب على شعورها .. فاقتدى الجميع بها ووقفوا .. بينما استطرد جريجورى :

ـ ربما .. غير انى لاأشاطرك هذا الاعتقاد .. فان تلكالكلمات صدرت من البستانى حقا ، واعتقد انه كان يعى ماقال .

فى هذه اللحظة تسللت لوسونج من مكانها حتى دنت من نانج بينج ووقفت ملاصقة لها ، بينما قالت فلورنس لزوجها بمرارة :

ـ انك ياروبرت تقدم الدليل على صحة اعتقادهم فى فساد ذوقنا ، ونعتنا بلقب « الاجانب الشياطين » ..

فهز جريجورى كتفيه متبرما .. وسار الى حافة البحيرة وهو يصفر باستخفاف .

وقالت فلورنس تخاطب نانج :

ـ ان النهار كاد ينصرم .. وأحسب أننا أطلنا الجلوس .

فقالت نانج بينج وهى تحس أن قواها بدات تخونها :

ـ لا .. لا ..! لكنى متعبة اليوم .. ولا بد أن أذهب الى داخل البيت مبكرة ، نظرا لعودة والدى الفاضل ..

والتفتت الى (آه سنج) الذى لم يبرح مكانه أمام المعبد .. وقالت له بالصينية كلاما .. فانحنى وذهب لاستقدام حملة المصابيح .

وتناولت فلورنس جريجورى يدى نانج فعجبت من برودتهما، على انها قالت لها فى رقة كثيرة :

ـ الى اللقاء يا آنسة فو .. أرجو أن تقبلى جزيل شكرى لهذه الحفاوة العظيمة التى تفضلت بها علينا ..

فلم تجب نانج .. والواقع أنها عجزت عن الجواب .. بيد انها تطلعت الى ضيفتها واختلجت شفتاها ، فانحنت الزوجة فوقها وقبلتها ..

وقال كاروثر :

ـ أين بازيل ؟.. هل رحل ياهيلدا ؟

فأجابته الفتاة :

ـ نعم .. انه أصيب بنوبة من وخز الضمير وذهب الى المكتب لكى يشتغل ..

ثم التفتت الى نانج قائلة :

ـ الى اللقاء يا آنسة (فو) . لك جميل شكرنا .. كانت ضيافة ممتعة ..

فابتسمت نانج لاخت بازيل ابتسامة رقيقة . وقالت لها :

ـ سيرافقكم خدمنا الى الباب الخارجى .. فان حديقتى تقفل أبوابها عند الغروب .

وسارت الام وابنتها وكاروثر يتبعهم أربعة من الخدم حاملين مصابيح مدلاة بأيديهم تتبعهم (آه وونج) فى المؤخرة .. وقال جريجورى لنانج وهو يمد يده لها :

ـ الى اللقاء يا آنسة (فو) .

لكن الفتاة لم تتناول اليد الممدودة لها . ولكون صاحبها هو والد بازيل فانها شيعته بأعمق آيات الاحترام وهبطت الى الارض

تبجيلا واجلالا مما لايكون الا فى حضرة الملوك . فترك الرجل يده تسقط الى جانبه .. وقال لها فى مودة وطيبة :
ــ وداعا يا آنسة .. أتمنى لك التوفيق وحسن الحظ . انى كنت أرجو أن أقابل صديقنا المتع . وكان عندى كلام كثير له .. لكن يسرنى انى قابلتك ، وان كنت لاأحسن الظن بشايكم ..وارجو أن تزورينــا يوما فى الفنــدق الذى نقيم فيه ، ســتحتفى مدام جريجورى وهيلدا بك كما يجب . وتقدمان لك الشاى المتقن .. الى اللقاء .
وأردف لنفسه بصوت خافت وهو يبتعد :
ــ وأرجو ألا تذهب زيارتى هباء .
أما نانج بينج فوقفت جامدة فى مكانها تشيعه بنظرها حتى غاب عن عينيها ..

الفصل السادس عشر

دقات النــاقوس

وفى هذه اللحظة تحطمت أعصاب الفتاة .. فتهالكت فوق المقعد الحجرى وراحت تبكى مضعضعة الحواس طائشة العقل .. اذن لقد جاء والدها الى (كولون) .. والدها الذى لاتخفى عنه خافية ! .. ترى من أى وقت هو هنا ؟ .. وما مبلــغ عمله بالحقيقة ؟..
وفجأة سمعت رنين ناقوس عظيم .
كانت دقاته بطيئة كأنها نباح كلب جهنمي .. وما كادت دقته الثانية تصافح اذن نانج بينج حتى اعتدلت فى مجلسها فوق المقعد الحجرى وجعلت تتشبث به فى يأس مطبق .. وراحت تنصت الى دقاته المتعاقبة فى خوف كان يستحيل كلما تتابعت الما-قاتلا . فقد كانت تعلم أن يدا واحدة معينة هى التى الفت أن تطرق الناقوس على هذا النحو .
وما كاد رنينه يتلاشى فى نسيم المساء المعطر حتى وثبت من مكانها وركضت كالمجنونة الى ناحية القنطــرة وهى تهتف باسم بازيل .. فهى لم تفكر فى نفسها فى هذه اللحظة . وانما كانت تفكر فقط فى انقاذ ذلك الحبيب الذى أفسد حياتها وهدم صرح وجودها .. وتلك شيمة المرأة الصينية ..
وجاء بازيل فورا .. فانحنت فوق القنطرة وقالت له حين وقف فى المشى الذى أقبل منه :
ــ يجب أن تذهب ! . والدى ! . اذهب حالا ! .

ــ والدك ؟.
ــ اذهب !. اذهب حالا !. اسرع !.
ــ لكننا فى أمان هنا .. فى الوقت الحالى .

كان مسرورا فى الواقع بهذا الفوز الذى يبرر له الانسحاب .. غير انه مع ذلك أراد أن يتلكأ قليلا لكى يلهو ويعبث بعض الوقت قرب البحيرة حيث استمتع من قبل بمثل هذا العبث الذى كان نكبة على نانج التعسة .

فقالت له الفتاة بجنون :

ــ لا .. لا . لن نأمن بعد الآن .. ولا فى أى مكان .. البقاء هنا شديد الخطر !. اذهب !. اهرب يابازيل !. اهرب !. اهرب قبل أن يحل بك غضب والدى !.. سر فى طريق الطواويس وانج بنفسك !.

سرى اليه الآن رعب الفتاة .. بيد انه تردد قليلا .. فان الحاح المرأة يغرى الانسان بالنقيض .. وقال لها :

ــ نانج .. يازهرتى اليانعة .. كانت سعادتنا عظيمة .. تامة .. ولا بد أن نجد وسيلة أخرى .. وسنجدها .

فقالت الفتاة فى رصانة :

ــ لا .! لا .!

فهمس فى حرارة :

ــ احبك ياعزيزتى .

فقالت برقة :

ــ لا .. ان حبك طار عنى .. وعش فؤادى قد بردوسيظل باردا الى الابد .

فقال بانفعال :

ــ هذا غير صحيح .. هذا غير صحيح .
ــ اذهب .!
ــ سأعود اليك .

فقالت بصوت رخيم عذب كنغمات القيثارة :

ــ لا .! اذهب .. اذهب وانس ..

فرفع قبعته ودنا منها مادا ذراعيه ، قائلا :

ــ اذن .. الوداع يانانج .

لكنها تحولت عنه وابتعدت قليلا دون أن تواجهه .. فقد خافت أن تركن الى هاتين الذراعين .. وكان خوفها من نفسها أشد وابلغ .. وقالت همسا وهى تبتسم ابتسامة اليمة :

ــ وداعا للحياة وللحب ..

وسارت الفتاة قاصدة الى الدار .
فلم يتمالك بازيل أن وثب خلفها وقد بدرت منه صيحة غلب عليها ألم الضمير وحرارة العاطفة ، كالوحش يأبى أن يتخلى عن فرنسته ، وأراد أن يحتويها بين ذراعيه .
لكنه قبل أن يصل اليها اطبقت عليه أيد اخرى شلت حركته

فقد انسل (آه سنج) من ناحية المعبد كالافعى ، ووثب شبحان عن اليمين وعن الشمال وكأنما جاءا من العدم ، واطبق الثلاثة على الشاب الانجليزى وسمروه فى مكانه دون أدنى صوت أو كلمة واحدة .

لكن رجلا آخر وقف فوق القنطرة . مشرفا عليهم جميعا ، وابتسم ابتسامة بطيئة .. مرغبة .
ولم تسمع نانج بينج أصوات هؤلاء الصينيين الاربعة . بيد انها سمعت صوت نضال بازيل وهو يدافع مهاجميه مدافعةجنونية صامتة . فانثنت الفتاة وركضت نحوه صارخة :
ـ أواه يابازيل !.

ولم تعبأ الفتاة بمن يسمعها الآن . فقد حلت النهاية حقا ؟ وما فى ذلك ريب . وألقت نفسها أمامه فى غمار الكتلة المشتبكة لكى تحمى جسده بجسدها ما استطاعت .

وتمكن بازيل من تحرير ساعده بمحض جهده وقوته ، أو لأن الرجل الواقف فوق القنطرة أشار الى (آه سنج) اشارة خاصة، ثم انتزع مسدسه من جيبه .

بيد أن (آه سنج) لمس بازيل بأطراف أصابعه لمسة خاصـة دون أن يحول نظره لحظة عن الرجل الواقف فوق القنطرة .. وسرعان ماهوت ذراع بازيل مشلولة الى جانبه . وسقط المسدس فوق الارض . وما كاد بازيل يدير رأسه فى ألم ويرى هذا الرجل حتى هتف مروعا :
ـ رباه !. مستر (فو) !!

وانثنت نانج حولها متباطئة .. ونظرت الى أبيها مشـدوهة ذاهلة .. وسرعان ماصدرت منها صرخة شقت سكون المسـاء كصرخة الطفل الذى يتلقى طعنة نجلاء ويلفظ انفاسه الاخيرة .. ثم هوت على وجهها وهى تئن وتتوجع عند قدمى بازيل ..وراحت تتشبث بهما فى جنون وكأنها تريد أن تبذل جهدها الاخير لانقاذه وحمـايته .

الفصل السابع عشر

عند قدمي (كوان ين كو)

جلست نانج بينج القرفصاء عند قدمي (كوان ين كو) ، الهة الرحمة ، فوق أرض غرفتها .

لقد أمضت سواد الليل وحدها .

تذكرت نانج انها شاهدت والدها فوق القنطرة .. وتذكرت انها هوت على الارض عند قدمي بازيل .. وفيما عدا ذلك لم تذكر شيئا ..

على انه خيل اليها كما يخيل للانسان حلم بعيد ان ذراعين حملتاها وأرقدتاها برفق فوق فراشها .. فمن ذا الذى فعل ذلك ؟. ومن ذا الذى جاء بهذا الطعام الذى تراه الآن فوق الصحفة على الارض ؟.

وراحت تتساءل : ترى هل كانت يقظى متمالكة حواسها حين زحفت من الفراش وجاءت هنا عند قدمي (كوان ين كو) لكى تبثها آلامها وشجونها .؟ أم أنها نضت عنها الغطاء وتسللت من الفراش الى الارض وهي نائمة .

رأت فتيلا مشتعلا فى وعاء يبدد ظلمة الليل .. وحاولت أن تفكر بيد انها كانت منهوكة الاعصاب خائرة القوى .. فأدارت وجهها الى الارض وتمددت هكذا أمام تمثال الربة التى كانت عونها الوحيد الباقى .

واخذت تسائل نفسها : ترى أين لوسونج ؟. هل وقعت هى الاخرى فى الشرك ؟.

وماذا فعلوا ببازيل ؟.

ولم تتمالك أن أطبقت يديها فى لوعة جنونية ووله عنيف حتى مزقت أظفارها راحتيها .

ترى ما الذى يتم الآن .؟ أو بعبارة أدق : متى يتم ؟. وكيف؟. فهى لم تكن فى شك من النتيجة .

ولم تستطع أن تفكر أكثر من هذا القدر .. وكلّ ماكان فى وسعها الآن هو أن تتعذب وتكابد .. وما فائدة التفكير والنهاية محتومة والقضاء ذريع عاجل ؟..

ثم بزغ الفجر وطلع النهار مشرقا ضاحكا .. فنهضت نانج بينج وجثت أمام الربة .. وراحت تصلى صلاة لم تصلّ مثلها فى حياتها .. صلاة الانوثة المعذبة .. يتردد أنينها فى جوانب الارض .. وتطوف بالعالم ترنيماتها المفعمة بالضراعة الاليمة والاسترحام

العنيف .. صلاة هي الحزن المطبق . والانكسار الشامل .. والمذلة الموجعة .. والعار القاتل . صلاة لاتجد سميعا في الارض .. وانما تتفتح لها أبواب السماء .

وفي غرفة أخرى من هذه الدار الرهيبة كان (فو) النبيل الصيني راكعا يصلي كذلك أمام تمثال اله العدالة ..

وفي المعبد حيث شاءت سخرية (فو) أن يسجن بازيل ، راح الشاب يصلي بدوره . مستعينا بدعوات بسيطة رقيقة تعلمها من أمه في أيام طفولته ..

الفصل الثامن عشر

اســـتعداد

راح طائر يغرد بين أفنان شجرة قريبة حين نهضت نانج بينج من صلاتها .. ووقفت قليلا في النافذة المفتوحة تنصت الى التغريد الشجي وتودع حديقتها الوداع الاخير ..

كان المعبد يتلألأ في ضوء الشمس كقبة من الجليد المشوبة بوشي وردي .. واستيقظت أزهار اللوتس وتفتحت أكمامها بين قرمزية وبيضاء .. وأخذت الطواويس تختال في مشيتها وقد نشرت ريشها الاخاذ الرائع .. وتلألأ الطل فوق الزنابق وهب نسيم عليل فتساقطت قطراته كرذاذ من لؤلؤ . وهمست الفتاة في رقة : « الوداع !. » .. ثم ارتدت عن النافذة ..

كانت نانج لم تزل مرتدية ملابسها الثمينة التي خرجت بها الى حفلة الامس .. فأخذت تخلعها واحدا بعد الآخر حتى تكدست عند قدميها كوما من الحرير والمجوهرات .. وستجيء خادماتها لحمل الملابس بعد قليل ، لكن ذلك لايعنيها ، بل لن يعنيها شيء في الدنيا بعد الآن ..

ثم عمدت الى رداء فضفاض بسيط داكن اللون فارتدته فوق غلالتها الرقيقة .. وراحت تفك شعرها المعقوص وهي لم تألف ذلك قبل الآن ، فاستغرقت هذه العملية وقتا طويلا .. حتى اذا فرغت منها كومت المشابك المرصعة بالاحجار الكريمة فوق الملابس المتراكمة وتهدلت جدائل شعرها الفاحم السواد حول رأسها .

وجلست أخيرا فوق الارض الباردة وشبكت يديها حول ركبتيها . وراحت تنتظر مرهفة الحواس حتى تسمع دقات ناقوس والدها .

فقد كانت موقنة انها ستسمع هذه الدقات عن قريب .

وانتفضت فجأة .. فقد لمحت حبة مسبحة على الارض .. فتناولتها وعرفت فيها حبة من مسبحة والدها ، وبرغم ماخامرها من الم لاذع فقد سعدت بهذا الدليــل الذى علمت منه أن يديه حملتاها الى هنا .. وما لبثت أن دست الحبة فى صدرها وآلت أن تبقيها حيث هى ماترددت انفاسها بين جنبيها .

وجاء الخدم مرتين بالطعام والشراب وكانوا يحيونها بخضوع واحترام كلما أقبلوا أو عادوا .. لـكنها لم تخــاطبهم .. ولم يخاطبوها .

ولم تتلق نبأ ما حتى دق الناقوس الموعود ..

الفصل التاسع عشر

دليل المحبة البنوية

قصد « فو » الى مكتبه بعد أن حمل نانج الى فراشها ، وأمضى سواد الليل يقدر ويفكر ..

وهو حين رفعها من مكانها لم يلق نظرة واحدة على الانجليزى .. ولا نظر نحو السجن أو السجين .. فقد تلقى الخدم أوامرهم . وستنفذ بحذافيرها .. ولم يبق هناك مايعنى (فو) من ناحيــة بازيل جريجورى الآن على الاقل .

وجلس طول الليل ساكنا لايحرك أصبعا ولا يختلج له هدب .. ولم ينتبه ما انتاب نانج من التململ والاضطراب .. فقد كان عذابه مطبقا لاهوادة فيه ..

اذا (سقطت) البنت حزنت الام أشد الحزن والتاعت أحر اللوعة .. لكن حزن الام لايقاس بعذاب الابوة المهينةالجريحة .. ذلك العذاب الناهش القاتل الجهنمى .. فان الطبيعة أرحم بالام وارفق بها منها بالرجل ..

وفى شريعة الصينى ان عقاب الجريمة لايقع على رأس المجرم وحده .. فلا مفر من أن يدفع الدم والحب نصيبا من الثمن .. وأن توفى صلة النسب والمحبة البنوية قسطا من الدين ..

لقد أجرم بازيل جريجورى ونانج بينج .. فيجب أن ينال (فو) وفلورنس جريجورى ماينال الشابين من قصاص وعقاب .. ولان الطبيعة أقل برا بالرجل منها بالمرأة : فيجب أن يكون نصيب الاب والابن من العقاب أشد وأفدح ..

واذا كانت نانج تقاسى الان أشد الالم .. فان عذابها لا يقاس بعذابه .

ولما طلع النهار نهض (فو) كما نهضت نانج ، واتجه الى النافذة .. وكانت غرفتها فى الطابق العلوى .. أما غرفته فكانت محاذية للحديقة .. أى حديقته الخاصة .. فقد كانت له حديقة خاصة التي لايطرقها أحد حتى ولا نانج .. والى هذه الغرفة كان يخلو الى نفسه فلا يعكر أحد خلوته ..

وحوالى الظهر اغتسل وارتدى ملابسه القاتمة البسيطة ، وقصد الى الغرفة الكبرى حيث أصاب قليلا من الارز .. فقد كان أمامه عمل حافل ، وقد اعتزم أن يؤديه كما يجب ..

ولم يكن امامه وقت للتفكير وتقليب وجوه الرأى . بل لم يكن فى حاجة الى ذلك .. فقد أتم التفكير والتدبير .. وانتهى عهد أنانيته . وأصبح بكليته ملكا للصين وحدها . ويجب أن تكون كل ساعة من ساعاته حافلة بالعمل .. وسيعمل بلا هوادة ولا لين ، لا مفكرا ولا متمعنا ، بل مقدما متوغلا ..

وسمعت نانج بينج دقات الناقوس العميقة تدوى فى جوانب الدار وكانت تترقبها طول اليوم . فاستوت على قدميها قبل أن يتلاشى صوتها . وحين جاء الخادم برسالة والدها كانت واقفة متأهبة لدى الباب .. وتبعته وقد سرى عنها ان انتهى عهد الترقب والانتظار . ولم تكن تشفق مما قدر عليها وادخر لها ، لكن كان فؤادها يذوب أسى لابيها .

ودخلت غرفته وحدها رابطة الجأش .. وانحنت أمامه فى احترام عميق ثلاث مرات .. ثم وقفت أمامه فى هدوء مشبكة يديها بخضوع فوق صدرها ، تنتظر صابرة محزونة ولكن غير جازعة .

لم تكن خائفة حقا .. فلم يكن يخامرها ريب فى أن بازيل قد مات وانتهى .. فان هادم حياة ابنة (فو) لا يصمد لقصاص (فو) وثأره يوما واحدا .

فلم يكن هناك اذن ما تخاف على بازيل .. ان أسوأ ما يناله قد حل وانقضى ..

ولم تكن تخاف على نفسها .. فهى تعلم ان والدها لن يعذبها ، ولو عذبها حقا لما جزعت ولا تزلزلت . فقد تحدرت من سلالة نساء كن يشنقن انفسهن على قبور الازواج تكريما وتعظيما .

نظر (فو)الى عينيها . ونظرت الى عينيه . فلم تجد فيهما قسوة وخاطبها فى غير صرامة :

— هل لك أن تخبرينى بكل شىء ؟

فأجابت الفتاة بلهجة الحزن :
ـ يا والدى المبجل .. لن أقول شيئا ..
فابتسم النبيل الصينى .. اذ كان الموقف عصيبا لا يتسع للغضب . وكان يعرف وسيلة محققة لاستدراجها الى الكلام ..

فقال لها ، ولكن فى غير خشونة :
ـ هل تخافين على الانجليزى ؟.
ـ كلا يا والدى المبجل .. انه الآن فوق الضر والهلاك .
فكرر ابتسامته وقال لها : هل تخافين توريط لوسونج .؟
فلما سمعت نانج هذا الكلام تطلعت اليه مبتهلة فقال لها :

ـ لا تخافى .. لن ينالها عقاب .. هى لا تستحقه .. وعن قريب ستمهر خير مهر وتتزوج .. انها اساءت الى واليك ، وأنت من دمها لكنى برغم ذلك لن أعاقبها .. هى لم تغدر بك ولم تخن عهدك . وقد هربت أول الامر مذعورة للنجاة بجلدها النجس .. لكنها جاءت الآن تزحف لكى تشـــاطرك نصيبك ، والتمست أن تتحدث اليك . هل تهتمين برؤيتها ؟

ـ لا اريد أن أرى احدا يا والدى المبجل .
ـ ذلك ما حسبت أن يكون جوابك .. اطمئنى عليها .. فلن ينالها اذى ..

وأمر باحضار الانوار .. ولما أضيئت الشموع الحمراء وانسحب الخدم انتظارا لاوامره التالية ، انشأ يتكلم كلاما متصلا لانه صينى ولانه لم يزل يحبها .. فقال :

ـ اجلسى .. اصغى .. لست اخلى نفسى من اللوم .. ولن الام بعد الان .. ان جدى الموقر المبجل « فوشنج يو » قد كرسنى لواجب عظيم وشأن جليل ... وقد عملت برغبته ، واتممت قسطا موفورا من وصيته ، ولكن بغير التفرغ التام والتوفر المطلق الذى يقتضيه هذا الواجب السامى .

انى احببت أمك .. ولا جناح على ، ولا غبار على هـــذا الحب .. لكنى أمضيت الى جوارها عاما كاملا هنيئا نسيت فيه واجبى . أو على الاقل ارجأته الى حين .. وكنت أحيانا أرجئـه لأجلك ايضا .. لكنى لن أفعل هذا بعد .. أنا من نسل (فو) .. وسينال بيت (فو) قصاصه وثأره .. وسأكرس حياتى بعد الآن لهذه الغاية وللصين وطنى .

ان جدى الاجل الحكيم قد أحسن صنعا حين أوفدنى الى انجلترا وقد أوصانى ان أدرس أطوار الانجليز عن كثب .. لكنى اسأت اذ أسرفت فى اقتباس عاداتهم ..

اننا أفدنا كثيرا من أوربا .. ومن الخير أن يقتبس الانسان من كل أمة . لكن الاسراف فى محاكاة الامم الدنيا جريمة بشعة منكرة، وقد اقترفت أنا هذه الجريمة فأسأت الى وطنى ، وأسأت اليك .. فقد قضى عليك . وأصبحت الصين مستهدفة لفقد مقومات آلاف السنين التى جعلت منها أمة عريقـــة مؤثلة ، ورفعتها الى العـلا ..

لقد يخيل الى أحيانا وأنا معتكف فى هدأة الليل أن الرياح تهتف وتصرخ ، وأن السماء تبكى وتنتحب ، وان ناقوس الفنـــاء يدق منذرا بالقضاء على الصين .. فكنت أرتمي على وجهى أمام الآلهة وأبتهل اليها أن تأخذ بناصر الصين فتقهر أعداءها والكائدين لها . لكن قلبى يتوجع ونفسى تتفطر .. فانى أرى النذر تتحفز فى الجو، والثورة ترفع قرنيها لطعن امبراطوريتنا العتيدة فى أحشائها .. ان العدو من خارجها ، والثوار فى داخلها ، يطحنونهـــا بين فكى الرحى ، ويضيقون عليها الخناق .. وموقفها اليوم عســـير .. وحالتها تنذر بالخطر ..

لكن الصين قد صمدت وتماسكت أكثر من كل امبراطورية فى التاريخ . ونحن الصينيين لا ننسى .. ولا نصفح .. وقد طالما بدا للناس اننا نرضى الانقلابات والتبديلات .. لكننا كنا نمتحنها .. حتى اذا ألفيناها نابية عن تقاليدنا طرحناها عنا ونبـذناها الى الابد ..

نحن الآن مستهدفون للخطر .. لكن النهاية لم تحن بعد ... وهناك صوت يهمس فى آذاننا جميعا ان عودوا الى (كونفوشيوس) وأنا .. أنا الذى تحدرت من سلالة هذا الحكيم الكبير .. أنا الذى أحببت الصين أكثر من حبى لامك .. قد خنت عهد الصين .. وعهدك ! . فانى منحتك حرية كانت لوثة لفتاة عذراء .. فأرجو عفوك ، والتمس صفحك .. وقد أمضيت ليلى استـــصفح أمك المبرورة ، واستغفر أجدادى الاماثل .

لقد كنت لى بمثابة الابن والبنت معا .. فان نساء بيت (فو) كن جميعا كذلك ، وأوتين من كريم السجايا نصيبا موفورا . لكن كانت الخطيئة نصيبى .. بيد انى سأتفرغ منذ الآن للصـــين ..

وسأتم فى هذا الشهر واجبا على لأسرتى . حتى اذا فرغت منه وهبت نفسى لقومى ووطنى .
سأتزوج الآن ، وأنجب أبناء لاجدادى ووطنى حتى يحكموا الصين ويكونوا لها خداما ، وقد كان جرما منى أنى تنكبت هذا من قبل وكنت أقدر أن أتبنى زوجك ، أو أحد ابنائك ، حتى يؤول كل ما أملك اليك والى واحد منك .. لكنى أثمت وأذنبت حين قدرت هذا التقدير .. أن التبنى فى ذاته عمل نبيل وقد أقره حكماؤنا ، لكنه لا يحل الا لمن عدموا الابناء .. على الرجل أن ينجب رجالا ، ويورث من هم من صلبه .

❋ ❋ ❋

واسترسل الوالد فى كلامه . فقد كان هذا سلوته الوحيدة ، ولم يتمالك رغم تصميمه الجازم الا أن يؤجل فراق الفتاة التى يحبها ويحن اليها .. وراح يحدثها عن طفولتها وطفولته . بيد أنه لم يحدثها عن التقاليد السامية التى كانت شيمة نساء أسرتها ، فقد أبقى عليها من هذه الناحية رفقا بها .
وما لبث أن عاود استجوابه لها .. فقال :
ـ انه لم يمت ، ولم ينله أذى ، فأخبرينى بكل شىء ..

فما كادت نانج بينج تسمع هذا الكلام حتى ترنحت قليلا فوق مقعدها وتشبثت بركبتيها . ثم قالت منتحبة وهى منكمشة تحت قدميه : أواه يا والدى المبجل !. لا أستطيع !!
فابتسم (فو) وقال :
ـ قولى كل شىء !.. لا تتركى شيئا .. وبهذا تنقذينه .
فانتفضت نانج .. وتطلعت الى والدها بنظرات مؤثرة ..
فقال لها : كل شىء ! . وسيعيش ، بل سينال حريته ! .
تاوهت نانج ، ونكست رأسها ، وانشأت تتكلم ، فهى تعلم أن « فولى شانج » يبر بوعده ويفى بعهده ..

استرخصت الفتاة هذه التضحية الجديدة المؤلمة لانقاذ الرجل الذى نبذ حبها . وراحت الكلمات تخرج من فيها لاذعة محرقة .. لكنها فعلت ذلك لأجل بازيل . وحافظت على عهده حتى النهاية . فحدثت والدها عن لقائهما الاول ، والاخير . وقصت عليه كل شىء الا تلك المسائل التى لا ينبغى أن تفوه بها امرأة .
وقد انصت اليها صامتا . ولم ترفع رأسها مرة واحدة للنظر الى وجهه .. ولو فعلت لانعقد لسانها وخانتها الكلمات .. فقد

كان وجهـــــه يتقلص ألما وعذابا . وتناثر الزبد على شـــفتيه المطبقتين . .

ولما فرغت من قصتها خيم صمت طويل . ولم تبدر من أحدهما حركة .

ثم قال أخيرا : هل لديك رغبة ، أو رسالة تحبين تبليغها ؟.

ارتعدت نانج بعنف . بيد أنها لم تجسر على التفوه بالرسالة التي كانت تضطرم في وجدانها . ولو تجاسرت لما رضيت أن تجرح شعوره وهو الذى كان بها رحيما مترفقا . على أنها حين تمالكت نفسها قليلا ، قالت متلعثمة : اذا تيسر أن تنال لوسونج رداء أو حلية . . منى .

فقال (فو) : ستختار لوسونج ما تشــاء مما لا يخص أمك وأمي وجداتنا . . وأعدك ألا يمس هذه المخلوقة الهزيلة أى أذى . فلم يكن لمثلها أن ترعى الامانة التى قصرت أنا ، أبوك ، فى رعايتها . .

حاولت نانج أن تعرب عن شكرها ، بيد انها لم تستطع الا ان تحنى رأسها وتضعه قرب حذائه . دون أن تجسر على لمس هـذا الحذاء

ونهض (فو) وأمرها بالنهوض . ولما وقفت أمامه وضع يده لحظة مترفقا على منكبها . وقال لها فى حنان : نانج بينج !.

فقد كانت يتيمة . غضة الشباب . ولم يزل قلبـــه ينبض بحبها .

ثم قال لها : ان حرارة الجو زادت . اذهبى الى النـــــافذة وانظرى اذا كانت الشمس بلغت شجرة الزنبق . .

وفيما هى تتجه الى النافذة ، تناول السيف الكبير المدلى قرب الهيكل دون أدنى صوت . . وضربها ضربة واحدة . .

كانت كافية . . قاضية . .

ولم تبدر منها سوى زفرة رقيقة . . وكلمة مختنقة .

وقد سمع (فولى شانج) الزفرة . . لكنه لم يسمع الكلمة فان الفتاة الصينية قضت نحبها وهى تلفظ اسما انجليزيا . .

ورأى جسما سقط من ردائها وتدحرج حتى الهيكل فذهب اليه وتناوله . واذا هو حبة مسبحة . .

وقد جلس (فو) طوال الليل وحده جامدا لا يتحرك فى هذه الغرفة التى شهدت طفولة الفتاة . وفيها كان يلاعبها ويعلمها ويفيض عليها من محبته وعطفه . .

جلس وحده جامدا لا يختلج له عضو . بينما كانت دماء قلب وحيدته تتجمد تحت قدميه . .

الفصـــل العشرون

مؤتمـــر

استاءت مدام جريجورى لما لم يبر ولدها بوعده فى الحضور لتناول العشاء فى الفندق . لكنها لم تدهش . فقد تكرر هذا منه قبل الآن

وقد أرجىء موعد العشاء نصف ساعة انتظارا لحضوره . ولم يقبل روبرت جريجورى الانتظار أكثر من هذا القدر .. وتناولت الام عشاءها بغير شهية .. ولما انتصف الليل ولم يحضر الشاب بعد ، لم يخطر لأحد أن يجزع لغيـابه الا (آه وونج) خادمة مدام جريجورى الصينية ...

والواقع أن (آه وونج) قد فطنت وحـــدها الى الظروف الغريبة الغامضة التى شملت حفلة الشاى فى حديقة نانج بينج فى « كولون » .. وقد أزعجها ما رأته بعينيها النافذتين .. كما أن غياب بازيل المتكرر زاد فى انزعاجها .. ولم يكن هذا الانزعاج لأجل بازيل نفسه ولا لأجل والده .. بل لأجل سيدتها التى كانت رحيمة بها مترفقة عليها فأخلصت لها الخادمة وكادت تعبدها عبادة .

وقد غضب الوالد حين لم يظهر بازيل فى المـــكتب فى اليوم التالى . ولما انقضت ثلاثة أيام دون أن ترد أنباء عن الشاب انزعج الجميع بلا استثناء .. وفى غضون أسبوع منذ اختفـــائه كانت جزيرة « هونج كونج » كلها قائمة على قدم وساق لاجله . وكادت مدام جريجورى تفقد صوابها جزعا .

ولولا أن روبرت جريجورى كانت لديه مشاغل جمة ملحة لزاد اضطرابه وجزعه لاختفاء ولده .. فقـــد كانت مطالب « شركة الملاحة » التى يشرف عليها متعددة تقتضيه جهودا متواصلة وعناية كبيرة .

وفى مكتب روبرت جريجورى الفخم جلس القس جون برادلى وهولمان وكيل جريجورى يتجاذبان أطراف الحـــديث .. وكان هولمان جالسا قبالة القس يصوب نظره مفكرا من خلال النافذة المطلة على رصيف الميناء حيث كانت احدى البواخر التابعة لشركة جريجورى راسية يتصاعد الدخان من مداخنها الضخمة ، وكان الحمالون منهمكين فى شحن البضائع اليها . وقد جلس الكاتب سمسون على منصته يراقب عملية الشحن والى جانبه كاتب صينى يرصد العدد فى دفتر بين يديه .. بينما جلس متعهد الشـــحن

الصيني على منصة أخرى فوق الرصيف وكان منهمكا في مشادة حامية مع طائفة من الحمالين .

ولما هم القس برادلي بالنهوض قال له هولمان :

ــ وهل هذا كل ما تستطيع أن تفضي الى به !.

ــ بل كل ما يهم الافضاء به .. فاني قد تجاوزت الحد في ذكر ما ذكرت .

ــ الا تخبرني من أين استقيت هذه المعلومات ؟ .. هل هذا من العدل في شيء ؟.

فهز جون برادلي راسه وقال :

ــ ليست هذه معلومات .. اذ لا معلومات عندي .. لكنها شكوك خامرتني .. وأعتقد أن لها أساسا من الصحة ..

ــ أساس قائم على صخور صينية ..

ــ حسنا .. نعم .. الى حد .. وأنا رجل أقدر كل التقدير هذه الصخور الصينية .. أما قولك ان هذا ليس من العدل في شيء فلا ينطبق على الواقع .. وقد حاولت أن أنظر في هذا الموضوع من جميع النواحي .. ولا غبار على الانسان أن يقدر الثقة التي توضع في شخصه .. وهذا التقدير عند القس واجب مقدس .. لقد جاءتني امرأة صينية لن أذكر اسمها حتى ولو كنت اعرفه .. جاءتني في منتصف الليل لا من الباب العام ولكن من طريق التلال أو من فوق سور الحديقة ، وجعلت ترجوني أن أجد وسيلة لاخراج أسرة بازيل جريجوري من الصين على أي وجه من الوجوه .. وقد الحت على الا أتركهم يضيعون دقيقة واحدة من وقتهم في البحث عنه ، لأن أي بحث مهما كان لونه لن يرده الى ذويه .. وقد قررت أنهم مستهدفون لخطر شديد يتزايد بين ساعة وأخرى .. ولم أكن أعلم بغياب بازيل حتى أخبرتني .. وقد حدث هذا منذ ليلتين .. وكنت انتظر حضوره .. لاتمام حديث كنا بدأناه معا ..

ــ حديث عن فتاة ؟.

ــ لكني لم أعجب لتخلفه عن موعد لم يكن محددا تماما .. وكنت أعرف أن بازيل يحب المطل والتسويف .. ولم تكن تلك المرأة تعرف أين هو أو ما حدث له .. وأرجو أن تثق بأنها قررت الحقيقة .. فان من أخص صفات مهنتي أن أعرف من يتكلمون الحقيقة او يلجأون الى الكذب والافتراء .. وقد علمت أن ثمة شكوكا تساورها ، وان كنت لا أعلم ماهيتها ولا نصيبها من

الصواب . لكنها لم تشأ أن تفضى الى بشىء مما يخامرها . ولم تقل الا أنها جازفت بحياتها حين سعت الى لكى تحملنى على ابعاد أسرة جريجورى من الصين فورا . وبأى ثمن ..

ــ وترك مستر بازيل المسكين لمصيره ؟ .

فأبدى برادلى اشارة تدل على ضعف الحيلة والعجز . فقوس هولمان شفته .. وقال :

ــ انك سيء الظن بذكائى . انى أدركت الآن كل شيء . ادركت كل ما تعلم .. وما يساورك من

فقال القس بحرارة :

ــ اذن فأنت لا تعلم شيئا .

فقال هولمان برصانة :

ــ كلا .. لقد جاءتك « آه وونج » فى منتصف الليل . فان تلك المرأة التى تحدثت عنها هى « آه وونج » ما فى ذلك ريب .. ان هذه المرأة متفانية فى اخلاصها لمدام جريجورى . وهى لا تحفل بمستر بازيل ولا يعنيها أعاش أم مات .. حتى اذا علمت منها أو من غيرها فى صباح اليوم التالى بنبأ الزيارة التى تمت منذ ثلاثة أيام فى حديقة « فو » فى « كولون » قصدت الى هناك من فورك لاستطلاع الحقيقة .. وقد قررت أنك ما ذهبت الى « كولون » الا لمحاولة اثارة اهتمام صديقك « فو » بالقضية باعتباره المخلوق الوحيد فى الصين الذى يستطيع أن يفعل شيئا فى هذا الشأن . والآن اسمح لى أن أقول لك يا مستر برادلى انك لم تذهب الى « كولون » لهذا الغرض حقا . وانما ذهبت للبحث عن مستر بازيل ..

فنزع برادلى القبعة التى كان يضعها على رأسه وعاد الى الجلوس ثانية ، وقال :

ــ أنت مخطيء فى هذا الكلام .. لانى أنا أيضا أعتقد أن بازيل لن يوجد .. لكنى ذهبت حقا محاولا اثارة اهتمام « فولى شانج » بموضوع يعنينى عناية تامة ، لاعتقادى انه رجل واسع النفوذ قوى السلطان ، ولانى أثق به وأحبه .

ــ هل تثق وتحب « فولى شانج » ؟!

فأجاب القس بهدوء :

ــ جدا .. انى درست كثيرا من أطوار هذا النبيل الصينى منذ جئت الى هنا . فهو نبيل حقا ، ورجل كامل الرجولة . وليس هناك انسان يفوز أكثر منه باحترامى وتقديرى . وقليلون من أبناء

جدتى احترمهم احترامى له . اقرر لك اننا صديقان . واحسب أنه يميل الى ويحبنى .. وقد ذهبت اليه ملتمسا منه خدمة كبرى ..

فقال هولمان : آه !. ولم يرض ان يقابلك ؟

ــ لم أستطع الوصول اليه .. ان (فو) لم يردنى عن بابه يوما .

وقد ترددت على داره عشرات المرات .. لكنى لم أستطع أمس أن أجاوز عتبة الباب الخارجى .. ان النبيل الصينى لم يرفض مقابلتى .. وكل ما هنالك انى لم أستطع الوصول اليه .

ــ لا فرق بين الامرين ..

ــ أبدا .. ان الخدم تلقونى لدى الباب وردونى بكل أدب .. ولو ان (فو) كان يرغب فى اجتناب لقائى لأباح لى على الاقل السير فى حديقته كما حدث فى مناسبات سابقة كلما غاب أو كانت مشاغله لا تسمح له بمقابلتى أو التحدث الى .. لكنى هذه المره طردت بكل ادب عند الباب الخارجى .. فما السبب ؟.. لان هنـــاك شيئا لا يجب أن أراه .. واعتقد أنه بازيل . وان كان بازيل حقا، فهو على قيد الحياة .. ان انجليزيا ميتا توارى جثته وتطمس معالم موته .

ــ لكن الا يمكن اخفاء انسان حى بحيث لا يخامرك الشك فى وجوده ، ولا سيما لمن كان حاذقا مثل (فولى شانج) ؟.

ــ نعم .. نعم .. بلا ريب . بل ان ما تقول مرجح . لكن من كان مثل (فو) لا يدع شيئا للصدف . فهناك دائمة فرصة امام الاسير الحى للارشاد عن وجوده . لكن الموتى لا يتكلمون .

فهز هولمان رأسه غير مقتنع .

والواقع ان هولمان كان مصيبا فى استنتاجه . فان (فـولى شانج ، لو شاء لأطلق جميع انجليز (هونج كونج) فى حدائقـــه واحتفظ بأسراره رهن الخفاء فى نفس الوقت . وهو لم يضن على برادلى بالدخول الا لأن داره كانت تخيم عليها علائم الحداد ؛ ولم يكن هناك مجال للاحتفاء بأى ضيف انجليزى ، فيما عــدا ذلك الشاب الاسير فى المعبد قرب البحيرة .

وقال برادلى وهو ينهض ثانية :

ــ لا بأس .. اذا كنت تحرص على حياة بازيل فلا تدع مستر جريجورى يعمل شيئا من شأنه أن يثير غضب (فولى شانج) .. وسأقابله حتما .. لكن هذه المقابلة ستتم بموافقته ، وفى الوقت

الذى يختاره ، ولست أدرى ما الذى يدعونى الى الرجاء فى التأثير عليه .. لكنى سأحاول .. من الممكن اقناع (فو) والتأثير عليه .. لكن يستحيل ارغامه على شيء .. لا توجد فى الدنيا قوة تستطيع أن نلجأ اليها او نتوسل بها ، حتى لو كان بين أيدينا ما نستند اليه ، والواقع اننا لا نملك شيئا .. ان الامبراطورة نفسها لا تستطيع أن ترغم (فولى شانج) أو تعاقبه .
ـ لا تنس أن مستر بازيل قد شوهد هنا فى الجزيره بعد عودة الاسرة من زيارتها لحديقة ابنة (فو)
لكن جون برادلى قال بازدراء :
ـ كلام فارغ !.
فلم يسع هولمان الا ان يأخذ برأى القس قائلا :
ـ هذا عين ما اعتقد .
ولما وصل القس الى الباب التفت الى هولمان وقال بلهجة الجد :
ـ تذكر أنه يجب الا يفعل جريجورى الآن شيئا يضايق « فو » . فان حياة بازيل قد تتوقف على ذلك .
فقال هولمان وهو ينهض من مكانه فى اعياء :
ـ سأبذل ما فى وسعى ..
ـ ولا تقل كلمة واحدة عن « آه وونج » التى تظن أنها هى التى زارتنى .. فانك لن تفيد من ذلك شيئا ، وقد تسيء اليها .
فقال هولمان وهو يصافح القس :
ـ كما تشاء ..
وانصرف القس لشأنه .

الفصل الحادى والعشرون

أزهار (سنج كونج ياه)

ما كادت فلورنس جريجورى تعود مع هيلدا فى أصيل هذا اليوم بعد بحث شاق مضن حتى وجدت بانتظارها فى غرفة الجلوس سلة من الازهار لم تر لها مثيلا فى حياتها ، ومعها رقعة حمراء مكتوبة باللغة الصينية طولها ثمانى بوصات وعرضها ثلاث ..
وقد نظرت (آه وونج) الى هذه السلة فى جزع .. ولما أمرتها سيدتها بترجمة الكتابة المخطوطة على رقعة الزيارة قامت بهذه المهمة نافرة مكرهة ، ثم اردفت :

ـ انا لا أحب هذا . فان السيدات الصينيات لا يؤدين الزيارة على هذا الوجه .. ولا يرسلن بطاقات مثل هذه

فقالت مدام جريجورى فى اعياء وهى لا يعنيها من ذلك الا ان تجد فيه أثرا يرشدها الى ولدها .

ـ لكن من هى (سنج كونج ياه) ؟.

فأجابت الخادمة بازدراء :

ـ هى امرأة ارملة ..

فقالت مدام جريجورى فى عجب :

ـ ارمله من هى ؟.

ـ لا أدرى ..

ـ ومن هى ؟. ولم جاءت ؟.

ـ لا اعرف ان كانت جاءت أو أرسلت الازهار ..

ـ ابحثى فى ذلك ..

فذهبت الخادمة مكرهة .. ثم عادت بعد قليل وقالت :

ـ انها جاءت مع بعض الخدم ..

فقالت مدام جريجورى فى لهجة الامر والاصرار :

ـ لكن من هى هذه المرأة ؟.

فأجابت آه وونج فى يأس :

ـ ان قريبها الوحيد هو (فولى شانج) .. وهى مربية ابنتك التى شربتم الشاى عندها فى (كولون) .

فهتفت هيلدا :

ـ يا للشيطان !. ما أعجب الظرف الذى تفرض فيه تلك الصينية معرفتها علينا فرضا ؟!. لا ريب أنهم هم أيضا قد علموا باختفاء بازيل بعد أن نشرت أوصافه وصورته فى كافة ارجاء (هونج كونج) !.

ـ آه !. هدئى روعك .

فاهت مدام جريجورى بهذه الجملة وهى تفكر ، بل تجهد ذهنها فى التفكير .

وكانت (آه وونج) تفكر أيضا . وقد بدت على وجهها الهادىء الساكن علائم القلق والانزعاج .

وقالت لها مدام جريجورى بعد قليل :

ـ اجملى هذه الازهار الى حيث لا يراها مستر جريجورى .. لكن عليك بالاعتناء بها .. دعى خدم الفندق يروا اننا تقبلناها بالتقدير اللائق .. هل فهمت ؟.

فأومأت الخادمة ايجابا .. ولما همت بحمل السلة لم تكن

تقوى على رفعها .. فقد كانت ثقيلة جدا .. ولما خرجت بها من الغرفة كانت تترنح وتتعثر فى مشيتها .

وفى أثناء ذلك ما فتئت مدام جريجورى تقدح زناد فكرها .

فقد كان المعروف أن النبيل الصينى (فو) هو أشد الناس نفوذا فى الصين .. ولا ريب ان فى وسعه أن يبذل شيئا من المعاونة لايجاد بازيل وقد قررت ابنته انه رجل طيب القلب .. وجاءت قريبته التى كانت فى زيارة أحد الاديرة أثناء تناولهم الشاى فى (كولون) ــ جاءت لزيارتها مصطحبة (حديقة) من الازهار .. فيجب اذن أن ترد لها هذه الزيارة بغير ابطاء .. وقد لا يبعد أن تمد هذه المرأة يد المساعدة فى البحث عن بازيل .. بل يمكن أيضا أن تتدخل الفتاة التى احتفت بهم وقدمت لهم الشاى وتتوسط لدى أبيها فى هذا الشأن .. ولا ريب أنها فاعلة ذلك .. فهى فتاة طيبة تشف عيناها عن الرقة ودماثة الخلق . وصفاء السريرة ..

وأما الخادمة (آه وونج) فانها ما كادت تصل بسلة الازهار الى غرفة منعزلة لا يطرقها مستر جريجورى ولا أحد الخدم حتى تبدلت هيئتها تبدلا عجيبا . فقد ألقت بالسلة فى حركة عنيفة . وأغلقت بابى الغرفة كالمحمومة . وجعلت تشير بيديها الى الازهار النضيرة اشارات غريبة كمن يطرد أرواحا شريرة . ثم أسرعت الى النافذة وفتحتها حتى يهب الهواء على الازهار ويحمل شذاها الى الخارج .

ولم تلبث أن جثت على الارض قرب السلة وجعلت تتشمم سيقان الازهار وهى تتأوه .. بيد أنها لم تستطع أن تتبين ان كان فى هذه الهدية حقا سم زعاف خفى يصرع أو يشوه من يشممها أو يلمسها .

وأخيرا جاءت بقضيب من الخيزران وجثت ثانية قرب السلة وراحت تدسه فى حذر شديد وعناية تامة بين سيقان الازهار والحشائش المستقرة فى قاع السلة وهى ترتعد ارتعادا شديدا . فقد كانت تفتش عن أفعى سامة قد تكون رابضة فى السلة . ولم يكن ثمة حد لذعرها واضطرابها . بيد أنها تابعت عملها مدفوعة بعميق اخلاصها نحو السيدة التى عاملتها برفق ولين عاما كاملا . حتى اقتنعت أخيرا بخلو الازهار من أية حشرة مميتة لادغة ..

كانت الازهار تبدو فى ظاهرها خالية من كل شائبة . لكن (آه وونج) ماكانت تتردد فى أن تجود بأنفاسها قبل أن تلمس سيدتها هذه الازهار او تستنشق أريجها .

على أن «آه وونج» كانت فى ضلال تام . فان الازهار بريئة من كل سوء . وما كان (فولى شانج) بالغبى المتخبط .. فهو رجل

اذا جرد مدية قطعت بلا رحمة . لكنها لاتترك أدنى أثر ينم عن (فو) .

ولم تكن (آه وونج) تدرى شيئا عن تفاصيل المأساة التى تمت فى (كولون) . لكنها كانت ترتاب فى الحقيقة . وكانت ظنونها الشيطانية مطابقة للواقع .. ولا غرو فهى صينية ..

الفصل الثانى والعشرون
« آه وونج »

فى منتصف هذه الليلة جلس توماس كاروثر وهيلدا جريجورى فى شرفة تطل على الجزيرة والميناء حيث كانت أنوار السفن تتراقص من خلال الظلام .. وكانا يحاولان بين حين وآخر أن يعللا اختفاء بازيل على هذا النحو الغريب فيخونهما المنطق ويخلدا الى الصمت والتفكير .

وفى الغرفة المجاورة لهما كان روبرت جريجورى وزوجته يفترضان شتى التفسيرات لاختفاء ولدهما ويستنبطان عشرات الخطط للبحث عنه وانقاذه .

والواقع ان الجميع غلبوا على أمرهم بعد طول البحث والتنقيب لا فرق فى ذلك بين النزلاء ورجال الحكومة والموظفين المدنيين كبارا وصغارا ، فقد كان روبرت جريجورى قوة لايستهان بها فى (هونج كونج) وكانت زوجته محبوبة من الجميع .. بل حتى الصينيون أنفسهم ساهموا فى هذا البحث بنصيب ، أو كانوا يتظاهرون بهذه المساهمة .

وأما فى مكاتب شركة الملاحة فى الميناء فقد جلس هولمان ووليام سمسون فى مكتب المدير رغم هذا الوقت المتأخر وراحا يتناقشان فى جد واضطراب .. فكان سمسون يقول :

ــ لا شىء يبدو أسوأ من هذه الحال .

فيجيبه هولمان :

ــ لا شىء حقا .

ــ ان المصائب تنهال من كل جانب .

فلم يملك هولمان الا أن يومىء برأسه ايجابا .

والحق أن مركز الشركة كان يبدو فى غاية الحرج ، ولا سيما فى الاسابيع الاخيرة ، وعلى الاخص فى الايام الماضية .

فان اضراب العمال كان يتوالى بلا هوادة ولا لين ، ولم يكن ينقطع الا ليتجدد .. وكانت المطالبة بزيادة الاجور تنهال فى ظرف عصيب كان على الشركة أن تفى بالتزامات عاجلة ، والا

تعرضت لخسائر فادحة .. فلا تكاد هذه المطالب تجـــاب حتى تستأنف .. وبدا للعيان كأن عمال الشركة قد صمموا على خرابها وهي التي تعولهم وقد أحسنت اليهم ووفتهم أجورهم مضـاعفة أعواما طويلة .

وكان مقررا أن تبحر الباخرة (في شو) في صباح اليوم التالي منتهزة فرصة المد والا استهدفت الشركة لخسائر جسيمة ، ومع ذلك مافتئت العراقيل تقام واحدة تلو الاخرى في سبيل شحنها.

وتوالت على الشركة عشرات الاحداث وعشرات المآزق المالية حتى لاح كأن مصيبة قد حلت بها لاتريم ولا تتزحزح .

وقد بلغ القلق والجزع من نفسي هولمان وسمسون الى حـد العودة الى المكتب بعد ساعات العمل المقررة للمشاورة في هـذا الموقف والتماسا لمخرج من هذه المآزق الغريبة الغامضة ان كان ذلك في وسعهما .

على أن الموقف كان يزداد عسرا وسوءا كلما تناولاه بالبحث والتحليل .. ولم يكن أحدهما يرتاب في أن اختفاء بازيل على هذا النحو الغريب هو عقدة العقد وثالثة الاثافي .. وصحيح أن موارد جريجوري المالية كانت موفورة لاتنضب وسمعته وطيدة لاتتزعزع لكن حادث اختفاء الشاب نال من أعصاب الوالد واشتد تأثيره في نفسه .. ومتى تزايلت أعصاب جريجوري فعلى الشركة العفاء .

ومن أجل هذا الوالد لا الولد الذي كان منصرفا عن الاهتمام بشئون الشركة ومصالحها ، كان هذان الموظفان يتشاوران في الامر لعلهما يهتديان الى منفذ لهذه المشكلات العسيرة .

وفيما كان هؤلاء الستة يتشاورون ويقلبون أوجه الرأى كان شخصان آخران يقوم كلاهما على انفراد بعمل ايجابي .

أحدهما القس جون برادلي الذي خرج في منتصف الليل من بيت صغير بشارع « بو ــ يان » أفقر الاحياء الصينية في الجزيرة حيث قابل شقيا يدعى (سنج يو) كان قد صادقه من قبل وأولاه ثقته ، وعقد معه الآن مساومة جاء الى داره خصيصا لاجلها . وقد وعده (سنج يو) بالبحث ومحاولة الوقوف على الحقيقة وفيما عدا ذلك لم يكن بوسع برادلي الا أن ينتظر ماتتمخض عنه الحوادث.

وكان برادلي ، مثل (آه وونج) لايعرف شيئا ، ولكن كان يرتاب في أمور كثيرة ، وان كان دونها في هذا الصدد .

وكان ، بعكس (آه وونج) ، يعطف على (فولي شانج) ويميل اليه بكليته . ولم يكن يدخر وسعا في عمل أى شيء لدفع الضر عنه لولا انه كان يعلم أن (فولي شانج) رجل محصن لاينال منه شيء .

وبعد أن غادر برادلي دار (سنج يو) بعشر دقائق مر فيطريقه ببيت يختلف في مظهره النظيف عما حوله من البيوت فيهذهالمنطقة الحقيرة .. وكان يملكه عطار صيني ذو سمعة سيئة في كافة أنحاء الامبراطورية الصينية .. فوقف برادلي يتطلع في فضول اليهذه الدار التي سمع عن صاحبها كثيرا ولكنه لم يطرقها من قبل .

كان البيت بريئا في مظهره ، ويحمل طابع الهدوء وطاعة القانون . بيد أن نصف عدد الجرائم التي ترتكب بالسم في الصين كانت تعزى الى هذا البيت ، وان لم يقم دليل واحد على ذلك .

وطالما أغارت سلطات البوليس على المكان بقصد اكتشافالادلة التي تدين صاحبه .. ولكن بلاجدوى .. فلم يكن به سوىأكداس العطور والاعشاب البريئة التي يكتظ بها دكان عطار ، والتي يقف أمامها البوليس مكتوف اليدين .

وفيما كان برادلي واقفا يتطلع الى هـذا البيت الذي يناقض مظهره مخبره ، فتح الباب قليلا وخرجت منه امرأة مغطاة من رأسها الى قدميها برداء أزرق ، تحمل بيدها مصباحا وفقا لاحكام القانون .

ولم ير برادلي وجه المرأة .. بيد أنها رأت وجهه هو في ضوء القمر واستدارت لحظة وهمت أن تتحدث اليه ، بيد أنها شاورت نفسها قليلا وما لبثت أن واصلت سيرها مسرعة .

وراح برادلي يسائل نفسه عن شخصيتها . ولم يخطر له في هذه اللحظة أن هيئتها مألوفة لديه .. بيـد أنه لاحظ أن رداءها الازرق الخشن الذي يدل على أنها خادمة في بيت أحد النزلاء الاجانب ، كان نظيفا كنظافة بيت العطار (يات يونج هاو) .

وعاد برادلي أخيرا الى داره .. كما عادت (آه وونج) الى الفندق خفية . ومرت بالحارس الليلي دون أن يعترضها . فقد كان معها جواز بوليسي يبيح لها الانتقال ليلا .. وقد أجازت لها سيدتها أن تقضي المساء في مهمة خاصة بها .

وما كادت « آه وونج » تصل الى غرفتها حتى أضاءت شمعة وطرحت عنها الرداء الازرق .. وأخرجت من ملابسها الغنيمةالتي جاءت بها من زيارتها للعطار «يات يونج هاو» . وهي ثلاث قنان .

كانت صغرى القناني تحتوي على بضع قطراتمن سائل أخضر اللون .. فجعلت (آه وونج) تتأملها قليلا في رصانة شديدة ،ثم عقدت عليها ملابسها وردتها الى صدرها .

وكانت القنينة الثانية تحتوي على سائل كريه الرائحة سكبته من فورها فوق الازهار والحشائش الموجودة بالسـلة .. وكان

السائل سما مميتا يقضى قضاء عاجلا على العقارب والافاعى ويعطل تأثير السموم الاخرى التى تكون قريبة منه . وذلك ماعلمته من (يات يونج هاو) الذى كانت تثق بكلمته وقد عرفت كيف تنال ثقته .

أما القنينة الثالثة التى كانت أكبر حجما من سابقتيها فكان بها سائل مطهر راحت « آه وونج » تسكبه فى زوايا الحجرة حتى أتت عليه عن آخره .

ثم اشعلت قدرا من البخور وفتحت النوافذ . ولما خرجت من الغرفة أغلقت بابها خلفها باحكام . وجلست فى الخارج انتظارا لسيدتها اذ قد بزغ الفجر وبدت تباشير الصباح .. وقد عولت (آه وونج) على الا تدع أحدا يجتاز عتبة هذه الغرفة حتى يتم اعدام الازهار المجلوبة من (كولون) . وكانت قد حصلت على اذن سيدتها باعدامها عن آخرها .

جلست (آه وونج) فى المشى متعبة مكدودة .. بيد أنها كانت راضية قريرة العين بما اتمت من عمل هذه الليلة . رغم انها تركت لدى العطار كل ما كانت تملك من حلى وما جمعته فى حياتها من مال .

فيا له من وفاء !.

الفصل الثالث والعشرون

فى قبضة الجمعيات السرية

جاء اليوم التالى .. ولم يرد نبأ جديد عن بازيل .. وزاد مركز (شركة الملاحة) سوءا على سوء ..

وجلس هولمان فى مكتب الشركة يطالع للمرة الرابعة برقية بيده وهو يتميز غيظا .. ثم تطلع فى تبرم الى كاتب صينى جاء فى هذه اللحظة .. وسأله :

ـ ماذا بعد ؟.

ـ الحمالون مضربون .. يطالبون بزيادة الاجور .

فقال هولمان بعنف وهو يدس البرقية فى جيبه :

ـ ادع المتعهد .

فخرج الكاتب لتنفيذ الامر .

وكان توماس كاروثر واقفا قرب النافذة يراقب جموع الحمالين الذين كانوا فى حركة دائمة وعجيج مستمر .. فما كاد الكاتب الصينى يخرج حتى التفت الى هولمان قائلا :

ـ ما هذا يا هولمان ؟. مطالبة بزيادة الأجور للمرة الثالثة في يوم واحد .

فقال هولمان وهو يدفع احد المجلدات بعنف :

ـ ذلك ما أعنى به ايها الشاب وابحث عن معناه .

وجاء المتعهد بعد قليل .. وكان رجلا صينيا متوسط العمر ظاهر النشاط .. ووقف لحظة ينتظر ان يبادره هولمان بالكلام .. فقال هذا بعد ان تفرس فيه بعينيه الزرقاوين المليئتين دهاء :

ـ اسمع ايها المتعهد .. ماذا أصاب حماليك الان ؟ .. لم اضربوا مرة أخرى ؟ .. وكيف تركتهم يضربون وانت تعلم اننا تأخرنا في شحن الباخرة (في شو) حتى الان ، وانها لن تدرك المد اذا زاد التأخير ، وانه لابد ان تدركه بأى ثمن ؟؟ ..

فأمن المتعهد على هذا القول بلهجة تشف عن الكآبة :

ـ انهم يغلطون كثيرا .. وقد قرروا الاضراب حقا ..

فهتف توماس كاروثر :

ـ اضراب ! .. اضراب في أثناء الشحن ! .. قل لهؤلاء الملاعين ..

لكن هولمان قاطعه بحدة :

ـ صه يا مستر كاروثر !.. دع هذا الأمر لى .. والان ما هو سبب الاضراب أيها المتعهد ؟ .. تكلم ! .. قل ما عندك ! .

فأجاب المتعهد في وداعة :

ـ أن الحمالين يحبون العمل .. لكنهم يقولون انهم بغير الاجور الكافية لا يستطيعون ان يجدو الطعام الكافي .. وهم يطالبون بزيادة الاجور ..

فقال هولمان بايجاز :

ـ كما تشاء اذن ..

فقاطعه كاروثر بانفعال :

ـ ما هذا ؟..

بيد ان هولمان لم يعبأ به .. بل التفت الى الصيني واستطرد :

ـ قل لهم انهم سينالون ضعف الاجور اذا تم الشحن في الوقت المحدد ..

فقال المتعهد :

ـ لا بأس ..

وانصرف متمهلا ..

أما هولمان فقد سار الى النافذة في اعياء .. ورأى المتعهد يتوسط الحمالين ويتحدث اليهم . وما لبث هديرهم أن خف

وانصرفوا الى العمل وخيل الى هولمان انهم يفعلون ذلك مكرهين، وبدت لعينيه الامور متفاقمة . بل شديدة التفاقم .
وقال له كاروثر فى تبرم :

ـ هل لى يا هولمان !. الا ترى اننا نستسلم لهؤلاء الناس؟»
كان هولمان ضيق الصدر شديد السخط من تأثير هذه الاحداث المتلاحقة .. فما كاد يسمع كلمات كاروثر حتى استشاط غضبا وصاح قائلا :
ـ اسمع يا مستر كاروثر .. اذا تدخلت أنت او غيرك بعد الان فانى استقيل فورا !. فهمت ؟. انى كنت رئيسا لهذا الفرع أعواما طويلة حتى بدأ لمديرنا أن يحل فى هذا المنصب .. وهو فى الواقع شخص منقطع النظير فى كفاءته وخبرته . ويشرفنى أن أعمل تحت امرته .. لكن الامور انقلبت رأسا على عقب فى الاسابيع الاخيرة . ونحن ازاء متاعب هائلة لا تحلم بها انت ولا المدير نفسه وانا باذل أقصى جهدى لمعالجة الموقف .. ولكنى اقسم ..
فقاطعه كاروثر بلهجة الاسف :
ـ يؤسفنى أن اكدرك أيها الصديق . لكن صدقنى أن هذه الكوارث المتلاحقة قد أثارت سخطى .
عملت هذه الكلمات على تسكين هولمان . فهدأت ثائرته . وقال وهو يخرج البرقية من جيبه :
ـ لا بأس .. انى لا اجد شجاعة لعرض هذه البرقية على مستر جريجورى . فهى كبرى المصائب .

وبسط هولمان البرقية فوق المكتب ، ودعا كاروثر لقراءتها . فدنا الشاب منه . وما كاد يلقى عليها نظرة حتى هتف :
ـ رحماك يا ربى « فايما » غرقت !
فقال هولمان بمرارة :
ـ نعم . أكبر وافخم بواخر الشركة .. فقد تمرد عمالها، ثم ثقبوا قاعها وفروا فى القوارب ..
ـ ان هذا النبأ سيقتل مستر جريجورى !.
فأومأ هولمان برأسه . ثم لطم مجلدا بقبضة يده غضبا وقال :
ـ ثم انظر الى هذا .. هل تعرف شيئا عن الخزائن الحديدية ؟..
ـ الى حد ما ..
ـ اذن فاعلم ان خزانتنا هى أمتن الخزائن وأحكمها . ولو

اراد لصوص أن يعالجوا فتحها لاستغرقوا أسبوعا . لكن هـذا المجلد قد أخرج من تلك الخزانة فى احدى ليالى الاسبوع الماضى أو الاسبوع الاسبق .. وانتزعت منه الصفحة المتضمنة تفاصيل المفاوضات التى دارت لشراء الرصيف الجديد . وقد تم انتزاعها بعناية فائقة حتى لتعجز عن معرفة ضياعها الا اذا فطنت الى النقص فى الارقام المسلسلة .. وأعيد المجلد الى مكانه وأغلقت الخزانة دون أن يبقى أدنى دليل يرشد الى ما حدث ..

ــ لا عجب اذن اذا كنا فشلنا فى شراء أرض الرصيف !. كان هناك من يعرف السعر الذى تقدمنا به !.

فاطبق هولمان المجلد بحركة عنيفة وقال :

ــ بل قل ان هناك من وضع الحبل حول أعناقنا .. وهو يضيق علينا الخناق كل يوم بل كل ساعة .

ــ انى لعاجز عن فهم الحقيقة يا هولمان !..

فنهض هولمان ووضع يده على منكبى كاروثر وقال له :

ــ لعلك لا تصدق لحظة واحدة يا مستر كاروثر ان هـذه الكوارث المتلاحقة المروعة هى وليدة الصدفة ؟. هناك البواخر المغرقة .. والارصفة المحرقة . والاضراب فى الميناء .. والتمرد فى عرض البحر . وفوق كل هذا .. اختفاء مستر بازيل !.

ــ لست أدرى ماذا افهم من كل هـذا !. ما معنى ذلك يا هولمان ؟. يخيل الى انها لعنة حلت على الشركة ، ولن تتزحزح عنها !.

فعاد هولمان الى الجلوس متثاقلا .. وقال :

ــ انت موضع ثقة مستر جريجورى واسرته فى خارج دائرة العمل .. واحب أن اوجه اليك سؤالا صريحا .

ــ ما هو ؟..

ــ هل تعرف شيئا معينا ، ولو تافهـا ، صـدر من مستر جريجورى وأساء به الى (فولى شانج) ؟ .

ــ نعم .. أو مستر (فو) كما يدعوه الاوربيون .

فقال توماس بلهجة الجزم :

ــ كلا .. كلا اطلاقا .. بل أكثر من ذلك اننا زرنا بيتـه يوم الخميس الماضى .. وأنت تعرف ان بازيل شوهد هنـاك قبل المرة الاخيرة ، اعنى حين شوهد هنا فى الجزيرة بعـد ذلك فى المساء برفقة اثنين من الاوربيين .

فابتسم هولمان متبرما وقال :

ـ ومن شاهده ؟
ـ هؤلاء الصينيون الذين شهدوا بذلك، فى المحافظة .
فقال هولمان مزمجرا :
ـ ألم يتطوعوا باداء هذه الشهادة ؟.. أو لم يذهبوا الى المحافظ رأسا ولم يدلوا بشهادتهم للبوليس وفقا للمألوف ..؟
ـ هو ذاك ..
ـ ان هؤلاء الصينيين لم يروا بازيل جريجورى .
فوثب كاروثر دهشة وقال :
ـ ماذا ؟.
فقال هولمان فى يقين :
ـ ثق أن مستر جريجورى قد أساء الى (فولى شانج)على وجه من الوجوه .. ولن تمر هذه الاساءة بسلام .

فبدت على وجه كاروثر دلائل الحيرة وقال :
ـ ومن يكون هذا المدعو (فولى شانج) ؟. وما هى قوته ؟
فاجاب هولمان :
ـ انى أقمت هنا عشرين سنة .. وكنت احرص فى هـذه المدة على البعد عن رجل واحد فى دائرة العمل وفى خارجها .. وهو رجل ذو شخصية قوية ، يمتلك ثروة لا حصر لها متغلغلة فى كافة المشروعات الكبيرة فى (هونج كونج) ، ويظفر بنفوذ جهنمى لا يمكننا معشر الاوروبيين تقديره وتحديد مداه .. ليس مستر « فو » بالذى ينازله الانسان ويتحداه .. وما ذلك فى طاقة أحد من الاوروبيين .. ولم يتغلب عليه سوى رجل واحد من أبنـاء جلدته .. لكن ذلك لم يدم الا قليلا فانه قد اختفى على الاثر .
ـ تعنى ..
ـ النهاية الوحيدة التى يعرفها مستر « فو » !.
فقال كاروثر :
ـ لكن كيف استوجب مستر جريجورى سخط هذا الرجل؟

ابدى هولمان اشارة تدل على قصوره عن معرفة الجواب..
بيد أنه استطرد دون ان ينزل عن تشبثه :

ـ هذه حقيقة لا ريب فيها .. ان الصينيين يبدون جميعا متشابهين فى نظرك .. لكنهم ليسوا كـذلك فى نظرى .. وقـد رأيت أشخاصا أعرف انهم من رجال « فو » يندمجون بين عمالنا منذ أيام .. وهناك الان اثنان منهم بين الحمالين على الرصيف، وربما أكثر .. واعلم علم اليقين أن كثيرين من هؤلاء سـافروا

على ظهر الباخرة المغرقة « فايما » وكلّ واحد منهم مندمج فى عضوية (الجمعيات السرية) المختلفة .
ـ (الجمعيات السرية) ؟.

ـ نعم . القوة الرهيبة فى الصين . بل أعظم قوة فيها على الاطلاق والامبراطورة (تسى شى) ترهبها وتخاف بأسها .. وفى كل ولاية جمعيتـــان أو ثلاث .. وفى بعضـــها اكثر من ذلك .. وصديقنا (فو) هو زعيمها النافذ الكلمة المطلق السلطان..وأقرر لك يا مستر كاروثر اننا اذا لم نصل الى الحقيقة فى هذا الموقف فلن تبقى للشركة خشبة واحدة فى الصين ، ولن تملك سفينةترفع رايتها فى البحار ..
فقال الشاب فى نشاط :
ـ لا بأس أيها الصديق . ليس مستر جريجورى بالطفـل الساذج . انه سيلقن هذا السيد اللعين زب الجمعيات والدسائس درسا لن ينساه . وسنتفكه بمشاهدة ما يدور . لكنك قد تكون بعيدا عن الصواب فى هذا الشأن . على اننا اذا سلمنا جدلا بأن مستر جريجورى قد داس على ذنب هذا الذئب الصينى لسبب ما ، فما الذى يحمله على نيل ثأره من بازيل ؟..

كان هولمان رجلا ذكيا . وكان يرتاب فى الحقيقة .. بيد انه هز كتفيه . وتحاشى الجواب قائلا :
ـ لو أقمت فى الصين كما أقمت فيها لعرفت من طرائقهم ودوافعهم مثلما اتيح لى ان اعرف ..

الفصل الرابع والعشرون

من سيء الى أسوأ

تحرج مركز شركة الملاحة . وزاد موقفها سوءا وتعقدا .
فحوالى الساعة الحادية عشرة ضبط احد العمال حاملا الى داخل الباخرة (فى شو) علبة من زيت البارافين بدعوى انها علبة شاى .. ولم يمكن ان تنتزع منه كلمة واحدة لمعرفة الدوافـع التى حملته على ذلك او الاشخاص الذين حرضوه على هذا العمل .. ولم يجد معه الوعد ولا الوعيد لاستدراجه الى الكلام .. ولم يكن أمام هولمان وقت لذلك .. فقد كان عليه أن يتفرغ بكل ما أوتى من جهد وحيلة لمواجهة اسوأ موقف مر بالشركة فى تاريخها .. ولم يكن بد من ان تدرك الباخرة المد فى شنغهاى باى حـال من الاحوال .. ومع ذلك كان من المحتم ان تفتش الباخرةويفتش

البحارة تفتيشا دقيقا .. فقد ضبطت علبة من زيت البارافين وهى تهرب الى داخل الباخرة .. ومن يدرى لعل عشرات مثلها قد حملت الى داخلها خلسة واخفيت بين أكداس البضائع والمشحونات ..

كان الموقف باعثا على أشد الغضب .. على أن هولمان واجهه بهدوء وحزم .. ونشط الموظفون الاوربيون العاملون معه الى معاونته معاونة صادقة والعمل على دفع الكارثة قبل حلولها. وكانوا واثقين ان كل كائد سينال جزاءه العادل متى أحكم هولمان التدبير وانفسح أمامه الوقت للعمل .. ولكن ليس قبل ذلك .

على ان هولمان تهور مرة واحدة .. فانه بعد أن تم تفتيش الباخرة تفتيشا دقيقا اضرب العمال مرة أخرى أثناء اعادة الشحن .. وأدرك هولمان وتوماس ان الكيل قد طفح ولم يبق فى قوس الصبر منزع .

والواقع ان توماس كاد يفقد صوابه غضبا .. وقال هولمان حانقا :

ــ ان العمال لم يسلكوا من قبل مثل هذا المسلك !. فماذا اصابهم بحق الشيطان ؟. وما معنى هذا ؟.

فاجابه المتعهد بلهجة تشف عن المراوغة :

ــ لا ادرى .. لكن ماداموا لا ينالون أجورا كافية فلا يستطيعون العمل ..

عند ذلك فقد هولمان كل سيطرة على اعصابه ، وصاح فى صوت قاصف كالرعد :

ــ انهم يعملون بايعاز من (فولى شانج) !! أليس كذلك ؟

وما كاد هولمان يفوه بهذه العبارة حتى ندم على صدورها منه . اذ لمعت عينا المتعهد غدرا وغلا . وبدر من شفتيه فحيح خافت كالافعى الفاتكة .. على أنه سرعان ما تمالك جأشه وقال فى وداعة ورقة :

ــ لا ادرى .. انهم يطالبون بزيادة الاجور .. والا امتنعوا عن العمل .

فتغلب هولمان على نفسه وقال بهدوء :

ــ اتم شحن الباخرة .. وستدفع اجور ثلاثة أيام .. فهمت ؟.

ــ تماما ..

وما كاد المتعهد ينسحب حتى هرع موراى رئيس الحسابات الى داخل الغرفة ، وقال فى لهجة تشف عن القلق :

ـ فهمت منك يا مستر هولمان انه قد تم التفاهم مع البنك على الترخيص بصرف شيك بمبلغ يجاوز مالنا من رصيد فيه ثمنا للارصفة الجديدة .. وقد حررت الشيك على هذا الاعتبار

ـ هو ذاك . وقد تحدد اليوم موعدا لتسلم الارصفة الجديدة .

فقال موراى بلهجة القنوط :

ـ لابد ان فى الامر خطأ يا سيدى . فان البنك ابلغ قلم حسابات الشركة انه يستحيل أن يرخص بمثل هذا الشيك .

ـ وما السبب ؟.

ـ لقد كتبوا لنا أن ضمانتنا غير كافية . وطالبونا فوق ذلك باخلاء المبانى الحالية فورا .

فوثب كاروثر من مكانه كأنما لدغته افعى . وهتف :

ـ ماذا ؟.

فاردف موراى :

ـ لان صاحب المباني تعاقد مع اخرين .

وتهالك موراى فوق احد المقاعد اعياء .. فقال كاروثربلهجة محزنة :

ـ وماذا تم فى عقد الايجار الحالي ؟.

فاجاب هولمان فى لهجة السخط :

ـ انتهى أجله فى شهر مارس . ونحن مقيمون هنابمقتضى عقود ايجار شهرية . وقد كنت احسبك تعرف هذه المسألةالتى لا يجهلها أحد .. وكنا ننتظر أن ننتقل الى المكاتب الجديدة التي تعاقدت الشركة على شرائها .

واردف هولمان بلهجة مرة وهو يتهالك فى أحد المقاعد :

ـ لقد طار السقف عن رءوسنا !.

تطلع توماس مستاء الى هولمان ، ثم دنا من موراى وقال له :

ـ اخبرنى ما هو المبلغ اللازم ؟ .. سيسوى الموضوع كما يجب ، سأبرق الى والدى ؟.

فقال رئيس الحسابات فى اسف :

ـ أخشى أنه لم تبق فائدة . والموقف يتلخص فى هذه الكلمات .. ان شركة (وانج هى) ترفض ان تتفاوض معنا ، وكبار المساهمين فى هذه الشركة وهم من الصينيين يهددونها بسحب اموالهم منها اذا تمت بينها وبيننا معاملات من أى لون كانت .

فلم يتمالك كاروثر حين سمع هذا الجواب ان صفر صفيرا حادا ذا مغزى .. بينما قال هولمان بجفاء :

ـ هذا هو الواقع .
فقال كاروثر :
ـ لكن .. لكن لابد من عمل شيء!.. لا يمكن ان نجلس هنا ونترك السفينة تغرق !.. فما العمل ؟.. ما العمل ؟.
فاه كاروثر بهذه الجملة وهو يتطلع الى صورة للانسة هيلدا موضوعة فى اطار انيق فوق مكتب والدها .. بيد انهما لم يعيرا سؤاله اهتماما .. فقد عز عليهما الجواب .

الفصل الخامس والعشرون

الحيرة

جلس الثلاثة بضع دقائق مستسلمين للغم والوجوم ... وبعد قليل فتح الخادم باب الغرفة باحترام .. فكان ذلك ايذانا بحضور مستر جريجورى .. وسرعان ما نهض موراى وانسل من الغرفة فى هدوء بينما اقبل المدير يسير متمهلا .

جلس جريجورى فى مكتبه تبدو عليه امارات التضعضع والاعياء . ومع انه كان رجلا شديد الجلد قوى الشكيمة وقد شق طريقه فى الحياة بعزيمة غلابة وارادة صلبة حتي بلغ بجده هذه المكانة الكبيرة ، فان الكوارث التى انهالت على الشركة قد فلت عزمه وزعزعت ثباته ، وكان أشدها تأثيرا فى نفسه اختفاء ولده وعجزه عن العثور عليه .

وقد تطلع جريجورى الى هولمان بنظرات تشف عن مبلغ شعوره بهذا الكرب الذى يلاحقه ويأخذ بخناقه . وان كان مع ذلك قد وطد العزم على المناضلة حتى النهاية .. فتناول هولمان البرقية من جيبه ومال بها فوق مكتب المدير بحركة تدل على الانفعال . . وقال :

ـ مستر جريجورى .. ان الباخرة (فايما) ..
بيد انه لم يتم جملته . وقال جريجورى بلهجة عرجاء :
ـ آه . نعم .. عرفت . عرفت .
فقال توماس كاروثر :
ـ انى لشديد الاسف لاجل هذا الموقف يا مسترجريجورى
فدار جريجورى فى مقعده بحركة فجائية ولطم المكتب بقبضة يده وهتف :
ـ اقسم بالله انى سأجعل احدهم يكفر عن هذا !. لكن من هو ومن ذا الذى نقاتله ؟. الا تظن يا هولمان ان هذا من فعل الرجل المدعو (فو) ؟..

فاجاب هولمان فى جد وهو ينحنى فوق المكتب :

ــ لست أظن يا مستر جريجورى . بل انا واثق .. لابد أننا اصطدمنا بشكل ما مع أقوى رجل فى الصين كلها ..

فقال جريجورى :

ــ لا بأس . انى عامل على اختبار نظريتك يا هولمان .. وقد استدعيت هذا الصينى اللعين الى هنا .

فما كاد هولمان يسمع هذا النبأ حتى اشتد ذهوله ، بينما استطرد جريجورى :

ــ لقد ارسلت اليه من النادى فى هذا الصباح رقعة اخبرته فيها انى احب أن اقابله هناك فى الساعة الثانية لامر على جانب عظيم من الاهمية .

فهز هولمان رأسه وقال :

ــ صدقنى يا سيدى ان (فولى شانج) ليس بالرجل الذى يقبل ان يزور أى انسان . فعلى الغير أن يسعى اليه .

فقال جريجورى بحدة :

ــ أحقا ؟.

فقال توماس باهتمام :

ــ وهل قابلته فى الساعة الثانية ؟.

ــ كلا يا توماس . لقد بعث الى برقعة مع أحد الخدم قرر فيها انه سيزورنى هنا فى الساعة الثالثة ، الا اذا كان ذلك يضايقنى فتأمل كلامه !. وقد جئت من النادى مسرعا لمقابلته .

فقال هولمان وقد اشتد قلقه :

ــ ان مجرد تنزل (فو) بقبول مثل هذه الدعوة يؤيد رأيى أقرر لك انه لا يناقش فى أى موضوع خارج مكتبه .. على الإطلاق واذا هو خرج مرة عن هذه القاعدة فلابد من سبب مروع يحمله على ذلك !. سبب جهنمى مشئوم !.

فقال توماس بعد أن فحص الرقعة التى جاء بها جريجورى :

ــ ما أعجب هــــذا الخط الذى يدل على ثقافة صــاحبه وتضلعه فى شئون العمل !.

فقال هولمان متبرما :

ــ آه . انه شخص تام التفوق علينا . فهو قد ظفر بكافة مزايا الثقافة الغربية دون ان يفقد ذرة من دهائه الشرقى .

فابتسم جريجورى ابتسامة كريهة وقال :

ــ لا بأس . قد تكون مصيبا فى هذا القول يا هولمان .. لكن يبدو لى انك تخاف هؤلاء الصينيين .

فغمغم هولمان :

ــ بل أخاف واحدا منهم فقط .. وقد عشت هنا عشرين عاما .

ــ لا موجب لهذا الخوف .. واعتقد انى قادر على مواجهة هذا الشخص متى جاء .. وسيجىء حقا .! ما فى ذلك ريب ».

فقال هولمان :

ــ من يدرى ؟.

ــ بل سيجىء .. وسيجىء مزهوا كالديك .. يا للشيطان!

فاه جريجورى بهذه الكلمة فجأة حين سمع حفيف ثياب ورأى زوجته وابنته تدخلان عليهم .. ثم أردف فى نبرات لاتخلو من استياء :

ــ انى اخبرتكم الا تغادروا الفندق .

فقالت هيلدا برقة وهى تجلس على طرف المكتب وتربت بيدها على كتفه :

ــ صحيح .. لكن امى لا تستطيع الاستقرار .. وكيف تستطيع ؟. وهى اذا لم تكن تطوف بانحاء الجزيرة فهى تفتش فى الارض الصينية مع (آه وونج) .

فقال الزوج مخاطبا زوجته التى تهالكت فى احد المقاعد مكدودة متعبة :

ــ انك تسرفين فى اجهاد نفسك .

فابتسمت الام ازدراء للاجهاد الذى نال منها :

ــ لا فائدة من هذا الكلام .. لا يمكن ان استريح .. هل علمت شيئا جديدا ؟. ذلك ما جئت لاجله .

ــ لا جديد يا عزيزتى .. انى قابلت المحافظ مرة اخرى وقد تلطف معى كثيرا .. وهو لا يألوا جهدا فى عمل كل شىء ممكن .. ومن البلاهة أن تستمرى فى اجهاد نفسك على هذا النحو .

فقالت فى تبرم :

ــ لست اجهد نفسى .. وانما الذى ينال منى هو هذه الحيرة التى تشملنا وليس من يهتم مثقال ذرة !.

فقال الزوج فى رقة :

ــ انى اقدر شعورك يا عزيزتى .. وأعرف ما تقاسينه. لكن حاولى ان ترحمى نفسك قليلا لأجلى .. وثقى أننا نفعل كل ممكن .. وهذا . وهذا شأن يعالجه الرجل وحده ».

فقالت فى تبلد

ــ أحقا ؟. لا أدرى . لا أدرى .

واطبقت عينيها ومالت الى الخلف فى هذا المقعد الكبير وهى ترتعد انفعالا وقد ذهبت فريسة الاعياء القاتل .

وسارعت (آه وونج) اليها ووقفت قربهــا .. ولما رفعت رأسها متململة مدت الخادمة يدها ووضعتها بين رأســها وبين حافة المقعد الصلب حتى تستند اليها .

وراح الزوج ينظر الى زوجته مشفقا متألمــا .. وخيم فوق الغرفة صمت لم يكن يعكره سوى ضجيج الحمالين صادرا من رصيف الميناء .. ولما دقت الساعة مؤذنة بالثالثـــة انتفض جريجورى وقال لزوجته برقة :

ــ فلورنس .

فاجابت فى لهجة محزنة دون أن تفتح عينيها :

ــ نعم ؟.

فتنهد الزوج ألما . وقال :

ــ ارى يا عزيزتى انه لا مفر من انصرافك .

فقالت بغير اكتراث دون ان تتحرك من مكانها :

ــ ولم ؟.

ــ ان عندى موعدا فى الساعة الثالثة .. قد تكون له أهميــة خاصة .

ــ مع من ؟..

ــ انى انتظر مستر (فو) هنا ..

وما كاد جريجورى يفوه بالكلمة الاخيرة حتى اعتدلت الزوجة فى مجلسها وفتحت عينيها ودب النشاط فى كيانها .. وهمست فى لهفة :

ــ مستر (فو) ؟..

ــ نعم ..

ــ بشأن بازيل ؟..

فأجاب جريجورى بلهجة تنذر بالشر :

ــ بشأن مسائل متعددة .. وعلى الأخص بازيل ..

ــ آه !.. وهل تظن أنه يستطيع ان يساعدنا ؟..

فأجاب هولمان بلهجة صارمة :

ـ فى وسعه ان يساعدنا مساعدة فعالة اذا اراد ..
فقالت بصوت أجش :
ـ اذن لابد أن يفعل !.. وسيفعل !..
وفى هذه اللحظة صدرت ضجة مختلفة من الخارج .. وقال هولمان :
ـ مهما يكن فانه قادم ..
وما كاد يتم هذه الجملة حتى جاء موراى حاملا بطاقتى زيارة .. احداهما مستطيلة قرمزية نقش عليها اسم النبيل الصينى بحروف سوداء باللغة الصينية .. والثانية بطاقة عادية كتب عليها بالانجليزية « مستر فو » ..
وقال موراى مخاطبا مخدومه :
ـ انه ينزل من مركبته يا سيدى ..
وقال هولمان مزمجرا وهو ينظر من النافذة :
ـ وجميع العمال يركعون أمامه كأنه اله ..
فنهض جريجورى من مقعده وقد حرص على أن يظهر فى مظهر الهادىء ، وقال منتعشا :
ـ حسنا .. سنعرف عما قليل من اى طينة خلق هذا الصينى المزهو بنفسه .. أدخله يا موراى .. وانت يا هولمان رافق زوجتى الى الغرفة المجاورة لقلم الحسابات . فانه يهمها أن تبقى للوقوف على النتيجة بالطبع . والآن أرجو أن تخرجوا جميعا .
واتجه الجميع الى الباب الثانى الكائن فى اقصى الغرفة ، الا فلورنس جريجورى فقد دنت من زوجها وهمت بالكلام قائلة :
ـ روبرت ..
بيد أن الكلمات خانتها .. ودارت الدنيا أمام عينيها .
فتناول الزوج وجهها بين راحتيه . وقال لها بلهجة رقيقة :
ـ انى أعرف يا عزيزتى ما تريدين ، وأفهم قصدك .. سيكون كل شيء على ما يرام .. وسألزم الحذر . (آه وونج) !
لكن الخادمة كانت أسرع منه .. وبسطت يدها لسيدتها .. فاتكأت عليها ورافقتها الى الخارج .

الفصل السادس والعشرون

بدء النضال

ما كاد هولمان يصل الى الباب حتى دار على عقبيه وواجه جريجورى وقال له فى حدة :

ـ سيدى !.

آنس جريجورى فى نبرات هولمان دلائل الرجاء والأمر معا .. فتقبلهما من هذا المرءوس الوفى ، وقال له :

ـ نعم ..؟

فقال هولمان بلهجة الجد :

ـ كن على حذر مع هذا الرجل ..

فأومأ جريجورى برأسه ايجابا .. وما كاد هولمان يتجه الى الغرفة المجاورة حيث كان توماس واقفا فى مدخلها حتى فتح الباب الأمامى وأعلن موراى حضور الزائر قائلا :

ـ مستر (فو) يا سيدى .

فقال جريجورى بغير اكتراث :

ـ آه .. ادخله .

وبهذه اللهجة ارتكب الغلطة الاولى فى هذه المبارزة .. فعقد هولمان حاجبيه استياء ، وأرسلت الزوجة الى زوجها نظرة تشف عن الاستعطاف .. بيد أنه تجاهلهما . وتشاغل بالاوراق التى أمامه .. وتظاهر بالانهماك فى الكتابة .. بل اسرف فى ذلك.

ووقف النبيل الصينى فى مدخل الغرفة مرتديا سترةصيفية خفيفة تلوح عليه دلائل الوقار والهدوء ، وقد خلت ملامح وجهه من آثار هذه المأساة المروعة التى كان ضحيتها .

ولم تتمالك الأم وابنتها وهما واقفتان فى مدخل الغرفة المجاورة المفتوح بابها ان استدارتا لالقاء نظرة عليه .. فانحنى يحييهما بهدوء . وتلاقت عينا الام بعينيه ، فآنست فى نظراته الهادئة ما اقلقها .. ودارت على عقبيها ثانية لكى تدلف الى الغرفة المجاورة ، بيد انها لم تتمالك ان ادارت رأسها مرة أخرى ونظرت اليه وكأن قوة مغناطيسية تجذبها . فابتسم (فو) وكرر انحناءه أمامها .. فدلفت الى داخل الغرفة الثانية فى شىء من العجلة ، وتبعها الباقون . بيد ان (آه وونج) صوبت نظرها الى النبيل العظيم عامدة متمهلة ، وهو ما يستغرب من امرأة صينية فى طبقتها ، وسرعان ما طالعت فى ثنايا وجهه سطور الفاجعة الخفية ..

ولم ينبس احدهما ببنت شفة . بينما كانت الســـاعة تدق بانتظام .
أغلق موراى الباب الامامى . وأغلق هولمان الباب الخلفى .، وبقى المتبارزان وحدهما . دون شهود .
واستمر جريجورى متشاغلا بالكتابة . فجعل (فو) يراقبه وعلى محياه ابتسامة يسيرة تشف عن الازدراء . ثم ابدى نحوه اشارة خفيفة لم يرها الانجليزى ولكنه أحسها وأطاعها ،فتململ فى مقعده ، ثم قال وهو يكتب ، دون أن يرفع رأسه :

ـ اجلس يا (فو) .
فازدادت الابتسامة على وجه الصينى استعراضا . وقال :
ـ عفوا يا مستر جريجورى ؟.
انتفض جريجورى برغمه حين سمع نبرات صوت الصــينى وآنس فيها من قوة الشخصية وشدة العارضة ما لم يكن يتوقع .. على انه لم يكن يسعه الا ان يواصل مسلكه . ولذا كرر قوله السالف .
ـ اجلس يا (فو) .
فقال الصينى فى لهجة ناعمة :
ـ افضل الا يخاطبنى مستر جريجورى باسم (فو) . بل باسم مستر (فو) .
رفع جريجورى رأسه بحدة . على انه ما كاد ينظر الى الزائر حتى نهض فى مكانه وقد تزايلت ثقته بنفسه . فانه لم ير «فو» من قبل .. وقد بوغت حين رأى بزته وقوامه النحيل الضــليع وهيئة التسود والتسلط البادية عليه . وساوره خوف من هــذا الرجل بعد هذه النظرة الاولى .. وسرى الى نفسه تأثير جاذبيته المغناطيسية .. بينما استطرد الصينى :

ـ .. والا اضــــطررت لمناداة مستر جريجــــــورى باسم جريجورى فقط .. ردا للشرف الذى اسبغه على برفع الكلفــة بيننا ، وان كنت اظن ان تعارفنا لم يبلغ بعد هذا المبلغ .
احس جريجورى وخز هذه اللطمة .. بيد أنه قال :
ـ آه ! .. انا رجل كثير المشاغل .
فقال « فو » :

ـ هو ذاك .. لكنك لن تضيع سوى جزء من ثانية .. فان اسم «فو» من القصر بحيث يمكنك ان تقول« مستر فو » قبــل ان افرغ انا من قول « جريجورى » .

فاه الصينى بهذه الجملة فى نعومة لا تخلو من وعيد خفى ..
فلم يتمالك جريجورى أن قال فى قلق :
ــ آه !.. اجلس .
فقال (فو) بلهجة عذبة :
ــ شكرا لك ..
ووضع «فو» قبعته فوق المكتب .. وجلس .
وبقى جريجورى واقفا فى مكانه يعبث بالاوراق التى أمامه..
ثم قال فى شىء من التسلط :
ــ والآن يا مستر «فو» .. انى لم اقعود مثل هذه المجاملات التى هى مضيعة للوقت ..
فقال (فو) فى نبرات لا تخلو من ازدراء ، لم يفطن اليهـــا الانجليزى :
ــ هو ذاك ..
ــ ولذلك ، اذا كنت جافا ، فلأنى اقصد مباشرة الى العمل
فقال النبيل الصينى فى عجب :
ــ العمل !.. آه !.. انى جعلت اتســاءل عن سبب تشريفى بهذه الدعوة التى جاءت على عجل كما اعتقد .. لكن ذلك كــان بقصد كسب الوقت بلا ريب .. وعلى أى حال ، اذا كانت الدعوة متعلقة بالعمل ..
فقاطعه جريجورى وقد اشتد استياؤه وتبرمه :
ــ اذا افهمتك ذلك من أول الأمر ، فلكى تكون على بينة .. اليس كذلك ؟.
فقال (فو) وهو يبتسم ابتسامة يسيرة :
ــ رويدك !.. عفوا .. لكنى لا أحب أن ابقى جالسا وانت
فقال جريجورى بخشونة :
ــ لا تهتم بى .
فاجاب فو ببساطة :
ــ لست اهتم .. لكن مع ذلك ..
فقال جريجورى فى استياء متزايد :
ــ احسب انه يجوز للانسان ان يفعل ما يحلو له فى مكتبه .
فاجاب (فو) بلهجة عذبة :
ــ تماما .. متى كان وحده .
ــ اذن ، فسأبقى واقفا ، اذا لم تمانع .
فقال «فو» برزانة وهو ينهض :

ـ العفو .. فى هذه الحالة سنقف كلانا .

ووقف الرجلان متواجهين .. يتفرس احدهما فى صاحبه .. فاما «فو» فقد وقف فى أدب تعلو فمه ابتسامة يسيرة باردة .. واما جريجورى فقد أخرج سيجارة واشعلها وامتص منها نفسا ثم القاها على الارض وداسها بقدمه .. بينما راح « فو » ينتظره صابرا ويراقبه فى شيء من التفكه .

ثم استطرد « فو » :

ـ والواقع يا مستر جريجورى ان لى ملاحظاتى الخاصة .. فانى اشتم من وقوفك وانا جالس ، لا معنى الترحيب والاكرام، ولكن فكرة الترفع والتسلط .

أخذت مراجل الغضب تغلى فى نفس جريجورى .. بيد انه تمالك اعصابه . فقد وعد هولمان وزوجته أن يعمل بنصحهما .. وكان يريد أن يلتمس أثرا لولده . ولذا قال وهو يشير الى مقعد :

ـ ارجو ان تجلس يا مستر (فو) .

ولم يفت (فو) معنى التهكم الذى اقترن بالهجة جريجورى وانحنائه له .. بيد أنه رد التحية فى رصانة ، وجلس وهو يقول:

ـ شكرا لك ..

وجلس جريجورى كذلك وقد حزت فى نفسه هذه الهزيمة الأولى لكنه كان حرا فى الجلوس على الوضع الذى يشاء . ولذا وضع مرفقيه فوق المكتب ، وأسند ذقنه الى رسغيه ، وصوب الى (فو) نظرة طويلة متحفزة . لكن (فو) راح يراقبه بهدوء وسكون .

ثم قال جريجورى بلهجة الحزم :

ـ والان يا مستر « فو » .. ماذا ينوى شيطانك ؟ ..

فتريث فو قليلا ثم قال فى عذوبة :

ـ هل تتفضل بتكرار هذا السؤال ؟.

ـ أحسب انك سمعته بوضوح كاف .

ـ بل بكل وضوح .. لكنى كنت أظن انك تنتهز فرصة الاعادة للاعراب عن قصدك بلهجة اكثر أدبا .

فبادره جريجورى فورا :

ـ ليس المجال مجال مجاملات .. ولعلك تلاحظ انه لا يوجد ما تعودتم من موائد الشاى المألوفة .. ولا ويسكى ولا سجاير ..

فأجاب (فو) فى تكاسل وتلطف :

ـ شكرا لك .. انا لا أدخن . ولم اشرب الويسكى أبدا ..
وأفضل ان اشرب الشاى وفقا لطريقتنا الصينية الخاصة ..
ومهما يكن ، فقد لاحظت ، كما قررت ، ان المجال ليس مجال..
مجاملات .
فقال جريجورى بعنف :
ـ وفى اثناء ذلك ، احب ان اتلقى جوابا على سؤالى .
فقال الصينى فى رقة ، وان نمت عيناه عن ازدراء يسير :
ـ الذى كان ..
فصاح جريجورى هادرا :
ـ ان سؤالى كان : « ماذا ينوى شيطانك ؟ » ..
فقال (فو) ببرود :
ـ أرجو أن تكون أكثر ايضاحا ..
فأجاب جريجورى بحدة :
ـ ذلك غرضى التـــام . والآن . أرجو ان تنصت الى بكل
عناية .
ـ كلى آذان واعية ..
فقال جريجورى منذرا :
ـ دعنى امهد لكلامى بقولى انى معروف بانى صديق طيب
وعدو خطر ..
فغمغم فو وهو ينحنى باعجاب :
ـ من يرتاب فى ذلك ؟.
ـ والمتهور وحـده هو الذى يجسر على مقاومتى يا مسـتر
« فو » هل تعرف طريقتى فى معاملة هذا الرجل ؟.
فقال « فو » فى وداعة :
ـ انى أجزع من التفكير فى مصيره . لكنى لا أتهور أبدا ..
ـ انى اسحقه يا سيدى ! اسحقه بلا رحمة !.
ـ يسر الانسان دائما ان يعرف اساليب الناس العظام !.
ـ وانما ذكرت لك هذه المسائل بقصد التحذير .
فرفع « فو » حاجبيه ، وقال : التحذير ؟..
ثم تنهد .. وأردف :
ـ حقا انى لا اكاد اتتبع مراميك ..
ـ احسب ان المعنى الذى اقصده تام الوضوح ..
ـ لك انت بلا ريب .. أما وأنا رجل محدود الفهم . فارجو
ان تكون اكثر جلاء

ـ سأكون .. وسألقى عليك سؤالا بسيطا .. هل انت صديقي يا مستر (فو) ؟.. أم انت عدوى ؟..

فابتسم (فو) ابتسامة عريضة .. وأجاب :

ـ هل اتسامى الى ان أكون صديقك ، أو أجسر ان أكون عدوك ؟.. هل تسمو الشمعة الى مصادقة الشمس ؟.. أويشهر الغدير الحرب على المحيط ؟..

فمال جريجورى فى مقعده الى الخلف متعبا مضنى .. وقال:

ـ آه .. نعم .. نعم ! .. كلامك جائز !..

فقال (فو) بهدوء ، ولكن فى استياء ظاهر :

ـ أنا لا اميل الى كلمة (جائز) يا مستر جريجورى ..

ـ لقد سألتنى أن أكون أكثر جلاء ..

ـ لكن ليس معنى هذا ان يكون كلامك جافيا .. انى لا استخدم الفاظا جافية فى حديثى ، ولا اقبلها .. والآن هل يسوغ لى أن أعرف كيف بدت لك منى هذه العداوة الافتراضية؟

فأجاب جريجورى فى شىء من السخرية :

ـ فى مظاهر مختلفة ..

فعاد (فو) الى عذوبته ، قائلا :

ـ هل لك ان تحدد مظهرا واحدا منها ؟..

فأجاب جريجورى :

ـ لابد انك تعلم ان شركتى قد تعرضت فى العهد الاخير الى سلسلة من المتاعب غير العادية ..

فقال « فو » فى لهجة العطف :

ـ يؤسفنى أن أعلم ان سوء الحظ كان من نصيبك ..

فقال جريجورى بعزم : لقدصممت أنأضع حدا لهذهالمتاعب.

فقال «فو» فى كآبة :

ـ لكنى لا اظن أن مستر جريجورى يطمع أن يتحكم فى تصاريف القدر ..

فقال جريجورى وقد مال فوق المكتب متحديا :

ـ لكن هل هى من تصاريف القدر ؟.. أم من افاعيل مستر « فو » ؟..

فجعل « فو » يتفرس فيه لحظة .. ثم أجاب قائلا :

ـ لا ريب انك تمزح !..

فقال جريجورى بلهجة التحدى والاستفزاز :

ـ انى أعرف عنك ما تعرف أنت عن نفسك ..

فقال « فو » فى طرب :
ـ ولم لا ؟.. ان حيـاتى كتاب مفتوح .. ولـكل انسان أن يطالعـه ..
ـ لكن هناك شيئا واحدا لا أعرفه ..
ـ أحقـا ؟..

ـ هو غرضك .. ولعلك ترى الآن انى أتكلم بصراحة ، وقد ألقيت أوراقى على المـائدة .. ما هو غرضك ؟.. وماذا تريد ؟. تكلم يامستر « فو » . انى أحب أن ألتقى بك عند حدود الصداقة والوئام ..
فقال « فو » بدهاء :
ـ هذا تلطف كريم منك ..
أبدى جريجورى اشارة تدل على تبرمه .. فسقطت صورة هيلدا الموضوعة فى اطارها على المكتب بينهما .. فتناولها الصينى وقال باحترام :
ـ مدام جريجورى ؟..
ـ بل ابنتنا ..
عض الانجليزى على شـفته .. وكان مقتنعا بأن الاندفاع فى الهجوم على غريمه يعنى استعجال اندحاره هو نفسه .. ولذلك كبح جماح غضبه فى تجلد عظيم ..

لكن مجرد رؤيته صورة هيلدا بين يدى (فو الصينى) ووقوع نظراته عليها قد أثار جنونه .. وكم من أوربيين تناولوا هـذه الصورة وأبدوا شديد اعجابهم بها واطرائهم لصاحبتها .. فكان ذلك يطرب والدها ويثلج صدره . أما «فو» فقد اكتفى بأن أحنى رأسهبهدوء وأعادالصورة الى مكانها وهو ينظر الىوجه جريجورى .. فأحس هذا رغبة جامحة لاخماد أنفاسه ..

لو أن روبرت جريجورى علم بقضاء ابنه على فتاة صينيـة هى أكرم حسبا ، وأرقى نشأة من ابنته هيلدا ، لما كان هذا الجرم فى قياسه من البشاعة بما يند عن الصفح والغفران ، ولعـده من قبيل النهور والطيش ..

لكن مجرد امسـاك رجل صينى كان يعرف أنه والد مثله وند له فى الشرف والتفكير ، لكن مجرد امساك هـذا الرجـل بصورة هيلدا ونظره اليها بهدوء ، بدا فى عينى جريجورى جريمة لا تغتفر وانما حزك سخطه وأثار ثائرته ..!
وقد طالع «فولى شـانج» خواطر صاحبه كمـا يطالع كتابا

مفتوحا فلم يكترث بغفلته وقصور نظره.. وتصلب في مكانه ، فهو يعلم ما لا يعلم روبرت جريجورى ، وكانت تتراءى أمام عينيه صورة فانج بينج كما رآها لآخر مرة وهى مكومة تحت قدميه على الارض صريعة تجود بأنفاسها الاخيرة ..

على أن « فو » أعاد صورة الفتاة الى مكانها دون تعليق تأدبا منه .. ثم أحنى رأسه أمام الانجليزى مهنئا وقال :

— آه .. نعم .. ان الآنسة جريجورى تذكرني الى حد ما بسيدة انجليزية عرفتها منذ أعوام طويلة حين قمت في انجلترا . وقد أسفت لغيابى عن المنزل حين شرفت مدام جريجورى وكريمتك حديقتي المتواضعة .. وابنتي ..

ثم ردد « فو » عبارة الانجليزى السالفة :

— قلت انك تحب أن تلتقى بى عند حدود الصداقة والوئام يا مستر جريجورى ؟.. انكم معشر الغربيين قوم على حظ عظيم من سماحة الخلق وكرم الطباع .. وان «الصداقة» قد تكون بدافع التطلع الى منفعة أو .. دفع خوف ..

فنهض جريجورى وأخذ يروح ويغدو في الغرفة وقد لاحت على محياه دلائل الصلابة ، ثم قال وهو يبذل جهده لكبح جماح نفسه :

— كفى عبثا يا مستر « فو » لن اقبل هذا اللف والدوران.. وابدأ حديثى معك فأقول .. ان اختفاء ولدى على هذا النحو الغامض هو حلقة واحدة في سلسلة الكوارث التى انهالت على في العهد الاخير والتى أريد تفسيرا لها ..

— اذن لم لا تلتمس هذا التفسير عند من في يدهم ارشادك ؟

فقال الانجليزى وهو يواجه الصينى بشراسة :

— لا يوجد أقدر منك في هذا الشأن ! .. ماذا وراء هذا كله يا مستر « فو » ؟ . ما هو الغرض الذى ترمى اليه ؟ . لم وجهت اهتمامك المشئوم الى والى من يتصل بى ؟ . ماذا فعلنا حتى تشن علينا هذه الغارات المتوالية من خطف أشخاص . واغراق بواخر . واغتصاب عمال . الى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى ؟ .

نظر « فو » الى ساعته ثم ردها الى جيبه .. وتناول قبعته ونهض متمهلا .. وقال ببرود :

— ان وقتى ثمين يا مستر جريجورى .. والوقت من ذهب كما تقولون يا معشر الغربيين .. ولست بالذى يضيع وقته

هباء ، وان كنت لا أتعجل أبدا ، ولهذا فانى اذا استأذنك فى الانصراف .. أتمنى لك وقتا طيبا ..

فقال جريجورى بشراسة وهو يقف بين « فو » وبين الباب :

ــ ليس بهذه السرعة يا مستر « فو » ! .. ان وقتى ثمين كذلك .. لكنى ساكرس كل جهدى للحصول على جواب عن سؤالى ! .. انى مقتنع تمام الاقتناع بأنك تعرف ما أريد أن أعرف ، وما لابد أن أعرفه ! .. وما دعوتك الى هنا الا لكى تخبرنى بما أريد أن أعرفه .. واقسم انك فاعل ذلك قبل أن تبارح هذه الغرفة ! .. انى أعلم ان فى وسعك أن تضع يدك على ولدى . ميتا أو حيا ! .

ــ وهل تستطيع أنت أن تضع يدك عليه ؟ .

فأجاب الاب وهو يكاد ينتحب :

ــ أنا ؟ .. كلا ! .. كلا ! ..

ــ لا بأس .. متى استطعت أن تضع يدك عليه ..

ــ لكنى أستطيع أن أضع يدى عليك اذا لم تفعل ما أريد .

قال « فو » بلهجة ذات مغزى :

ــ لا أظن أن مستر جريجورى يرتكب هذا الشطط ..

خيم صوت رهيب . ثم بدده جريجورى فى صوت متهدج شديد الانفعال :

ــ انك تهدم عملى ! .. انك معلق فوق رأسى كسيف « دموقليس » ..

فقال « فو » بهدوء :

ــ وقد يكون لهذا السيف حدان يا مستر جريجورى . وان الرجل يجرح غريمه بأحد حديه قد يتعرض لأن يجرح نفسه بحده الثانى ..

ثم دنا من النافذة وأردف :

ــ ليس السيف سلاحى ..

فسار جريجورى خلسة الى الباب وهو يدس يده اليمنى فى جيبه .. ولما تحول « فو » للخروج رأى وجه صاحبه يختلج انفعالا ..

لم يكن فى نية « فولى شانج » أن يبقى على هذا الاب .. والد بازيل جريجورى .. لم يتمالك أن خامره الان رثاء لحالته .

على انه سار نحو الباب قائلا :

ــ والان .. أرجو أن تسمح لى بالخروج ..

فشهر روبرت جريجورى مسدسه فى وجه « فولى شانج » ، لكن الصينى نظر الى فوهة المسدس اللامعة ، وقال باسما :
ـ آه .. مسدس من نوع « ويبلى » ! .. هو نوع جيد .. وقد تمرنت على استخدامه ..

الفصل السابع والعشرون

دليـــل

اهتاج جريجورى حين رأى هـدوء صـاحبه ، فبدرت منه حركة تدل على الوعيد . وسرعان ما ثارت براكين الغضب الجامح التى كانت كامنة تحت هذا المظهـر الهادىء .. وهتف « فولى شانج » قائلا :

ـ يا أحمق ! .. هل تظن أنى أحفل بهذه اللعبة ؟ .. ايهـا الانجليزى الغبى ! .. ان أقل اشارة منى تستدرج هؤلاء العمال المحتشـدين فى الخارج كأنهم الابالسة ! .

فقال جريجورى متوعدا وقد أحكم تصويب المسدس :
ـ نعم .. لكن بعد أن تكون ذهبت الى جهنم ، لـكى تلحق باسلافك الملعونين ! .

بدرت من حلق « فو » حشرجة مرعبة كزمجرة الكلب الوحشى ولمعت عيناه بنظرات جهنمية مخيفة .. لكن سرعان ما تغلب على نفسه وعاد الى سكونه السالف وان لم يفارقه غضبه .. ثم قال فى صوت خافت ساخر :

ـ بعـد أن أكون ذهبت الى جهنم ؟ .. اذن لاسـتطعنا أن نستأنف هذه المناقشة الطريفة فى مكان آخر ! . يكفى .. كفى ! . أعد هذه اللعبة الى جيبك . اذا كنت تصر على تمثيل الدور على هذا النمط ، وهو ما لا أعتقد انك فاعله . فكن على يقين أن هذا المكان ليس هو المسرح اللائق لذلك وأنت تعرف أين أقيم . وفوق ذلك فقد ذقت خبزى المتواضـع منذ أيام .. ومن السـهل ان تهتدى الى ..

لكن روبرت جريجورى صوب مسـدسه الى قلب « فولى شانج » وقال له :

ـ أرجو أن تجلس يا مستر « فو » .

فاحنى « فو » رأسه فى أدب الى فوهة المسدس كأنما يعرب عن شكره لهذه الدعوة ، وقال وهو يعود الى مقعده :

ـ بكل سرور ..
وتقدم جريجورى بدوره الى مقعده وعينه مسلطة على « فو » وأدار ظهره نحو « فو » ثانية واحدة . لكن هذه اللحظة الوجيزة كانت كافية لكى ينتزع الصينى مسدسه من جيبه ويخفيه فى كمه الفضفاض .. ولما جلس جريجورى فى مقعده ساخطا أحدث ضجة مسموعة ، وقد انتهز « فو » هذه الفرصة وفتح مسدسه
جلس كلاهما أمام صاحبه صامتا متحديا .. لكن هدوء « فو » كان ينذر بالشر .. ثم قال بلهجة عذبة :
ـ أرى يا مستر جريجورى انك ما زلت محتفظا باللعبة فى يدك .. أرجو أن تدعها .. أنا لا اخافها .. لكن فى مجرد وجودها معنى من معانى الاستفزاز والاهانة .. لنتظاهر على الاقل بأننا أناس مهذبون .
أصاب هذا التعريض اللاذع الهدف من نفس جريجورى .. فلاحت عليه دلائل التردد لحظة .. ثم وضع المسدس فوق ركبته تحت المكتب .. وقال :
ـ والان يا مستر « فو » ..
فقاطعه فو قائلا :
ـ مهلا .. أرجو عفوك عن التحاحى .. لكنى أعتقد أن هذا المسدس محشو ..

فقال جريجورى بعنف :
ـ نعم .. تام الحشو ..
فقال النبيل الصينى بغير اكتراث :
ـ لا بأس .. اذا كان علينا أن نصل الى تفاهم ودى فاني أفضل من باب التأدب الا أشعر بأننى أتفاوض تحت فوهة المدفع . أحتفظ بالمسدس كما تشاء .. لكن أرجو أن تتفضل بانتزاع رصاصه ..
فتململ جريجورى فى مكانه متبرما .. بينما استطرد « فو » بلهجة المسالمة :
ـ انى أريد عربونا على حسن نيتك .. ولعلك تعلم أن المسدس قد ينطلق عفوا من باب الصدفة ..

ومد يده باسطا راحتها فوق المكتب .. فنظر جريجورى اليها مترددا مرتبكا .. وتطلع الى النافذة فى قلق .. ثم هز كتفيه ٪ ورفع المسدس وفتحه فتساقط رصاصه فوق المكتب ..
فقال « فو » فى مودة :

ـ اشكرك .. ان ذلك يجعل المناقشة الطريفة ممكنة .
وراح « فو » يعبث بالرصاص كما يعبث الطفل بالحصى .. وقال فى صوت عذب :
ـ واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. هذه لعبة جميلة .. اليس كذلك ؟ .. والان بوسعنا أن نبدأ الكلام متكافئين .. ارجو أن تستأنف الحديث يا مستر جريجورى من حيث وقفت ..

وعادت يد « فو » الى ركبته تحت المكتب بحركة طبيعية .. وقد علقت رصاصتان باصابعها المدربة ، ثم انحنى فوق المكتب وكانت يداه الان تحته ، وأخرج المسدس من كمه .. واستطرد :
ـ لكن أرجو الا تشير بعد الان بسوء الى اسلافى .. أو تتكلم عنهم بأى اسلوب آخر ..

واستقرت الرصاصتان فى المسدس الذى بيديه ، بينما دس جريجورى مسدسه الفارغ فى درج مكتبه ساخطا متبرما .. ثم تابع « فو » حديثه :

ـ كنت تسألنى الآن معلومات عن اختفاء نجلك ، وعن بعض كوارث مالية نزلت بك فى العهد الاخير .. لا بأس .. سأكون صريحا معك يا مستر جريجورى كل الصراحة ، ولن أخفى شيئا .
وانسلت يداه بهدوء فوق المكتب ، ثم أردف :
ـ وأول ما أقوله هو .. انظر الى هذا ! ..

وشهر المسدس الذى كان بيده ..
وثب جريجورى وهو يسب بصوت مختنق ، وامتدت يده بحركة متوترة نحو الجرس ، فقال فو :
ـ آه ! .. كلا ! .. لا تتحرك ! .. والا انطلق المسدس بمحض الصدفة ! ..
وحاد جريجورى عن مرمى المسدس وابدى حركة طائشة خفية لدق الجرس ، فأحكم فو تسديد المسدس فورا .. وقال باسما :

ـ قلت لك لا تتحرك !. اجلس !. اجلس يا جريجورى !.
جلس روبرت جريجورى متمهلا .. واطاع هذا امر من باب الخوف وبتأثير الهزيمة والشعور بالعجز أمام هذا الخصم الاقوى وفجاة فتح درج المكتب لكى يلقى نظرة على مسدسه . فقال فو :

ـ كلا .. ليست خفة يد أو شعوذة !. ليس هذا مسدسك .. ولكنه صورة منه ..
ـ هذا مسدس ابنى .. وقد قدمته له بنفسي .. والان لقد وجدت دليلا أسير على هداه ، سحقا لك .

الفصل الثامن والعشرون

دعـــوة

فقال (فولى شانج) فى اخلاص :
ـ اصبت .. هذا المسدس لابنك ، أو كان له .. وقد وجده خدمى فى حديقة دارى ، بعد أن غادرها ابنك .. وقد قررت أن أعيده لك بنفسى ، وان لم أكن أتوقع أن أفعل ذلك بهذه الطريقــة الفكاهية .
ثم تغيرت لهجته فجأة ، واكتسبت طابع الجـــد والصرامة ، وقال :
ـ والآن أرجو أن تقرع الجرس .. وقل لمن يأتى أن يدعو مدام جريجورى .. ولا تفعل أكثر من ذلك . ولا تقل غير هذا . لانك اذا لفتت الانظار الى هذا المسدس فقد تهتز يدى بتأثر الخوف فينطلق ويكون موقفك محزنا ومضحكا بعد أن تصاب باحـــــدى رصاصاتك .. دق الجرس من فضلك .
ما كاد جريجورى يسمع اسم زوجته ـ على لسان فو ـ حتى تصلب فى مكانه . وقال :
ـ ماذا تريد من مدام جريجورى ؟.
ـ قد احب أن أريها حمق زوجها وهو يحاول ارهابى بدل أن يتصرف معى بالعقل والحكمة .. لكن معى فوق ذلك رسالة وعدت أبنتى أن أبلغها الى زوجتك .. ولما رأيتها مصـــــادفة تذكرت الرسالة .. وأيسر لى أن أقوم بهذا التبليغ هنا من أن أزورها فى الفندق .. وهو كذلك أوفق للسيدة .. هذا الى أن معى رسالة اخرى ، اقل اهميـــــة ، من مدام « سنج » ، قريبتى .. دق الجرس !.
فقال الانجليزى المغلوب على أمره :
ـ دق أنت !.
ـ هذه حرية لا أحلم بأن ابديها فى مكتب غيرى ..
وأحكم تسديد المسدس .. وأردف :

ـ ستقرع الجرس !. ستقرعه الآن يا مستر جريجوري !.
ضغط جريجوري على الجرس فوق مكتبه .. ثم مال فوق مقعده الى الخلف وهو يزفر ميئوسا مقهورا .
ولما جاء موراى أدار « فو » جسـده بحيث لا يرى الموظف المسدس المصوب الى جريجوري .. بينما قال هذا في أعياء :
ـ موراى .. قل لمدام جريجوري أن تجيء الى هنا لحظة .
وما كاد موراى يخرج حتى قال « فو » على عجل :
ـ والآن .. سأثير هذا الموضوع أمام مدام جريجوري ، اذ سمحت .
فقال جريجوري في اعياء :
ـ وما غرضك من اذلالي في نظر زوجتي ؟.
فأجاب « فو » باسما ، وهو يدس المسدس في كمه :
ـ هذا مزاج رجل صيني ، اذا شئت .
وجاءت فلورنس جريجوري في اهتمام وتطلع .. ومع انهـا كانت تجهل مركز « فو » المالي فلم يخف عنها نفوذه الحقيقي بما طبعت عليه من دقة الحس والذكاء وما علمته من « آه وونج » .
ونهض « فو » من فوره وتقدم نحوها خطـوة محييا .. ووقفت لحظة تقلب نظرها بينهما فاحصة مستطلعة. ثم استقرت عيناها على « فو » .. ووقف كلاهما يقيس صاحبه بنظره ويسبر غوره في هدوء ...

خيل اليها لحظة أنها رأته من قبل وعرفته . وجعلت تسائل نفسها أين ومتى كان ذلك .. بيد أنه أضاع عليها هذه الفرصـة حين قال لها بعد أن انحنى أمامها باحترام :
ـ يؤسفني يا مدام جريجوري أن أضطر لاستدعائك . لـكن هل تتفضلين بأخذ هذا السلاح قبل أن أفسر لك حقيقة الموقف ؟.
وضحك ضحكة يسيرة ، واستطرد :
ـ .. وانك ترين أني اقدمه لك والفوهة مصوبة الى صدري
ثم أردف بلهجة الجد :
ـ .. لكن لا تقدميه لزوجك . اني اعتمد على شرفك .
وانحنى مرة ثانية وقدم لها المسدس .
تناولت مدام جريجوري المسدس في دهشة وحيرة ، ثم قالت باستياء :
ـ ما هذا .. ما هذا كله ؟. روبرت .. ماذا كنت تفعل ؟.
فتنهد زوجها ثم اجاب :

ـ ان مستر « فو » قد خـدعنى فى .. احدى مسـائل العمل .

فاعترض « فو » بلهجة عذبة .

ـ آه !. عفوا !. عفوا .. بل أنت تخدع نفسك .. هل لنا أن نجلس ؟.

وجه « فو » هذا السؤال الى فلورنس جريجورى .. ولمـا جلست جذب لنفسه مقعدا وجلس قريبا منها .. وقال :

ـ انى جئت الى هنا اليوم بدعوة من زوجك فى مسألة عـلى جانب كبير من الخطورة .

فمالت المرأة من فورها نحوه وقد شبكت يديها فوق ركبتيها .. وقالت باهتمام :

ـ نعم . نعم . بشأن ولدى .

فاستطرد « فو » بلهجته الرفيعة الناعمة :

ـ وهو لم يذكر ما هو لون هذه المسألة . وكنت أعرف طبعا بموضوع اختفاء ولدكم .. فان ذلك معروف لكل انســـان فى « هونج كونج » .. ولذلك خطر لى أن زوجك رغب فى أن يستعين بنفوذى بين أهل وطنى فى مساعدته فيما تقومون به من بحث فى هذا الصدد .

فقالت الزوجة :

ـ نعم .. نعم .. اذا استطعت .

فغمغم جريجورى :

ـ استطاع !!. هو يعرف كل شيء عن هذا الموضوع .

فاستطرد (فو) بوداعته المعهودة :

ـ على انه استقبلنى استقبالا يخالف المـألوف من رجل .. يطلب جميلا ...

فصاح جريجورى حانقا :

ـ جميل !!. أقرر لك انى لم أكن أنوى ان اطلب جميلا ما ..

فصوبت الزوجة الى زوجها نظرة ناهية ، بينما اســتطرد (فو) دون أن يعبأ به :

ـ ثم شهر مسدسا فى وجهى آخر الامر، وجعلنى تحت رحمته.

فقال جريجورى ساخطا :

ـ نعم .. وبحيلة ماكرة ، كما هو شأن جنسكم الغادر .

فابتسم « فولى شانج » مبديا عجبه من هذا القول ، وقال :

ـ هل سمعت يا مدام جريجــورى ؟ . كان مكرا منى أن

احاولّ الدفاع عن حياتى !! وليس مكرا منه أن يستدرجنى الى هنا بدعوى ..

ـ سحقا للدعاويك !! .

فاه جريجورى بهذه الجملة وقد احتدم غضبه ونهض من مكانه منفعلا وقصد الى النافذة وجعل ينظر الى الكتلة البشرية التى كانت تتدافع على الرصيف ، وان كان لم ير شيئا فى الواقع .. بينما قال « فو » برقة :

ـ لعلك قد رايت اذن هذه الوسائل العجيبة التى يتوصل بها زوجك لنيل مساعدتى وعطفى .

أطرقت فلورنس جريجورى .. وأدنى « فو » مقعده منها قليلا .. فلم يتحرك جريجورى من مكانه ولم يلتفت . بينما قال الصينى فى صوت خافت يشف عن العطف :

ـ وان لهفتك الاموية الطبيعية ..

وكف « فو » عن اتمام جملته .. فتطلعت اليه الام فى لهفة وامتنان .. واذا هى ترى فى عينيه دلائل التقدير والولاء .. وما هى الا لحظة حتى نهضت فجأة وذهبت الى النافذة قائلة :

ـ روبرت ! .

لم يجب الزوج .. فلمست كتفه .. فلم يحفل .. فقالت فى لهجة تشف عن الامر :

ـ ارجو أن تدعنى أتحدث وحدى الى مستر « فو » ! .

كان « فو » قد نهض على أثرها .. فما كاد يسمع هذا الكلام حتى لاحت على محياه ابتسامة يسيرة جدا تشف عن الظفر .. وقال وهو يتقدم نحوها :

ـ ان الامر يختلف معك انت يا مدام جريجورى .

فقال جريجورى مزمجرا دون أن يلتفت :

ـ هو فى حاجة الى رجل يكيل له .. !

فقالت مستعطفة :

ـ لكن يبدو أن اسلوبك لم ينجح معه يا روبرت . أليس كذلك ؟ انى أريد أن أعثر على ولدى ! . دعنى أحاول .. بطريقتى الخاصة .

فقال جريجورى بلهجة السخط وهو يهرول من الغرفة دون أن ينظر الى « فو » :

ـ سأرسل لك « آه وونج » .

وقال « فو » مترددا والباب يغلق :
ــ ومن « آه وونج » يا مدام جريجورى ؟ ..
فأجابته :
ــ هى خادمتى ..
فقال ضاحكا :
ــ لكنى لا أحتاج الى مترجم ! ..
ــ هى لا تكاد تفارقنى ..
فقال وهو ينحنى قليلا :
ــ ومن يستطيع ؟ ..
ودلفت «آه وونج» الى الغرفة فى سكون .. فقالت الزوجة بلهجة الجد :
والآن يا مستر « فو » هل تساعدنا ؟ ..
ــ أساعدك أنت ، اذا استطعت .. لكن .. لست واثقا انه ؛

وكف عن اتمام جملته ووجه اليها نظرة متســـائلة . كأنه يقول لها . « هل فى نيتك ترك الخـــادمة تقف هكذا ؟ .. » ..
فان « آه وونج تقدمت فى الغرفة حتى وقفت بجانبه ..

فقالت مدام جريجورى وهى تومىء برأسها نحو الباب :
ــ انتظرى يا « آه وونج » ..
فعادت « آه وونج » بهدوء الى الباب ووقفت أمامه جامدة لا تتأثر ، ولكن نظراتها لم تنحرف لحـــظة واحدة عن « فولى شانج » ..

ولم تضيع مدام جريجورى الوقت فى التمهيد ، ونسيت فى هذه اللحظة انه غريب عنها ، وانه رجل وهى امرأة ، وانها انجليزية وهو صينى ، ولم يكن يدور بخلدها ســـوى خاطر واحد ، هو بازيل ، فقالت فى لهجة الابتهال والتوسل :

ــ أواه يا مستر « فو » ! .. لو استطعت مساعدتنا ! .. لو كان فى وسعك أن تشير علينا وترشدنا الى أفضـــل وسيلة نتقدم بها الى الوطنيين ، أو نقدم لهم مكافأة ..
فقاطعها « فو » برقة قائلا :
ــ آه .. انى أفعـــل كل شىء لاجلك يا مـــدام جريجورى اكرالدته

وتناول قبعته وتقدم نحو البـــاب .. لكن « آه وونج » لم تنحرف عنه .. فقـــد كانت تعـــلم انه لن يذهب الآن .. لكن

فلورنس جريجورى لم تعلم وتبعته خطوات .. فانحنى « فو » امامها باحترام عميق .. وقال وكأنه يدرس الموقف .
ــ لا بأس .. لا بد أن نتقابل مرة ثانية ..
ــ آه ! .. انى لارجو ذلك يا مســـتر « فو » .. أما الآن .. وكل لحظة لها قيمتها العظمى ..
انى افكر فى الموقف يا مدام جريجورى .. ولك ان تثقى بانى لن اضيع دقيقة واحدة .
فقالت فى حرارة :
ــ انا واثقة .
فأحنى « فو » راسه امتنانا .. أو لـكى يخفى ابتسامته .. واستطرد :
ــ لكني سأتجاصر على أن التمس منك مكرمة عظيمة .
ــ آه ! .. بل كل شيء ! ..

ــ لقـــد زارتك بالامس سيدة من أهل بيتى ، هى مـدام « سنج » التى كانت لابنتى بمثابة الام ، منذ وفاة زوجتى .. وان « سنج كونج ياه » تقاسى اذلالا شنيعا ، وتعانى وحدة مرة .
ــ يؤسفنى انى كنت غائبة وقت أن جاءت .
ــ وقد حزنت فى الواقع اذ لم تجدك فى الفندق .. فهل يسوغ لى يا مدام جريجـــورى أن التمس عطفك نحو مـــدام « سنج » ؟ .
ــ آه ! .. بل كل شيء .. لكن ماذا يمكننى أن أصنع لها ؟
فقال « فو » :
ــ كثيرا .. هى منبوذة محتقرة من نساء قومنا .. وانى وان كنت رجلا قوى النفوذ بين اهل وطنى فليس فى قدرتى أن أكسر من حدة هذا الشعور النسوى الجائر .. ولمجرد كونها أرملـة ، فان تقاليدنا السخيفة ، تقضى عليها أن تعيش فى عزلة وان تعانى النبذ والاضطهاد .. وهى فى الحق مخلوقة لطيفـــة يا مـدام جريجورى ، وتتلهف للاصدقاء .. فهل تزورين « ســـنج كونج ياه » ؟ .
ــ آه ! .. طبعا ! .. بكل سرور ! ..
ــ ان هذا سيفتح أمامها أبوابا كثيرة فى « هونج كونج » فان لمدام جريجورى مكانة اجتماعية بارزة .. والواقع اننا عاجزون عن فتح الابواب الصينية أمامها .. وليس فى وسعى رغم ثروتى أن ابتاع لها صداقة نساء الصين .. لكن حياتها ستصبح اقل

بؤسا اذا استطاعت أحيـــانا أن تتبادل الزيارة مع الســـيدات الانجليزيات .
ــ سيكون ذلك من دواعي سروري الجم .
ــ وهل يتم ذلك قريبا ؟ .
ــ نعم .. بلا ريب .. بالطبـع حالما يزول هــذا القـلق الفظيع .
ــ قد يكون من القسوة أن أسألك الحضور الى « كولون » لتناول الشاى مع « سنج كونج ياه » .. ومع ذلك فانى أقترح عليك ذلك .. ولكن لاجل فائدتك أيضا ، نعم .. اذا تفضلت فستكونين ضيفتى ، وهو ما يدخل السرور على نفس « سنج » .
فقالت فى شيء من الكآبة :
ــ لقد نلنا من قبل هذا الشرف يا مستر « فو » .. ولعلك تذكر انى رأيت ولدى لآخر مرة فى حــديقة دارك ، انه اختفى هناك .. كأن الارض قد ابتلعته .
ــ وسنبدأ بحثنا من هذه النقطة .. أنت أمه ، وأنا الرجل الصينى الذى يتشرف بخدمتك ، سنقتفى معا أثره من هذا الموضع .. من حديقتى حيث رأيته لآخر مرة .
ــ لكنك تعلم أنه شــوهد لآخر مرة بعــد ذلك فى « هونج كونج » ! .
ــ علمت أن هذا ما دار على الالسنة ، وقد يكون ما قيل صحيحا أو غير صحيح .. وسنبدأ من أول الطريق .. وننتهى بكشف الحقيقة ، وذلك ما أستطيع على الاقل أن أعدك به .
فقالت وهى تكاد تنتحب :
ــ أواه ! . أتقول حقا ؟ .
ــ أنا واثق مما أقول .
ــ اذن متى نذهب ، ان كان ذلك محتما ؟ .
فاعرب عن اعتراضه قائلا :
ــ محتم . ! يا عزيزتى مدام جريجورى .. أنا لا استخدم مثل هذه الكلمة معك ، كل ما هنالك انى أشير عليك فقط .. وأرجو أن تقدرى انى شديد التلهف ، بعد ما حدث الآن هنا ، الى مغادرة هذه الغرفة بأقرب وقت لكى أنسى هذه الظروف بقدر ما يمكن أن يتم هذا النسيان .
فتدخلت قائلة فى لهجة الاسف والندم :

ـ نعم . نعم . انى آفهم حقا شعورك ، وأنا شديدة الخجل مما حدث ..

فطرح « فو » هذه الفكره جانبا باشاره من يده .. تم انتابه انفعال فجائى برع فى اظهاره ، وبدا صادقا حتى فى نظر « آه وونج » . اذ راح يقول :

ـ انى لاعجب كيف يستنكر بعض الاوربيين ، مثل مستر جريجورى وغيره ، وجودنا معشر الصينيين فى هذا العالم ! ؟ . انكم تغزون أرضنا وتحصدون ثمار ما زرعنا آلاف السنين ، ثم تحقروننا وانتم تسمنون وتكتظون من خيراتنا ! . انتم تغرون ضعاف النفوس من قومنا بتدخين الافيون ، ثم تنددون بنا لاجل هذا فى الوقت الذى تثرون من هذه التجارة المجرمة ! . انكم تسيئون الينا وانتم فى أرضنا غاصبون ! .

أقرر لك يا سيدتى أن للصينى عينين ، ويديين ، وأجهزة عضوية ، واحساسا ، وميولا ، ومشاعرا ، ! .. هو مثلكم يأكل ، ويتأثر ، ويمرض ويشفى ! ويعروه ما يعروكم من حر الصيف وبرد الشتاء ! ..

اذا وخزتمونا ، دمينا . واذا داعبتمونا ، ضحكنا . واذا سممتمونا متنا . واذا أسأتم الينا ، أفلا يحق لنا أن نتأثر ونقتص لما تنزلون بنا من حيف ؟ . فان الصبر على الضيم ليس من شيمة أمتنا العظيمة .

ثم تبدل صوته وأردف فى لهجة الاسف والاستغفار :

ـ أواه ! . ارجو صفحك يا سيدتى العزيزة . اصفحى عنى . فما عنيتك بهذه الاقوال ..

ثم قال فى لهجة الجد العميق :

ـ سأساعدك يا مدام جريجورى بكل ما فى وسعى لايجاد ولدك . وانى لقوى النفوذ . لكنى لن أساعد زوجك . ولن أهيىء له فرصة لكى يطيب خاطره ويعلم انى أسديته يدا فى رد مستر بازيل جريجورى اليك .

فقالت الام وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ آه . أنا لا ألومك .

فقال « فو » بلهجة رقيقة :

ـ اشكرك . سأساعدك فى ايجاد ولدك . بل أقسم لك على ذلك . فثقى بى . ولن أخفق .

ـ أنا واثقة ..

فأحنى « فو » رأسه . ثم قال :

ـ لكن أصارحك يا مدام جريجورى انى اذا التقيت ثانية بزوجك ، فان عـدواته الغريبة ، وتحامله على ، ولهجـته التى يستخدمها فى مخاطبة نبيل صينى مثلى ان كان يصوغ لى أن أنعت نفسى بهذا الوصف ـ قد تحملنى جميعا على نفض يدى من هذه المهمة . وبعبارة موجزة لن أستطيع بعد الآن أن أطأ مكانا هو ملك لمستر جريجورى ، أو أن أدعوه لزيارتى فى بيتى . لكن اذا كنت تنوين تشريفى وتشريف قريبتى وابنتى بزيارتك الكريمة ، فأرجو أن تصحبى خادمتك هذه .. فان لها وجها يشف عن الاخلاص ، وأعتقد أن فى وسعك أن تعتمدى عليها فى كتمان أمر هذه الزيارة .. بل هى فى غير حاجة الى معرفة مدى ما سأقدمه من المساعدة .. على انى أوكل اليك كل هذه المسائل .. وكل ما أسألك أن تعدينى أن يبقى مستر جريجورى جاهلا الى الابد أن ولده قد رد اليه بمساعدة « صينى لعين » .. عدينى بذلك ، و ..

فأحنت رأسها .. وقال لها :

ـ أعدك أنه لن يكون الذنب ذنبى اذا لم يرد اليك ولدك فى غضون ساعات ..

ـ اذن فأنت تعرف ..

فقال « فولى شانج » بلهجة الجد :

ـ أنا لا أعرف شيئا لن تعرفيه أنت نفسك ، فى « كولون » .

فقالت فى لهجة الرجاء :

ـ متى أذهب ؟ .

ـ غدا ، الساعة الرابعة ؟ . سأكون رهن اشارتك .

فقالت بصوت متهدج :

ـ غدا ؟ .

فقال وهو يتطلع الى الساعة :

ـ هذه الليلة اذن ؟ .. نعم ان الوقت ضيق . لكن أحسب أن فى وسعى أن أدبر الامر . سأبذل كل جهد فى خلال هـذه الفترة ، وأعدك أن يكون ولدك فى حضرتك قبل أن تغادرى دارى . ليس فى وسعى أن أصور لك مبلغ سرورى اذ أرى هذا اللقاء ! ولا مدى فخرى باتمام هذا العمل .

وتهدج صوته وهو يفوه بهذه الجملة .. فقالت له فى لهجة الانفعال :

متى ؟ ».

ــ الساعة السادسة ؟ . أو منتصف السابعة ؟ . ان هذا الموعد يهيىء لك وقتا كافيا قبل الزيارة التي سأتطلع اليها وسترقبها ابنتي وخالتها كما يهيىء لك فرصة للعودة فى وقت مناسب لارتداء ملابس العشاء ».

ــ العودة .. مع بازيل ؟ ».

فابتسم « فولى شانج » ابتسامة رقيقة وقال :

ــ مع بازيل ، كما أعتقد .

فهتفت الام وهى تبسط له يديها :

ــ أواه يا مستر « فو » ! ».

فتناولهما وانحنى فوقهما باحترام .. وقالت له وما زالت يداها فى يديه :

ــ أواه ! . اخبرنى يا مستر « فو » . هل تحسب انه سليم معافى ؟ ».

فأجاب « فو » بلهجة الجد :

ــ أنا لا ارتاب فى ذلك والمسألة لن تعدو مجرد التفاوض مع هؤلاء الذين يحتجزونه .. والآن ، هناك أمور كثيرة لا بد من اتمامها . وقد تعهدت بشرفى ألا أحنث بوعدى .. اذ لم تخنثى ».

ــ احنث !! . وهل تعد أن أرى ولدى هذه الليلة ؟ ».

ــ أعد ! .

ــ أواه !!! ».

وتقدمت نحوه فى حرارة ، ومدت له يدها مرة ثانية .. لكنه تظاهر بأنه لم يرها . وقال وهو ينحنى :

ــ الى الساعة السادسة .

وخرج ..

وجلست الام فى أقرب مقعد ، وراحت تبكى بكاء رقيقا .. فأسرعت اليها « آه وونج » وجلست عند قدميها وقالت وهى تتشبث بيديها وملابسها :

ــ لا ! . لا ! . يا سيدتى ! . لا تذهبى !! . لا تذهبى !! . لا تذهبى !! ».

الفصل التاسع والعشرون

زيارة

لم تكن فلورنس جريجوري من طراز السيدات اللاتي ينزلن على رأي الخدم . ولما سمعت أول الامر نهى « آه وونج » لها عن الذهاب الى بيت « فولى شانج » لم تعبأ بها ولم تحفل بكلامها . على انه ما كادت الخادمة تكرر رجاءها بعد عودتهما الى الفندق حتى نهرتها مدام جريجوري بصرامة . فادركت « آه وونج » انه لا فائدة من اللجاج والالحاح في الرجاء .. وسكتت صاغرة مكرهة .. بيد أنها تجاسرت على سؤالها :

— وهل أذهب معك يا سيدتي ؟ .

فأجابت مدام جريجوري في لهجة لا تخلو من الطيبة :

— طبعا .. فهو قد صرح بأن أصحبك معي .

ولما أذنت الساعة بالخامسة غادرت مدام جريجوري الفندق في هدوء برفقة « آه وونج » واستقلتا مركبة ذهبت بهما الى الرصيف حيث كان بانتظارهما قارب عملت الخادمة على اعداده من قبل .. وقد حرصت « آه وونج » حين أرشدت رجال القارب الى المكان الذي تذهبان اليه أن يسمع كلامها حمالو المركبة التي جاءت بهما . وكان هذا قصارى ماتسنى لها أن تفعله في هذا الشأن .. ثم جلست القرفصاء في القارب عند قدمي سيدتها .

ولم يدر بين الاثنتين حديث في أثناء اجتياز القارب للمياه الفاصلة بين « هونج كونج » و «كولون» .. وكانت « آه وونج » تامة الهدوء رابطة الجأش على تمام التأهب لخدمة سيدتها .. كما أن مدام جريجوري قد خالجتها عوامل الطمأنينة بانتهاء عهد الشك والقلق واقتراب تحقيق الوعد الذي قطعه « فولى شانج » على نفسه .

والواقع أن فلورانس جريجوري قد تأنقت هذه المرة في زينتها وعنيت أكبر العناية بهندامها وحليها حرصا منها على ارضاء السيدة الصينية التي توشك أن تزورها تلبية لرغبة قريبها النبيل الصيني .. ولم تنس أن تتحلى كذلك بالسوار الثمين الذي كانت تدخره للمناسبات الهامة ، والذي كان محجوبا تحت كمها .

وما كاد القارب يبلغ رصيف « كولون » حتى تنفست فلورنس جريجورى الصعداء سرورا بقرب وصولها الى الغاية ووثوقا منها بما سوف تلقى من مجالى الترحيب والحفاوة .

ولم يخامرها أقل شك فيما قد يكون مدخرا لها من اخطار فى هذه الزيارة . ولو كانت تشكحقا ، كما كان شأن «آه وونج» ، ترددت فى تلبية الدعوة لاجل بازيل ، وهكذا لم يكن «فولى شانج» فى حاجة الى استخدام قريبته المسكينة « سنج كونج ياه » كطعم لاستدراج فلورنس جريجورى الى معقله .

والواقع أن « سنج كونج ياه » كانت شديدة العجب متزايدة القلق والحيرة ، فهى لم تألف من قبل أن تعود الى الدار دون أن تخف نانج بينج الى الحفاوة بها والترحيب بعودتها .. ولم تستطع أن تقف على شيء ولو يسير من أمر نانج .. واعار الخدم كافة اسئلتها واستفساراتها آذانا صماء .. وكل ما قرروه فى هذا الشأن هو أن سيدهم المبجل قد أمرهم بالتزام الصمت المطلق ، وانه سيفضى اليها بما يهمها فى الوقت الذى يراه ملائما .

ولم تستطع كذلك أن ترى «لوسنج» .. ولم تر « فولى شانج » نفسه الالماما .. على أنها لم تجرؤ على سؤاله فيما ارادت

ولما أمرها بالذهاب الى السيدة الاوروبية فى الفندق ومعها « حديقة » الازهاز السالفة الذكر .. لم تجد الا أن تلبى الامر صاغرة ، وان ساورتها حيرة شديدة .. حتى اذا عادت الى الدار راحت تحرق البخور شكرا للآلهة أن لم تجد السيدة فى الفندق . وأن نجت من محنة كانت تثقل على نفسها .

على أن هذه المحنة كانت توشك أن تتكرر .. فقد تقرر أن تستقبل اليوم هذه السيدة الانجليزية . وما حان موعد الزيارة حتى جلست تتناول الشاى والمرطبات تشديدا لاعصابها وتسكينا لاضطرابها .

ولما اكتملت الساعة السادسة قيل لها ان الزائرة تطرق الباب .. فتنهدت « سنج كونج ياه » وتناولت جرعة من الشاى الأخضر وهرعت لتمثيل دور ربة البيت . ووقفت عند المدخل تبتسم للزائرة الانجليزية وقد حف بها الخدم من كل ناحية ومدت مدام جريجورى يدها مسلمة . فتناولتها « سنج كونج ياه » بحرارة ووضعتها على وجنتيها وهى تغمغم كلاما مبهما هو تحيتها

القلبية . ثم قادتها الى جناح « فولى شانج » وهى لا تنقطع عن الحديث والترحيب بها .. وكانت « آه وونج » تسير فى أثرهما .

وحين وصلن الى المدخل تأخرت « سنج كونج ياه » خطوة وضحكت داعية مدام جريجورى الى الدخول أولا .. وقد دهشت الزائرة اذ رأت الباب يغلق ومضيفتها تتخلف فى الخارج . بيد أنها لم تأسف كثيرا . فهى قد جاءت لرؤية النبيل الصينى وحده .. وخطر لها أن المرأة قد تكون ذهبت للاشراف على معـــدات استقبالها .

ثم قادها الخدم أخيرا الى باب وقفوا عنده . فكتمت أنفاسها ، وتوقعت أن ترى النبيل الصينى أمامها .

الفصل الثلاثون

وجها لوجه

وصـــل « فولى شانج » الى داره فى « كولون » فى تمام الساعة الرابعة .. وكانت أمامه ساعتان للاشراف على معدات الفصل الاخير من فصول المأساة التى مثلت فى هذه الدار ، ولبلوغ غايته من الثأر الرهيب الذى أضمره وافتن فى التمهيد له وتدبيره .. بيد أن هذه المدة كانت كافية ، فانه قد رسم فى ذهنه كافة التفاصيل حين كانت جثة نانج بينج مسجاة تحت قدميه ، ويكفيه الآن بضع دقائق لاصدار أوامره النهائية الى « آه سنج » .. وما كان يساوره أدنى ريب فى قيام خدمه بتنفيذ أوامره فى دقة تامة وطاعة عمياء ..

اغتسل « فو » .. وارتدى ملابسه الوطنية .. وتناول « الارز » .. وأصدر بضع أوامر موجزة الى « آه سنج » .. وأرسل فى استدعاء « سنج كونج ياه » ولقنها ما يجب أن تفعل .. ثم انتقل الى مكتبه وجلس ينتظر ..

ومرت ساعة .. ثم نهض ووقف ينظر قليلا من النافذة وهو يغمغم كلاما كما فعلت نانج بينج حين ودعت حديقتها الوداع الاخير .. وانتقل أخيرا الى الغرفة المجاورة حيث قرر أن يستقبل ضيفته

كانت غرفة مثمنـــة الاضـــلاع ، تتوســـط جدرانها ثمـــانى نوافذ تغلق من الداخل أو من أسفل الى أعلا بحيث لا يرى الناظر

كيف تغلق ، واذا اغلقت جميعا لم يبق للغرفة منفذ يتسرب منه الهواء سوى كوة صغيرة فى أعلا الجدار قرب السقف ..

أما أثاثها فكان رائعا يجمع بين الطرازين الشرقى والغربى .. وكانت حافلة بالتحف الصينية المتناثرة فوق الجدران والموائد

ولما دلف « فو » الى هذه الغرفة سجد أمام هيكل العبادة .. فهو قد جاء الى هنا لكى يمارس عملا هو أسوأ من مجزرة .. ولكن بأسلوب الكاهن ! .. جاء ليقدم هذا العمل قربانا لآلهته وأسلافه .. لكى يقدم لهم على مذبح التضحية امرأة لم تسىء اليه أو اليهم ، ورجلا أوغل فى هذه الاساءة ، لكنه يؤدى واجبا مقدسا أكثر مما ينال ثأرا ، وتلك هى العدالة الصينية

وقد تبدو هذه العدالة غريبة للناظر . لكن لعـــل لها بعض التفسير فى هذا المثل المتواضع . فاننا نجتث جذور الشجرة الفاسدة جميعا ونحرقها بلا رحمة ابقاء على الحديقة أن يشيع الفساد فى أرجائها ..

وما كاد « فو » يفرغ من عبادته حتى جاء « آه ســـنج » ووقف ينتظر وكأنه يقول لسيده أن أوامره قد نفذت بحذافيرها

فقال « فو » بلهجة مستطيرة :

ــ بديع ! .

ثم ألقى بخورا فى نار الهيكل .. فانبعثت سحائب دخان معطر أزرق اللون أخذت تتكاثف فى أرجاء الغرفة حتى اكتست جميعة بغمامة زرقاء زاهية اللون ..

وقال « فو » لخادمه :

ــ جىء به الآن ! .

وجلس الى الطاولة ينتظر ساكن الوجه جامد الملامح .

وقد فاه « آه سنج » ببضع كلمات الى خادم كان ينتظر فى مدخل الغرفة .. وسرعان ما ســمع حفيف أقدام فى المشى .. فقد كانوا يستقدمون بازيل جريجورى الى حضرة « فولى شانج » .

ولم يكن كلاهما قد رأى صاحبه أو اتصل به أدنى اتصال منذ أن انحنى « فو » وحمل نانج بينج من الارض حيث خرت مغشيا عليها عند قدمى بازيل .. ومن ذلك الحين انقطع اتصال الاسير بالعالم الخارجى .. وكان الخدم يجيئونه بالطعام .. بيد انهم لم يخاطبوه بكلمة واحدة ولم يبد انهم كانوا يسمعون ما كان يوجه اليهم من كلام .

وقد تركت الساعات التى أمضاها فى المعبد أثرها فيه .. فبدا مهدم الاعصاب ممتقع الوجه .. وكان مقيد اليدين يحرسه خادمان صينيان عن اليمين وعن الشمال .. وما كاد الثلاثة يصلون الى مدخل الغرفة حتى استوقفهم « آه سنج » .

ولم يكن بازيل جريجورى يرتاب فى أنه ملاق حتفه . لكن ما كان يروعه حقا ويفعم نفسه هلعا ويأسا هو ما سوف يلقى من العذاب قبل أن تحين منيته ..

أما النبيل الصينى فقد جلس مكانه وراح يتطلع الى الاسير بنظرات غريبة ، وقد تقوست شفتاه وامتلأت نفسه تقززا . ترى ماذا رأت فتاته فى هذا المخلوق وهى التى نشأت فى مجالى العظمة الصينية والنبالة العريقة الممتدة فى بطون الاجيال ، والتى كان يمكن أن تصاهر الامراء والملوك ؟ . لقد طالما شهد امثال هذا المخلوق فى اكسفورد ، فعرف فيهم كائنات ضيقة العقل ، محدودة الفكر تجردت من الثقافة والتسامى . ولاجل هذا اللا شىء الانجليزى . هذا الكائن التافه الذى لا يستأهل شرف انتقام «فو» وسحقه تحت قدميه ــ لاجله ، حطمت كبرياء الوالد الذى كان يعبدها ، ومرغت كرامته فى الوحل ، والبسته ثوب الخزى والعار !

كان ألم « فولى شانج » أشد لذعا وانكى وقعا من ألم بازيل جريجورى .. ولا عجب .. فان الصينى كان أوفر رجولة ، وأبلغ نصيبا من العقوبة .

اذن لقد قضت نانج نحبها فى سبيل هذا الكائن ! . وانزلقت الى أسفل درك فى حضيض السقوط الى حيث يعز عنها الصفح والغفران والرثاء لاجله ! . ولطخت والدها وأجدادها الامجاد بوصمة العار الابدى ، لاجله ! . وقد كان يمكن أن تصبح زوجة « لرجل » . وتتمتع بالعطف والمحبة كما تمتعت أمها من قبل ، وتنجب أبناء صينيين ينسجون على منوال أسلافهم العظام ! ..

كاد جلد « فولى شانج » يتفطر تحت وطأة هذه الخواطر المريرة . وسكونه يتزايل . وجاش الحزن والغضب فى صدره فكاد يخنق أنفاسه ويصدر من فيه جحيما مستعرا لا يبقى ولا يذر .. بيد أنه كان حديدى الاعصاب ، فتمالك ، وقال فى لهجة ناعمة :

ــ لا بأس ، هل تشعر الآن بتحسن فى أصابعك ؟ .

ــ لو كنت مطلق اليدين لاخمدت أنفاسك .

قاه بازيل بهذه الجملة لكي يخفي رعبه ، لكنه كان يعني ما قال حقا فقد كانت نفسه تضطرم غضبا على « فو » ، ولا غرو فان المسيء قلما يعفو ويصفح ! .

وقال الصيني في ازدراء وانفة ردا على كلام الاسير :

ــ هذه لغة الشباب المندفع ! . لكني ساتسامح ، ولعلك تسلم معي بانك قد لقيت حتى الآن معاملة رحيمة بالقياس الى ما تعرفه عنا من التفنن في التعذيب .

فقال بازيل في سخط وقد ارتجفت شفتاه :

ــ أعلم انك لم تستنفد بعد عبقريتك .

فقال « فو » في لهجة عذبة :

ــ ابدا ..

ــ ذلك ما كنت اظن .. ولاجل هذا الغرض جيء بي الى هنا .

فأجاب الصيني ببرود :

ــ الى حد ما ، ولكي أعدك أيضا لصدمة تنتظرك .

فقال بازيل متكلفا عدم المبالاة :

ــ تعني الموت .

فأجاب « فو » :

ــ لا أحب من هذا الى نفسي .

الفصل الحادي والثلاثون

يا قذر !!! .

قاه « فو » بهذه الجملة في لهجة هادئة هي اشد قسوة من الاحتدام والانفعال .

فقال الشاب في قنوط :

ــ لا بأس .. لكنك ستحاسب عن كل هذا . ان والدي ..

فقال الصيني في رقة :

ــ انت واهم ايها المفسد . انا لا اعد اباك رجلا يخشى بأسه . وقد تمت بيني وبينه اليوم مقابلة ظريفة فاستصغرت شأنه واستهونت كفاياته .. ان « هونج كونج » قائمة على قدم وساق لاجلك .. او صحفها على الاصح .. وجدرانها حافلة بصورك .. بل يمكن مشاهدة هذه الصور هنا .. وهي صورة لطيفة حقا .. صورة شاب وسيم مليح .. صورة مقو مفسد !

لم يستطع فولي شانج الآن أن يكبح جماح نفسه . وانذرت العاصفة المحتدمة فى نفسه بالثوران والانفجار . فنهض من مكانه وأخذ يروح ويغدو قليلا كالنمر يتحفز للانقضاض فى الظلام .

حزت الكلمات الاخيرة فى نفس بازيل جريجورى . على أنه لم يعف نفسه من اللوم .. فقد انحي على نفسه بمثل هذا الكلام فى المعبد .. ذلك المعبد اللعين . وراح يقول :

ان ابنتك أحبتنى . وكلانا فى مقتبل العمر . ولولا أن جنسيا لا يمتزجان لـ ..

وقف « فو » فى مكانه فجاة ، وتطلع الى الشاب ، وقاطعه بأنفة :

ـ .. لتزوجتها ؟ .

فقال بازيل بلهجة اليقين :

ـ نعم . ان كانت راغبة .

فقال « فو » ساخرا :

ـ ما أظرف هذا الرأى ! . اذا سقطت المرأة عندكم وتلوث شرفها قالوا ان الزواج يجعل منها « امرأة شريفة » .. وهذا رأى غريب ! . وهو فى نظرى فكرة سخيفة . وهى أشبه بتضميد جرح متقيح باوراق ذهبية ! .

أما عندنا ، فمتي تلوث شرف المرأة . فهو لا يبرأ من لوثته أبدا كالزهرة النضرة العطرة .. تتناثر أوراقها فى مهب العاصفة ، فيستحيل جمعها وردها الى فرعها لكى تعطر الجو بشذاها ويتلألأ الطل فوق أكمامها ..

لو أن الزواج ، من مثلك ، يجبر ما تصدع من شرف فتاة ؟ فماذا يجبر شرف أب وبيت تلطخ بهذه اللطخة ؟؟ لا شىء ! .. ولم يبق أمامى سوى الثأر .. وأنا الآن أنال ثأرى .

وانثنى ورمى الاسير التعس المرتعد بنظرة لو وقعت على رجل أقوى جلدا وانقى صحيفة لتزايل .. وكانت كلماته تنساب من فيه كأنها حيات تسعى .

وبلل بازيل شفتيه .. وعالج الكلام .. ولكن خانه جنانه ، وانعقد لسانه .. بينما استطرد « فو » :

ـ مهما يكن ، لقد أردت أن أقول لك انه رغم ذيوع نبأ اختفائك فان آخر مكان يبحثون فيه عنك هو مقرك الحالى ، أو المؤقت .. وأقول « المؤقت » لان كل شىء فى هذه الحياة موقوت .. حتى الحياة نفسها .

وقد يمكن ان تموت وتدفن هنا ، وان كنت لا اقرر ان هذا سيحل بك حقا ، دون ان يدرى احد خارج بيتى .. وان كلمة واحدة منى كفيلة بأن تنقلك بجوار المعبد حيث تصلب ، حتى تنهش جوارح الطير أمعاءك وتسيل عينيك ، دون ان يرتاب احد فى أمرك ، واذا ارتابوا فلا يجسرون على شىء ..

هل تستند الى رجال حكومتك ! . هم عاجزون من كل شىء .. وسواء فى ذلك رجال حكومتى .. وحتى لو شاءوا ان يقوموا بعمل لا يجسرون ، فان فى وسعى فى غضون ساعة واحدة أن أؤلب نصف الصين عليهم واثيرها حربا شعواء تقوض نفوذهم

ولهذه المناسبة ، لقد قضى على والدك ، فان سفنه تغرق .. وسمعته المالية قد دكت وانهارت .

نحن هنا فى الصين نأخذ الآباء بجريرة الابناء . ونعاقبهم عن ذنوبهم وقد عاقبت آلهتنا روبرت جريجورى بجرمك وجرمه ، اذ أنجب « مثلك » وجاء به الى الوجود ، واذ يسىء كل يوم الى أبناء وطنى بصلفه وقحته .

لا بأس أيها السيد الانجليزى الشريف . ان مقابلتنا توشك أن تنتهى . فما الذى تحب أن تقوله ، اذا مكنتك أعصابك المضطربة من الكلام ؟ .

فقال بازيل فى ذلة وانكسار :

ــ هل .. هل تمنحنى مكرمة ؟

فضحك « فولى شانج » عاليا ، وقال ساخرا :

ــ يا لك من متفائل !.. تكلم ..

فقال بازيل فى صوت متهدج :

ــ ذلك أن تدعنى أكتب رسالة لوالدتى ، قبل .. قبل أن يحدث لى شىء .

فقال « فو » فى لهجة رقيقة ، وان هزت أعطافه نشوة الظفر :

ــ لوالدتك ! ؟

ــ لوالدتى .. انى .. التمس منك هذه المنة ! .. وطبعا لن يذكر فيها اسمك ، ولا بيتك .

فضحك « فو » بينما استطرد الشاب المعذب :

ــ لكن .. اذا عملت على ايصالها اليها ..

واختنق صوته بعبرة قلبية .. فقال « فو » :

ـ اذن تحب أن تكتب الى أمك .. ؟ »
فهتف بازيل
ـ أواه ! . ضاعف ما اعددت لى من عذاب ! . لكن دعنى أكتب رسالة لوالدتى ..
فقال النبيل الصينى وهو يجلس :
ـ هذا طريف جدا .. بل شديد الطرافة ! . أما عن العذاب الذى أعددته لك ، فلن أضاعفه . لانه لا يضاعف .. فان الشىء اذا بلغ نهايته تعذرت زيادته ..
ثم ضحك ضحكة رقيقة واستطرد :
ـ اذن فانت تتلهف لكتابة رسالة الى والدتك . تلك السيدة الشريفة التى انجبت ابنا فى الزواج الشرعى !..

تكس بازيل رأسه .. ولم يقو الآن على مواجهة والد نانج ينج .. بينما استطرد الصينى بلهجته الرقيقة :
ـ ما أظنك تحسب أن تقديرى لك سيذهب حتى الى أكثر من هذا الحد !.. فهل تحب ، لا أن تكتب الى أمك ، بل تراها ؟..
ـ أراها !..
ـ لأنك ستراها ..
فهتف بازيل وهو يرتعد بعنف شديد :
ـ أراها !.. أواه يامستر (فو) !..
فقال (فو) فى تؤدة ، وبلهجة التوكيد :
ـ نعم .. ستراها .. وستراها عن قريب .. بل قد تعود معها الى الفندق هذه الليلة وتبحران الى أوربا فى الاسبوع القادم .. هذا شىء كثير الاحتمال .
ـ أواه يامستر (فو) !.. انى لأفعل كل ماتريد !..
كانت قسمات وجه الشاب تختلج بعنف . وكادت تجحظ عيناه الملتهبتان المروعتان ..

كان رد الفعل عنيفا .. وكان شعوره فى هذه اللحظة أقرب الى شعور الجائع يهبط عليه الطعام الموفور فجأة من حيث لايدرى ، أو الظمآن يفتح عينيه على غدير رقراق يجرى فيه الماء العذب النمير .
تقدم الشاب خطوة الى الامام فى لهفة . وتركه الخادمان يفعل .. ولم يبد (آه سنج) أدنى حركة . وقال بلهجة الجد :
ـ اذا اعطيتنى ابنتك ..
لكن نظرة واحدة من (فو) أسكتته . فقد نهض من مكانه ، ودنا منه .. وقال بلهجة مرعبة :

ـ أعطيك ابنتى !. لم تبق لى ابنة لكى أقدمها لك ؟ أو لأى انسان !.

فتراجع الاسير وهو ينتحب . فقد فهم .. وهتف فى صوت مختنق :

ـ أواه ياربى !.

فقد أدرك أنه قتل فتاة وهبته كل شيء .. ووهبته طفلا . وتمردت نفسه عليه . واستنزلت عليه اللعنة .. ولطمته بقولها :

ـ ياقذر !!

الفصل الثانى والثلاثون

شريعة الصين

خيم صمت مروع .. وراح كلاهما يحدج صاحبه بعينيه ، ويقيسه بنظره .

أحدهما جاء بنانج بينج الى الوجود . والثانى كساها ثوب العار والفضيحة .

وكلاهما سقاها كأس الموت .. أحدهما فى سبيل حبه . والآخر تطهير الشرفة ..

وكان بازيل يتطلع الى عينى «فو» دون أن يقوى على تحويل نظره عنه بهرا ورعبا .

وجعل (فو) يحدجه بنظرات هائلة . ثم تحول عنه وقصد الى الهيكل متمهلا .

فألقى فى ناره بخورا جديدا . وسرعان ما انبعثت سحائب الدخان الزاهية اللون حتى ملأت فضاء الغرفة .

ثم انحنى أمام الهيكل .. وعاد أدراجه . وقال فى صوت مختلف النبرات :

ـ لكنى كنت أتحدث عن أمك . أنا منتظر حضورها هنا .

ـ منتظر حضورها !. هنا !.

فردد الصينى كلمته :

ـ هنا .

فقال بازيل : اذن هم يعرفون ..

لكنه لم يستطع أن يتم جملته . فقال (فو) بصوت خافت :

ـ كلا . هم لايعرفون . وأمك قادمة الى هنا ، ضيفة عندى ، لكى تعرف ، فيما تعرف ، حقيقة مافعلت !.

فقال بازيل بصوت أجش ، ونبرات تشف عن الابتهال !

ـ هلا كفيتني ذلك !. ان الصلة بيني وبين امى اقرب الى مابين الاخ وأخته .
انتهز (فو) هذه الفرصة للضرب على النغمة الهائلة التي كان يريدها . فقال:

ـ نعم .. فهي في نضارة الشباب ، ومقتبل العمر ..
ـ قل لأبي ، اذا شئت ..
فقال «فو» بحدة :
ـ أبوك !..
ـ نعم .. قل له .. لكن ..
فقال فولي شانج بلهجة صارمة :
ـ لاشأن لي بأبيك ..
ـ لكنك قلت ..
ـ قلت ان أمك آتية الى هنا .. آتية .. وحدها .. هي أم وفية متفانية .. وسأختبر وفاءها وتفانيها ..

خيم الصمت مرة ثانية وكان المعنى المروع في خلالها يستقر في نفس بازيل رويدا .. فهو لم يفهمه أول الامر ، ولم يستطع أن يفهمه لأول وهلة .. بيد أنه أخذ يتسلل الى نفسه شيئا فشيئا ، وأحس به يحز في صدره ويخنق أنفاسه .. وفي أثناء ذلك وقف (فو) يتفرس فيه مليا وقد نمت عيناه عن أهول آيات الحقد والضغينة ..
ثم صرخ الشاب وهو يتلوى :
ـ يا .. ياوحش !!..

دنا منه «آه سنج» واقترب الخادمان عن يمينه ويساره .. بيد أن ملامحهم جميعا كانت مثال الجمود ..
وقال (فو) ضاحكا :
ـ ولم لا ؟.. لكل أمة أساليبها وطرائفها !.. هنا في الصين تضحي البنت بنفسها لاجل أبيها ، أو يضحي الابن لاجل أمه .. أما أنتم يا معشر الانجليز فانكم تعكسون الآية .. فتتقدم الأم نفسها على مذبح التضحية في سبيل ابنها ..

ـ يا لك من وحش جهنمي !.
فاه بازيل بهذه الجملة وهو يصرخ ألما .. ووثب في نفس اللحظة وثبة قوية وخلص احدى يديه من القيد بمجهود جبار وصوب ضربة عنيفة بها .. لكن (آه سنج) انحنى بين الضارب وبين «فولي شانج» دون أن يفقد وجهه شيئا من سكونه . ووثب

الخادمان معاً وأمسكا بالشاب فشلا حركته . بينما صاح (فو) بشراسة :

ـ العين بالعين !. والسن بالسن !. ذلك ماالقنتمونا !. اما في شريعتنا ، فامرأة بامرأة !.

حجب بازيل وجهه بيده ، ومال به فوق كتفه .

ووقف (فو) لحظة يتفرس في الشاب بنظرات هائلة .. ثم راح يخاطب (آه سنج) بالصينية ، وكان التابع يقابل أوامره بهزات من راسه تدل في معناها على انه سينفذ تعليماته بحذافيرها

ثم تقدم النبيل الصيني الى الناقوس النحاسي الكبير وطرقه مرة واحدة وقال للتابع كلاما شفعه بدق الناقوس مرتين آخريين . فكشف بازيل عن عينيه ورفع رأسه ووقف ينظر وينصت مبهوراً مشدوها . ولما فرغ (فو) من القاء أوامره وتعليماته انحنى (آه سنج) بخضوع وغادر الغرفة من باب غير الذي جاءوا منه . والتفت (فو) الى الشاب الانجليزي قائلا :

ـ أنت لا تفهم لغتنا الهمجية . لقد أصدرت الاوامر لخدمي ان يخلوا سبيلك حين يسمعون دقات الناقوس ، لكي تجيء الى هنا ، وحيث تجد أمك ، وسيكون لقاء حافلا هائلا . عد الى المعبد . وانتظر بين جدرانه !. وفكر في ابنتي !. وانصت الى دقات الناقوس فان رنينه سيقترن بتحريرك واطلاق سراحك . وعند ذلك تفتح أمامك كل هذه الابواب ، وتكون حرا في الذهاب . الى حيث تشاء .. معها .

قال بازيل لاهثا ، ذاهلا ، مشدوها :

ـ معها !؟.

فأجاب (فو) وهو يبتسم في ايجاز :

ـ نعم .. فاذا دق الناقوس ، وفيت دينك كاملا .. فستوقية أمك .

بذل بازيل جهدا هائلا للوثوب على (فو) ، وقال وهو ينتحب :

ـ أيها الوحش الضاري !. أيها الوحش الجهنمي !.

فقال الصيني بهدوء :

ـ هو ذاك . ان لكم معشر الغربيين منطقا يحير العقول !.

وراح يقول في شراسة :

ـ لقد لطخت ابنتي بالعار ..

بيد انه كف فجأة عن اتمام جملته . فانه ليربأ بنفسه عن اضاعة الجهد مع هذا (الشيء) الانجليزي . وانه ليعاقب . ويضرب في

غير رحمة .. ويمزق حتى العظم .. لكنه لايجـادل ولا يحـاج فريسته .
ثم استطرد :
ــ سيرن فى اذنيك صوت هذا الناقوس ماعشت !. وستسمعه اينما وليت وجهك !. واينما ذهبت ، سيصافح عينيك يقظان او نائما مشهد معبد قريب من بحيرة لوتس !. حتى اذا حان اجلك ، شعرت بمدى انتقام (فو) وحقيقة ثأره وقصاصه !. وما من مرة تنظر فى وجه أمك الا رأيت وجه نانج بينج الصريعة .. ووجهى ..
قال بازيل وهو يتأوه استعطافا :
ــ أواه !. لايمكن .. لايمكن أن تأتى هذا الفعل المروع !.
فقال النبيل الصينى بلغته :
ــ خذوه !.
لم يفهم بازيل الكلمة .. لكنه فهم مدلولها . وجره الخادمان الى الخارج وقد عقد الرعب لسانه ، وشل حركته .
ووقف (فولى شانج) جامدا فى مكانه . وسمع أبوابا تقفل .. وأصوات أقدام تتلاشى . لكنه لم يتحرك .
كان يفكر فى نانج بينج .. لا كما رآها لآخر مرة ، وكما عرفها أعواما طويلة .. بل كما كانت طفلة ضاحكة بريئة ..
ثم انتقل به الفكر الى تلك الطفلة الاخرى الحبيبة الى قلبه ، الاثيرة عنده ، تلك الطفلة التى تزوجها فى بكين ، فانتابته عبرة قوية صامتة هزت كيانه هزا عنيفا ..

الفصل الثالث والثلاثون

وحيدة فى الصـين

قال (آه سنج) لسيده وهو ينحنى أمامه باحترام عميق :
ــ جاءت السيدة .. وهى تجتاز الحديقة .
فقال (فو) :
ــ أدخلها ..
فعاد (التابع) من حيث جاء تاركا الباب مفتوحا على مصراعيه ، وخرج (فو) كذلك وهو يرفع يديه عاليـا أمام الهيكل ، وغادر الغرفة من بابها الرابع وأغلقه خلفه باحكام ، ودلف الى غرفة نومه .
وبعد لحظات عاد (آه سنج) وانحنى أمام مدام جريجورى يدعوها الى الدخول .. فتقدمت فى لهفة تتبعها (آه وونج) .
ورغم انها كانت ملقية بكل عنايتها وتفكيرها الى المهمة التى جاءت لأجلها فلم تتمالك أن دهشت من روعة الغرفة واخذت

بفخامتها وابهتها ، لولا انشغال بالهـا لاستخفها الطرب لمرآها وامتعت النفس والعين من مظاهر جمالها .

وجعل (آه سنج) يتفرس فى السيدة بنظرات مبهمة وهى تتنقل معجبة فى أرجاء الغرفة ، ولم يغب عن عين (آه وونج) التى كانت تراقبه بدورها ان نظراته كانت صريحة مكشوفة ، وفيما كان يغادر الغرفة تبادل الخادمان الصينيان نظرة طويلة رصينة ، واغلقت (آه وونج) الباب خلفه .

وقالت مدام جريجورى وهى تفك معطفها وتخلع قفازها :

ـ ما أشد الحرارة هنا .! ترى أين ذهبت مضيفتى !.ماأعجب أمر هذه المخلوقة المضحكة !.

ووضعت يدها لحظة على ذراع الخادمة قائلة :

ـ أنا مسرورة لوجودك معى يا آه وونج .

ثم تناولت الخادمة القفاز والمعطف ، فدست الاول فى داخل الثاني ووضعت المعطف فوق ساعدها ، بينماراحت مدام جريجورى تتنقل فى أعياء بين جوانب الغرفة .

وأخذت آه وونج تفحص الغرفة بنظرات عاجلة .. وما كادت ترى النافذة العليا الضيقة حتى بدرت منها شهقة يسيرة ، ودنت من مدام جريجورى ولمستها دون أن تنبس بكلمة ، ولما انثنت السيدة ونظرت مستفسرة أشارت الخادمة أشارة تغنى عن البيان الى النافذة العالية ، وما لبثت ان نظرت الى الابواب ، ثم ادنت مقعدا الى جوار النافذة دون أن تحدث أدنى صوت ، بينما كانت مدام جريجورى تراقبها فى عجب واهتمام ، وجعلت الخادمة تشير مرة ثانية من المقعد الى النافذة ثم منها الى المقعد ، ثم دفعت يدها فى ثيابها وامسكت بشيء مخبأ فى داخلها وأدنت وجهها من اذن سيدتها .

بيد ان اذنها الحادة سمعت صوتا يسيرا ، وما أن أقبل (فو) من غرفة نومه حتى كانت (آه وونج) واقفة على مسافة من سيدتها ساكنة الوجه ولكن مستاءة متبرمة ، مشبكة اليدين فوق صدرها .

ووقف النبيل الصينى فى مدخل الغرفة يراقب فى رزانة وسكون وهو هادىء ساكن كأنه كاهن .

وشعرت فلورنس جريجورى بوجوده ، فاستدارت فى لهفة وحفاوة ، بيد انها لم تكد تراه حتى تراجعت قليلا وهى تلهث دهشة

لقد رأته فى هذا اليوم فى (هونج كونج) .. فبدا فى نظرها غير

انجليزى . أما الآن فى بيتــه وهو مرتد ملابسه الرائعة الفخمــة وممسك بيده مروحته الدقيقة المصنوعة من الحرير والعاج ومتحل بهذا العقد النفيس المدلى حول عنقه ، فقد لاح لها صينيا قحا همجيا ، مجهولا منها .. وأحست وحشة قوية .

وما لبث (فو) ان حياها بمروحته ، وهى تحية صينية تغنى من الانحناء ، وقال لها باحترام :

ــ هذا فى الواقع شرف عظيم لايقلل من قيمته اننا كنا نترقبه .

فضحكت مدام جريجورى ضحكة عصبية ، بيد انها اطمأنت الى صوته بعض الاطمئنان ، وقالت له :

ــ لقد روعتني .. انى لم أكد أتوقع ..

فقال فى لهجة عذبة :

ــ هذا الزى ؟ ، انى أرتديته تكريما لك .. وان استقبالك فى بيتى بغير الزى الصينى هو اساءة الى واجب الضــيافة ، وأمر مستبعد . ان (هونج كونج) ملك لكم ، واذا ذهبت اليها فى بعض شئون العمل ارتديت الزى الاوروبى . وهذا أدعى الى راحتى .. لكننا هنا فى الصين . وأنت الآن فى الصين حقا ياسيدتى . وأراضى (كولون) المملوكة للانجليز تنتهى حدودها قبل دارى بياردة واحدة

ثم غير موضوع الحديث واستطرد :

ــ أخشى أن تكونى عجبت من غياب قريبتى .. لكنى أدعوك الى نبذ هذا الخاطر . فهى قد ذهبت لاصدار بعض الاوامر مبالغة فى تكريمك ، ولكى ترتدى ملابس أخرى لاتستطيع أن تظهر بها عند الباب الخارجى ، احتفاء بتشريفك .

فقالت مدام جريجورى :

ــ آه ! . لكنها كانت رائعة . وبدت ملابسها شديدة الفخــامة فى نظرى .

فلوح الصينى بمروحته شكرا لهذا الثناء ، بينما استطردت :

ــ وكريمتك ؟ .. أرجو ان تكون الآنسة (فو) بخير ؟ ..

فأحنى (فو) رأسه ، هذه المرة ايجابا .

ولم تستطع مدام جريجورى أن تصبر أكثر مما صبرت فقالت وهى تدنو منه :

ــ والان يامستر (فو) . ماعندك من انباء ؟ .

فقال بلهجة مطمئنة :

ــ كل خير .

وتقدم نحو الطاولة ، وأومأ اليها باحترام ان تجلس فى الناحية الاخرى .

فقالت في صوت متهدج وقد تنفست الصعداء :
ــ آه !. شكرا لله !. ولك يامستر (فو) !.

بيد أنها لم تجلس في المقعد الذى أشار اليه .. فقد كانت في أشد حال من التلهف والتشوق للوقوف على البيانات والتفاصيل .. وراحت تتنقل في أرجاء الغرفة قلقا ، آملة أن يتبرع (فو) من تلقاء نفسه بما يروى غلتها . ثم قالت وهى تنزع منديلها عن عنقها :
ــ (آه وونج) .. خذى منديلى .
كان المنديل من حرير رقيق .. بيد أنها أحست به يخنقها .. ولما أخذته (آه وونج) منها عادت الى مكانها ووقفت جامدة قرب الباب .
وانتظرت مدام جريجورى وهى تلهث قليلا .. لكن (فو) لم ينبس بكلمة .. فجعلت تجيل النظر في أرجاء الغرفة ، لا الى كنوزها وتحفها ، ولكن التماسا لما تقول ، فقد أشفقت أن تتعثر في الكلام
ولم يخطىء (فولى شانج) تأويل حركاتها .. لكنه تظاهر بأنه لم يفهم .. وقال لها في تودد :
ــ هل تعجبك كنوزى المتواضعة ؟
فحملت نفسها على الكذب حملا ، اذ قالت :

ــ جدا !. ولم أكن أظن ..
وكفت عن الكلام عاجزة عن ايجاد ماتقول .
فتطوع (فو) باتمام جملتها في رقة وطيبة :
ــ .. أن البيت الصينى تتوفر فيه وسائل المدنية !.
فقالت وهى تغتصب ضحكة يسيرة :
ــ بل بمثل هذه الرفاهية وهذا السمو .
فانحنى أمامها انحناءة فيها معنى التهكم والازدراء . بيد أن صوته كان يشف عن الاخلاص حين قال :
ــ مهما يكن ياعزيزتى مدام جريجورى ، فليس بين الشرق والغرب فارق كبير جدا .. بل ربما كنا معشر الشرقيين أرهف ادراكا للفنون . ومن المحقق أننا أكثر اهتماما بالطبيعة . لكننا جميعا متحدون في الرغائب ، والمطامع ، ومتساوون في العواطف من كره ، وأخذ بالثأر ، وحب !.

كانت نبرات صوته تسيل رقة وتفيض عذوبة حتى أجفلت الانجليزية وأرسلت اليه نظرة تنم عن بعض القلق .. وسرعان ماعاد صوته الى رنته المألوفة العادية ، وقال ببساطة :

ــ هلا تفضلت بالجلوس ؟. أم تحبين أن أصف لك بعض هذه التحف ؟. انك تتطلعين حولك وكأنك معجبة بها ؟.

فعالجت الكلام قائلة في تلعثم :

ــ نعم .. نعم .. تفضل .. ماهذه التحفة العجيبة ؟. هذه البطة الرائعة ؟.

فقال (فو) :

ــ آه .. هذه تحفة ثمينة حقا .. ولعلك تعلمين ان صناع الخزف الصينيين مغرمون بتصوير افراد مملكة الحيوان .

فقالت مدام جريجورى وهى تتكلف الاهتمام ، وتحدق الى التحفة الفريدة وان كانت لاتكاد تراها :

ــ لم أر فى حياتى أدق ولا أجمل من هذه الاداة الخزفية .

فقال (فولى شانج) باسما :

ــ وهى تحفة مقدسة كذلك .

ــ أحقا ؟.

فقال (فو) بلهجة ذات مغزى :

ــ هى رمز للوفاء الزوجى .

وضحك ضحكة غريبة خافتة .. كان لها تأثير سىء فى نفس فلورنس جريجورى ، ولكى تخفى ماساورها من القلق سارت فى الغرفة اعتباطا ، ثم وقفت مصادفة أمام سيف مدلى وراء الهيكل ، وقالت :

ــ وما هذا السيف ؟

فضحك ضحكة أوقفت الدم فى عروق (آه وونج) ، وقال :

ــ هذا ؟. نعم ، هو تحفة طريفة ، وله تاريخ عجيب ، بل تاريخ مخيف .

فقالت وهى ترتعد :

ــ آه !. اذن لاتقصه على ، لست أميل فى الوقت الحالى الى ..

فقاطعها (فو) قائلا بلهجة رخيمة :

ــ اذن سأوفر عنك هذا التاريخ ، مؤقتا على الاقل .

وراح يطوف بها فى جوانب الغرفة معددا مافيها من روائع التحف وعجائب الآثار ، ونفائس الفنون شارحا لها قيمتها فى عالم الفن أو عالم التاريخ . وكانت تتبعه ممثلته وان كانت ملامح وجهها تختلج انفعالا ، وقد تجاهل أول الامر حالتها ، ثم قال لها أخيرا وقد بدرت منها زفرة اليمة :

ــ لكن يظهر انى اضايقك بهذه التحف ..

ورد الاداة التى كانت بيده الى مكانهـا .. فبـادرت مدام جريجورى قائلة :

ـ كلا .. كلا يامستر (فو) ليس هذا هو الواقع . لـكنى جئت الى هنا لغرض واحد ..

فقاطعها برقة قائلا :

ـ بل لغرضين ياسيدتي .. لقد نسيت مدام (سنج) .

ـ آه . كلا . انا . لم أقصد ذلك حقا . أرجو عفوك . لـكن ولدى . ان فكرة واحدة تساورنى . هى سلامته !.

ثم قالت فى لهجة الاستعطاف :

ـ أنا لاأتردد فى المجىء الى هنا مرة ثانية ، بعد أن تتوثق بيننا أواصر الصداقة . بل أنا على استعداد للمجىء وقضاء سـاعات طويلة للاعجاب بكنوزك النفيسة .. اذا أذنت لى . أما الآن .. الآن .. فان فكرة واحدة تسيطر على ذهنى !.

وتهدج صوتها تهدجا مؤثرا . فقال (فولى شانج) باسما :

ـ لقد كنت انتظر يامدام جريجورى أن تصرفى خادمتك .

فتطلعت (آه وونج) الى سيدتها متوسلة . بينما نظرت مدام جريجورى اليه مجفلة دهشة . وقالت :

ـ أصرفها ؟. هل تقصد أن أبعدها عن هنا ؟.

فقال بغير اكتراث :

ـ من هذه الغرفة فقط .. يمكنها أن تنتظر فى الفناء .

فقالت مدام جريجورى متلعثمة وقد ساورها الجزع :

ـ لكن .. لكن لايمكن أن أفعل هذا .

فقال (فو) فى نبرات لم تصدر عنه حتى الآن :

ـ لكنى مع ذلك اتمسك بهذا الطلب .

وتلاقت نظراتهما . فأما عيناه فكانتا غامضتين مبهمتين .. وأما عيناها فقد بدا فيهمـا الرعب والاسـتعطاف . بينمـا دفعت (آه وونج) يدها فى صدرها وما لبثت أن انزلتها فورا .

وعالجت مدام جريجورى الكلام قائلة :

ـ لكن هذا طلب غريب يامستر (فو) . فى هذه الظروف !.

فقال بلهجته الساكنة :

ـ أبدا . هل تألفون فى انجـلترا أن تصـحبوا خدمكم الى صالونات أصدقائكم ؟.

فأقرته بلهجة عرجاء قائلة :

ـ كلا . كلا . لكن هناك فارقا على وجه ما .. احسب انه فى الظروف الحالية ، ولغياب مدام (سنج) .

لم يعقب (فو) بشيء على غياب قريبته .. لكنه قال بلهجة التوكيد :
ـ لايمكن أن أسيء الى أرواح أجدادى بالجلوس فى هذه الغرفة مع وجود خادمتك ..
ـ أجدادك يامستر (فو) ؟ مادخل هذا فى موضوع عصرى؟
فأجاب الصينى بهدوء مخيف :
ـ قلت انى أسيء اليهم بوجودها هنا .
فقالت فى ازدراء يسير :
ـ لاباس .. اذن لابد أنهم على حظ وافر من رقة المزاج !.
فقال (فو) بلهجة صارمة حتى لم تتمالك ان التفتت اليه منزعجة :
ـ يامدام جريجورى .. ان زوجك قد أساء الى هذا اليوم بما أبدى من عبارات غير لائقة نحو أجدادى .. ولست التمس له عذرا لانه يعرف الصين معرفة كافية .. أما أنت فلم تعرفيها بعد .. ولذا أرجو معذرتك اذا لفت نظرك الى أننا فى الصين نكن لاجدادنا أعمق الاحترام والاجلال ..
فقالت فى حرج شديد :
ـ آه !. أنا آسفة !. بل شديدة الاسف !. ولم يكن فى نيتى ان أسيء اليك بحال ما ..
فقال (فو) وقد تضمن سؤاله معنى الامر المحتوم :
ـ اذن هلا تفضلت بابعاد خادمتك ؟.
ترددت الانجليزية وهى فى حالة تعسة . واشتد انزعاجها . وقالت :
ـ لكن .. أعتقد يامستر (فو) أنى سأنصرف بعد قليل .
لم يعبأ (فو) بكلامها .. ولم يحفل لأول مرة بوجودها .. وصفق بيديه . فانفتح الباب وظهر (آه سنج) فى مدخل الغرفة .
فاه النبيل الصينى بجملة صينية موجزة لم تفهمها فلورنس جريجورى . لكنها فهمت بجلاء من لهجته أنه يأمر تابعه بمصاحبة الخادمة الى خارج الغرفة ..
وتقدم (آه سنج) نحو الخادمة بهدوء . فجعلت (آه وونج) تتراجع بظهرها نحو الباب متباطئة وهى تنظر الى سيدتها نظرات مؤثرة .. بيد أنها وقفت لحظة فى مدخل الغرفة ورفعت نظرها الى النافذة الصغيرة العالية وصوبت الى مدام جريجورى نظرة صريحة ، ثم أحنت رأسها وخرجت .
والواقع ان مدام جريجورى بادلت خادمتها نظرة بنظرة لكانتا امرأتين ازاء رجل واحد . واحداهما صينية .

الفصل الرابع والثلاثون

قصـة السيف

قالت مدام جريجورى بعد أن أغلق الباب خلف (آه وونج)
ـ ماكان يجب أن تفعل هذا . فهى شديدة التعلق بى .
فقال (فو) بايجاز :
ـ بلا ريب لكني اعتقد ان سلطتى اقوى من تعلقها
تزايد قلق المرأة . وقالت وهى تجيل نظرها فى ارجاءالغرفة اضطرابا :
ـ مااحسب انه كان ينبغى ان اجيء .. والآن يامستر (فو) ماذا لديك من انباء ؟.
فقال الصينى وقد استرد عذوبة لهجته السالفة :
ـ آه .. لا تدعى مثل هذه الحادثة التافهة تؤثر فى نفسك أدنى تأثير .
وفجأة صدرت من ناحية الحديقة موسيقى صينية حارة هى موجة من العواطف والمشاعر وما كاد (فو) يسمعها حتى وضع مروحته ووقف ينصت اليها وقدادار رأسه الى مصدرها،وراحت مدام جريجورى تنصت بدورها مجفلة ، وما لبثت أن انتابتها نوبة انفعال شديد ، فسدت أذنيها بيديها .. فسار (فو) خطوة نحوها وقال لها فى لهجة ناعمة :
ـ الا ترتاحين الى موسيقانا ؟..
فاجابت وهى تكاد تنتحب :
ـ كلا .. هى فظيعة ! . فظيعة !. أنا .. لا استطيع احتمالها كما أشعر الآن .
وتهالكت فى مقعد وهى فى حالة مؤثرة واستندت قليلا الى الطاولة .
ابتسم (فو) ابتسامة قاسية ، جبارة ، بيد انه سار نحو النافذة وأزاح مصراعها ، وفاه بالصينية جملة موجزة ، فانقطع صوت الموسيقى فورا .
وهتف مدام جريجورى :
ـ آه !. شكرا لك ..
فقال فى صوت غريب :
ـ يؤسفنى انها ازعجتك ، ربما كانت هذه الانغام ..
فقالت متنهدة :

ـ انها كانت شديدة الوطأة على أعصابي .
فقال النبيل الصيني :
ـ هذا من سوء الحظ ، لأن هذه الموسيقى جرت تكريما لك .
فعالجت الكلام ، وقالت وهي تجدل منديلها الصغير بحركات عصبية :
ـ يؤسفني اني لم استطيع تقديرها ، وارجو ان تصفح عني؟ فاني متعبة منهوكة الاعصاب ، والآن يامستر (فو) ارجو ان تخبرني أين هو ابني ؟.. ماذا تعرف عنه ؟.. أواه !.. ليتك كنت تدرك لهفة الأم ..
فنظر (فولي شانج) في عينيها وهو يبتسم ابتسامة تجمع بين السخرية والتدليل ، وقال :
ـ آه! . زهو الام المعهود من أقدم العصور !. طالما عجبت كيف تستأثر الامومة دون الأبوة بكل نصيب من المحبـــة ، والرقة ، والتكاليف ؟. وهذا مألوف عندكم كما هو عندنا !.
ثم اكتسب صوته رنة الصرامة ، واستطرد :
ـ ان الآباء يشعرون كذلك . ويحبون أبناءهم . هم يتدلهون . ويجزعون . ويخافون . ويقاسون !.
وضحك ضحكة يسيرة مريرة روعت المرأة .. ثم أردف في هدوء :
ـ كنت أود ان أقول يامدام جريجوري ان هذه الموسيقى التي عزفت تكريما لك هي احدى أغانينا الغرامية السامية ..
فقالت بلهجة عرجاء :
ـ أحقا ؟. لا بأس . أرجو الا يكون غرامكم في مثل ...
وكفت عن اتمام جملتها عجزا ... فانحنى(فو) فوق الطاولة ووضع يديه بينهما .. وقال :
ـ في مثل عنفها ؟. أو ثقلها ؟. أو حرارتها ؟. ماهي الكلمة التي أردت أن تعبري بها يا مدام جريجوري ؟..
فاه (فو) بجملته الاخيرة وهو يكاد يهمس اسمها همسا .. فنهضت من مكانها مذعورة . وهتفت في جنون وقد تمزق المنديل بين يديها :
ـ أواه يامستر (فو) !. أتوسل اليك أن ترحم أما تتعذب !.
زاد (فو) ميلا نحوها فوق الطاولة .. ثم وضع يده برقة فوق يدها .. وما كاد يلمسها حتى انهار تجلدها. فصرخت صرخة عنيفة .
أما (فو) فقد أجرى أصابعه فوق معصمها متوددا . وابتسم لها متحببا .. فقالت وهي تلهث :

ـ ساملأالبيت صراخا !.
فتطلع (فو) اليها بهدوء وهز رأسه أسفا .. ثم شبك يديه فوق ذراعيه ..
وذهبت صرختها هباء .. ولم يجبها غير السكون الشامل ..
فادركت غلطتها ، ورأت انخوفها يثير سخطه عليها. فغمغمت وهي مضعضعة الحواس مشتتة الفكر :
ـ لم أكن اقصـــد ذلك . وكل ما أردت هو .. اواه !. انى أتعذب من جراء هذه الحالة القلقة المعلقة .
وغلبتها عبرة قوية رغم تجلدها .. فتهالـكت فوق المقعد وانكمشت على نفسها وراحت تبكى كالطفل المتعب المذعور .

ووقف الصينى يراقبها فى صرامة . وكانت منكسة الراس لا ترى وجهه الذى لاحت عليــه دلائل العزم المـروع والتصميم الجازم . بيد أنه كان خلوا من علائم الرغبة . وما لبث أن سار فى الغرفة متمهلا وأوصــد النـافذة المطلة على الحديقة . وبذلك انعزلت هذه الغرفة عن العالم ، الا من النافذة العليا الضيقة .
كانا وحدهما تماما ..
وعاد الصينى ادراجه حتى وقف بجانبها . وقال لها بهدوء تام :
ـ ارجو ان تهدئى نفسك يا سـيدتى . ان هذا الضعف لا يليق بك ولا يصح ان يصدر امام مضيفك .
وتناول يدها بهدوء . فلم تمانع . ولم تحاول استردادها منه . ثم وضع يده الثانية فوق ساعدها واجلسها فوق المقعد وتخلى عنها .
وقالت المراة بصوت متقطع وهى تدفع يدها امام عينيها :
ـ أنا شديدة الاسف .. أنا .. أنا غير متمالكة أعصابى .. أرجو عفوك .. والان يا مستر (فو) .. أرجو ان تخبرنى .
فقال (فو) بلهجته الرقيقة :
ـ سافعل ما تريدين . صبرا !. ان الامور تجرى بطيئة فى الصين ان الصين سلحفاة العالم ، لا الارنب !. كنت أوشك ان أخبرك ..
فقاطعته متلهفة :
ـ نعم ..
ـ بقصة السيف .
عجزت مدام جريجورى عن كتمان تأوهها . بينما قال :
ـ السيف ذو التاريخ المروع ..

فقاطعته قائلة :
ـ أواه !. لا تفعل يا مستر (فو) !. أنا ... أنا لا احتملها الآن .
فقال فى اصرار :
ـ لكن لا ضرر فى ارجاء الانباء الطيبة يا مدام جريجورى وفى الوقت متسع .. وفوق هذا فان الشاى لم يقدم بعد ..
فقالت فى جنون :
ـ الشاى ؟. أواه يا مستر (فو) . لابد أن تعفينى منه .
ـ بل أرجو أن تعفينى أنت من هذا الطلب . طالما تناول اجدادى الشاى فى مثل هذه الساعة . ولا مفر من احياءتقاليدنا ولا ريب انك قد علمت أثناء اقامتك فى الصين أن شرب الشاى عندنا ، كتقليد من تقاليد الحفاوة ، هو عرف لازم .
فعاجلته بقولها :
ـ نعم . اعلم هذا . لكن ..
فاستطرد بلهجته الرقيقة :
ـ وعلى ذلك .. سأقص عليك قصة السيف ريثما يقدم الشاى ..
ودار فى مكانه كأنما يهم بتناول السيف .
وجلست مدام جريجورى منكمشة على نفسها مستندة الى الطاولة يكاد يقتلها الرعب والاعياء ، وتأهبت لسماع القصة .
وفجأة ترك (فو) السيف مكانه وانثنى اليها ووقف خلفها مستندا بيديه الى الطاولة حتى ليكاد يلامسها ، وقال وهو يميل فوقها :
ـ لابد انك تحبين ولدك حبا عظيما يا مدام جريجورى .
فنهضت من مكانها وواجهته وقالت فى صوت المسترحم :
ـ اواه !. كل الحب !.
فقال الصينى بهدوء :
ـ ولولا ذلك لما جئت الى هنا ؟.
فقالت فى شيء من الزهو :
ـ ولولا ذلك لما جئت الى هنا .
فقال فى لهجة مرعبة :
ـ وحدك . لكن محبة الام تستهون اى تضحية . اليس كذلك ؟!
فاجابت فى شيء من الكبرياء :

ـ ان محبة الام تستهون كل تضحية .
ـ ولو كان ولدك فى خطر ، هل كنت ..
فقالت الام فى كآبة :
ـ اوآه !. كنت اقدم .. حياتى .
فهتف الصينى فى لهجة هى اقرب الى الازدراء :
ـ حياتك !. ان الحياة رخيصة فى الصين !. اليس عندك اغلى من الحياة ؟.
فقالت فى أعياء وقد تخلت الان عن كل مقاومة املا فى أن تأتيها النجدة بين وقت واخر .. من (آه وونج) مثلا :
ـ ولم هذا السؤال ؟. وهل يوجد اغلى عند الانسان من حياته ؟.
فمال الصينى حتى لفحت انفاسه وجنتيها .. وقال يمهد لها سبيل الجواب :
ـ ليكن السؤال على هذا النحو .. ما الذى تعتز به المرأة وتحرص عليه اكثر من حياتها . او حياة ولدها ؟.
وكف عن الكلام ، لا انتظارا لجوابها فهو لم يكن يريد منها جوابا بل لكى يدرس تأثير كلامه المسموم فى نفسها ، ولكى يتشفى بمرآها .
ولم تستطع المسكينة بعد الان ان تتعامى عن الحقيقة ، وتلاشت قواها بعد أن استنزفتها هذه القسوة العامدة قطرة قطرة .. وأجالت عينيها فى أرجاء الغرفة فى لوعة وجنون . فرأت فى ذلك الوجه الناظر اليها نظرة لم يخف عنها مرماها ، فتراجعت الى الخلف مرتعدة ، بينما قال (فو) فى اصرار وهو يتراجع خطوة :
ـ متى تعيريننى اهتمامك يا مدام جريجورى ؟.
فاستجمعت اطراف شجاعتها الذاهبة ، وأجابت فى تجلد وهى تنهض من مكانها :
ـ سأعيرك اهتمامى متى اخبرتنى بما جئت لاجله .
فقال النبيل الصينى فى لهجته العذبة :
ـ أرجو ان تجلسى ، سأفعل ما تريدين ، لكن لابد أن تدعينى اختار طريقتى الخاصة .
تطلعت فلورنس جريجورى الى معذبها مستعطفة مترددة ، ثم تهالكت فوق المقعد ، بينما استطرد الرجل :
ـ ولذلك سابدأ بقصة السيف .

فاطبقت مدام جريجورى عينيها الموجعتين ، وضمت يديها الباردتين ، وجعلت تنتظر .
وسار الصينى الى السيف وتناوله من مكانه . وما كاد يتذكر كيف امسكه لاخر مرة حتى تصلب وجهه . وبرد صوته ووقف أمامها مسند السيف على طرفه بينهما . وقال :

ـ هذا السيف كان ملكا لاحد اجدادى الذى عاش منذ اجيال بعيدة ، وما زلت اذكر ان اسمه كان (فولى شانج) . وربما احببت أن تفحصيه عن كثب .
كانت نبرات صوته تشف عن الامر . فاطاعت المراة .. ورفعت راسها قليلا وركزت عينيها الموجعتين فى السيف الذى امسك به أمامها موجها حافته نحوها .. ثم استطرد

ـ سأريك السيف ثم أرده الى مكانه . ولعلك ترين انحده فقد حدته .. وأنا محتفظ به لما له من قيمة تاريخية عندى .
ووضع السيف فوق الطاولة بينه وبينها وكأنه يضع وثيقة خطيرة . وجلس أمامها . وراح يقول بصوته البارد المتسق النبرات :

ـ كان لجدى ابنة وحيدة رائعة الجمال يعبدها عبادة ، وكانت سلواه فى حياته وقرة عينه . حتى اذا أراد أن يزفها ذات يوم الى نبيل صينى كانت مخطوبة له ، اكتشف الوالد انها .. أن زواجها لم يعد ممكنا .

كانت ام بازيل فى هذه اللحظة ملقية بسمعها الى (فو) . فان صمع آلام شديد الحدة . بينما استطرد الصينى :
ـ وقد انتزع منها اسم عشيقها . ثم ذبحها دون ان يوجه اليها كلمة لوم أو وعيد ، وهى التى كانت مهجته وقطعةمن فؤاده ذبحها بهذا السيف .
تأوهت الانجليزية . فقد فهمت . وقال (فو) :

ـ ثم ذبح عشيقها بعد ذلك .. وذبح اخته . وأمه . واسرته جميعا . ان سيفى العتيد قد ولغ فى الدم يا مدام جريجورى !.
فاه الصينى بهذه الجملة وهو يجرى اصابعه فوق حد السيف فى محبة واعزاز .. فهمست مدام جريجورى
ـ لا .. لا تحدثنى اكثر من هذا ..
فرفع جريجورى السيف ووضعه فوق ركبتيه باجلال واحترام .. ثم قال بلهجة رصينة :
ـ لقد انذرتك ان له تاريخا مروعا .

فقالت وهى تطاول الوقت وتستجمع أفكارها المشتتة :
ـ نعم .. لا بأس ، الحمد لله اننا اليوم آكثر تمدنا وابعد عن الاخذ بهذه الاساليب الفظيعة !..

فقال (فو) باسما :

ـ بل أوفر إرتقاء ولا ريب .. والاساليب تتطور بتطور المدنية .. ولما كنت قد تثقفت بالثقافة الاوربية ، فانى لا الجأ الى مثل هذا الثأر الدموى اذا قدر لى ان اقف موقفا كهذا .. وفى اعتقادى ان جدى قد تنكب طريق الرحمة والترفق .

وكف (فو) عن الكلام .. وكان الضوء المتسرب من النافذة الضيقة العليا يتضاءل رويدا .. وكادت مدام جريجورى تختنق .. وازداد خفقان قلبها عنفا حتى لقد خيل الى (فو) انه يصل الى سمعه واضحا

ثم قال فى لهجة صارمة :

ـ ان جدى قد سلب الشرف ، فانتزع الحياة بديلا له .. وقد كان ينبغى له ان ينتزع من الاخت أو الام ذلك الذى تعتزان به اكثر من الحياة . هل سمعت يا مدام جريجورى ؟..

فقد دست المرأة وجهها بين راحتيها ومالت بيديها فوق الطاولة الى جانب السيف

ثم رفعت رأسها متثاقلة .. فاذا وجهها شديد الامتقاع ذاهب معالم الحياة .. وجعلت تتطلع اليه بعينين موجعتين مصعوقتين رعبا . فقال (فو) بلهجة الاسف :

ـ لقد ازعجتك .. ولو سمعني زوجك أو ولدك الفاضل .. للامنى كلاهما .. كانت قصتى طويلة . مستنكرة فى نظر سيدة انجليزية . غير انى لم اقل كلمة واحدة لا تدنينى من الموضوع .. فقد كان لى أنا ايضا ابنة ..

ـ كان !!.

ـ وقد أعاد تاريخ العائلة نفسه !.

خيم فى سماء الغرفة صمت رهيب مروع ، وما لبثت فلورنس جريجورى ان نهضت من مكانها منتفضة حين سمعت صوت باب يفتح .

ونهض (فو) كذلك ، وحمل السيف ورده الى مكانه قرب الناقوس ، ثم قال : ان الظلام ينتشر .

الفصل الخامس والثلاثون

فى المعبد وفوق المقعد الحجرى

لن يدرك بازيل جريجورى ما عاش كيف قضى ساعاته الاخيرة فى المقعد ، قرب بحيرة اللوتس .

ان ذكرى هذه الساعات لن تبرح ذهنه ما ترددت انفاسه بين جنبيه ، هى ذكرى مقرونة بالفزع والرعب كلما تجددت او ألمت بخاطره .. ذكرى الانتظار المروع وهو جالس وحده معذب النفس موجع القلب يترقب حكم ذلك الناقوس الرهيب ينطق له بافصح لسان انه قد دمغ الى الابد ، واذلت كرامتــه ، ومرغت كبرياؤه فى الرغام .

لقد تفتق ذهن (فولى شانج) عن انتقام هائل لا ينمحى من الاذهان .

لم يذكر كيف اعيد الى المعبد .. وكل ما كان يذكره هو تلك المقابلة المروعة التى تمت بينه وبين النبيل الصينى ، وعلمه بمصرع نانج بينج ، وبهذه المحنة الرهيبة الشيطانية المدخرةلامه .. ثم شمله ذهول رحيم عدا على حواسه .

على انه ما كاد يثوب الى وعيه حتى كان عذابه لا يطــاق والمه اضعاف ما كانت تقاسيه أمه .. فهى امه وكفى .. وهــو يحبها .. وكانت رحيمة به ابدا .. حانية عليه دائما .. وكان بها فخورا مزهوا .. فهل يستطيع بعد الان ان يحس هذا الفخر وهذا الزهو .. لا ريب ان هذه التضحية ستلوثها فى نظر الابن الذى قدمت التضحية لاجله ، وتكفيرا عن جرمه . بل لا ريب أن حبه لها سيتضاءل نوعا وتغشاهسحابة بعد ان يدق ذلك الناقوس النحاسى دقاته المرعبة .. لقد استنبط (فولى شانج) انتقــاما هائلا رهيبا .

لم يكن بازيل جريجورى يعبأ بشرفه ، بل حتى بشرفاخته هيلدا .. أما شرف أمه !. فآه !. ثم اه !.

كذلك كان شأن بازيل جريجورى .. ومن على شاكلته من الرجال .. تهوى نفسه ويستمد كبرياءه وكرامته من النساء اللاتى هن من دمه . ولبعض الرجال موهبة فذة فى التعصب لشرف الغير ! .

امه !. أمه !.

جعل يلطم يديه المقيدتين فى جدران المعبد حتى سال دمه .

لو أن الذين يوشكون ان يضلوا ويحيدوا عن جادة الفضيلة

أوتوا من يصور لهم مثل هذا العقاب الهائل الذى استنبطه (فولى شانج) ويجسمه سلفا امام انظارهم تجسيما بارزا ، أذن لذللت اخطر مشكلة اجتماعيةودنت عقدة العقد واعضل المضلات من طريق الحل والمعالجة .

ولو ان الابناء الطائشين الانانيين الخائرى العزم الضعاف الارادة اتيح لهم ان يتوقعوا مثل هذا القصاص الذى يقاسي الان بازيل جريجورى اهواله النفسية ، اذن لصينت فضيلة الفضائل وتقدست عن التبذل والانحدار .

ان عار البنت او الاخت ليكوى بناره سواد الرجال .

وان عار الزوجة .. لكن .. لا بأس . هناك زوجات .. ورجال .

لكن عار الام !!. ما أهوله !. ذلك عار يطعن الرجولة فى الصميم وينال منها كل منال !.

لو خطر للزانى ان امه سيدمغ جبينها بميسم الزنا الاحمر القانى عقابا لها على جرم ابنها ، فاى الابناء يزنى ؟. ومن ذاالذى يفجر وينزلق ؟.

قليلون !.

***

كان المشهد الذى يمثل فى الغرفة المثمنة الاضلاع مروعا .

لكن خيال الاسير الوحيد فى المعبد قد جسمه تجسيما ، وبدا فى ذهنه المحموم المضطرب اعظم بشاعة واشد هولا .

كان (فو) جبارا فى انتقامه . رهيبا فى ثأره الوئيد الذى يناله ذرة ذرة . وقد تحطمت اعصاب المرأة التى كان يعذبهاوبدت هذه الساعة لعينها جيلا كاملا !.

أما فى عين بازيل وهو وحيد فى المعبد ، فقد بدت هذه الساعة اجيالا ودهورا !.

لكنه لم يكن وحيدا . فهذا شبح (نانج بينج) يقاسمه الان هذا المعبد كما قاسمته اياه من قبل !.

هذا شبح فتاة صينية تقف امامه ، رانية اليه بعين تفيض حبا واتهاما . عين يطل من خلالها الموت . والامومة !.

هتف وهو يحجب وجهه بيديه المقيدتين :

ـ اواه !.. نانج بينج !.. نانج بينج !.. اصفحى عنى !.. اغفرى لى !.

ثم رفع راسه صارخا . متسع الحدقتين رعبا وجزعا .. فقد لاحت لعينيه امه فى الغرفة التى تركها . حيثيوجد الناقوس و (فو) !.

وای امه ، والصینی یتقدم منها ، فلم یتمالك ان انثنی لاعنا شبح الفتـاة المنتصب امامه . الشبح التعس الملوث الشرف ، حامل الجنین فوق ساعدیه !

من مظاهر الضعف البشری المألوفة ان ینحی الانسان باللائمة ویلقی التبعة علی اكتاف غیره غضبا مما ینتظره من عقاب ومؤاخذة عن جریمته .

یقول الزانی : (المرأة اغوتنی . واذن فالـذنب ذنبها .. والجرم جرمها .. فعاقبوا المحرضة .. واتركونی !..)

(المرأة اغوتنی) .. تلك اقدم الشكایات !. وذلك أخس الدفاع والاتهامات !.

لكنه من نكد الحظ صحیح فی كثیر من المواطن .

ولئن كان لرجل فی الدنیا ان یلتمس فی هذا الدفاع شفیعا وعذرا لجریمته . فما ابعد هذا التشفع عن بازیل جریجوری !.

فان نانج بینج لم تفوه بحال . بل انها لم تبد له أدنی لون من ألوان الاغراء والتحریض وهما فی ابان غرامهما . ونشوة حبها له وافتتانها به .

وفی لقائهما الاول ، الذی سعی الیه بازیل سعیا وتوسـل الیه برد مروحة فقدتها (لوسونج) ، كانت نانج بینج فی طهـر الحمامة ، وحیاة زهرة النرجس .

وما كان اغراؤها الوحید سوی تحصنها المستملح ، وتماسكها عن السعی الیه والتماسه ، مما زاد فی هیامه وافتتانه بها .

ویوم أن قرر لها انه عائد الی أوربا ، فورا . وتاركها لكی تواجه وحدها الكارثة التی نسجا معا خیوطها . لم تنح علیـه بلوم . ولم تصرخ فی وجهه .. وقصاری ما فعلت أن قالت له بهدوء : (انك لن تعود) .. ثم ابتعدت عنه .. وولت وجههـا الی البیت فی سكون وجلال .

ان كان فی الدنیا عاشق یسوغ له ان یلوم عشیقته ، فلیس بازیل هو ذلك العاشق . حتی یحق له ان یسخط علی نانج بینج .

ولكنه لاجل امه ، وربما لاجله ، راح یلعن الفتاة التی لقیت حتفها فی سبیله ، وأخذ یسب ویصخب فی غیر طائل بین جدران هذا المعبد حیث نال منها . ووهبته كل شیء !.

كثیر أن یكون الانسان رجلا كامل الرجـولة .. وأن یبلغ ذروة الشهامة !.

وما اتعس المرأة اذا لم یحالفها حسن الحظ وطالع التوفیق !

***

وكان حظ (آه وونج) من سعادة الحیـاة تافها یسیرا ..

وطالما تاقت نفسها الى من يؤنسها ويواسيها ، فما ظفرت بغير الوحدة والانفراد .

فقد انتقلت من بيت والد قاس الى سلطان زوج غشوم .. ومات أولادها .. ولو عاشوا لما بشروا بخير .

ومع أن مدام جريجورى لم تعطها مما كانت تنشد سوى النزر اليسير . فقد ذاقت فى جوارها خير صحبة . واستمتعت بأطيب وقت . فحفظت لها فى نفسها أجمل الذكرى . وأفعم قلبها ولاء وامتنانا .

كانت « آه وونج » شكورة . وكانت وفية ، فأرادت ان ترد الدين وتوفى الصنيع . وكان لها من دهائها الصينى وانوثتها خير سلاح ..

وحين أقصيت عن داخل الدار جلست راضية فى الفناء وشرعت تشتغل بابرتها .

واذ كان هذا اللون من الشغل النسائى غريبا عن الصين فسرعان ما اجتذبت اليها خادمات الدار اللاتى أحطن بها فى عجب وفضول . وهو ما قصدت اليه « آه وونج » . ثم جئن اليها ببعض الطعام فجلست تأكل والنساء يلغطن من حولها .

ثم زعمت انها متعبة منهوكة القوى ، لان سيدتها الانجليزية تقسو عليها وتقتلها عملا . وأعربت عن مقتها للانجليز ونفورها منهم وان كانت تضطر فى سبيل القوت الى خدمتهم . لكنها رغم هذا التعب تحب أن تتفرج على روائع هذه الحديقة الفيحاء ما دامت قد جاءت اليها . وأخذت تتنقل فى شبه اعياء من مكان الى مكان ، ولكن فى دائرة لا تبعد عن الدار ، وهى تبدى شديد اعجابها بما تشهد . حتى اذا رأت تنينا هائلا منبطحا على الارض صيغ من أوراق النباتات .. لم تتمالك أن هتفت ذهولا . ومالبثت آخر الامر أن تثاءبت وقررت أن التعب قد بلغ منها كل مبلغ ، وجلست متهالكة فوق مقعد حجرى .

وما هى الا دقائق حتى استولى عليها النعاس ، فضحكت الخادمات منها وتركنها وحدها ..

ولم يكن هذا المقعد يبعد الا قليلا عن مكان النافذة الصغيرة العليا الكائنة فى الغرفة المثمنة الاضلاع .. غرفة جلوس النبيل الصينى ..

الفصل السادس والثلاثون

المروحـــة

قال « فو » وهو يرد السيف الى مكانه :
ـ ان الظلام ينتشر ..
ودخل ثلاثة خدم من الباب الذى فتحه « فو » .. اثنـان يحملان أدوات الشـاى ، والثالث المكلف بالانوار .

ووضعت ادوات الشـاى فوق الطاولة . وراح الخادم الثالث يتنقل فى ارجاء الفرفة . وما هى الا لحظات حتى انبثقت عشرات الانوار الخفية العجيبة فى أرجائها .. انوار تضىء ، ولكن لا تنظرها العـين ..
وجعلت فلورنس جريجورى تراقب هـذه المشـاهد مبهورة جامدة ، وادركت أنه من العبث أن تستنجد بهؤلاء الخدم .. فهم آلات صماء يحركها سيدهم الآمر الناهى ، ولن تجنى من ذلك غير السخرية والاستهزاء .

على انه ما كاد الخدم ينصرفون والباب يغلق خلفهم وأدركت فلورنس انها عادت الى وحدتها مع « فو » حتى وثبت واندفعت نحو الباب ..
وجعل « فو » يراقبها باسما .. ثم قال لها وكأنه يخاطب طفلا جامحا :

ـ تعالى .. لقد أعد الشـاى ..
فانثنت طـاعة لصـوته .. ونظرت اليه وقالت فى لهجـة الاستعطاف :
ـ لا أستطيع يا مستر « فو » ! .. لا أستطيع ! .
فتجاهل كلماتها ، واخذ يصب الشـاى .. وقال :
ـ يوجد سكر وزبدة .. كالطريقة الغربية تماما ..
فرددت كلماتها متبرمة وهى تدنو من الطاولة وتراقبه :
ـ لا .. لا .. لا أستطيع .. أرجو أن تحدثنى عن ولدى ؟ وتدعنى اذهب ..
فرفع النبيل الصينى قدحا من الشـاى وقدمه لها وهو يقول فى أدب رصين :
ـ أرجو أن تقبلى هذا القدح يامدام جريجورى ..
ولمـا رآها معرضة عن القدح وضعه فوق الطـاولة وأردف وهو يبتسم ابتسامة يسيرة لاذعة :

ـ آه ! .. فهمت .. لعلك تفضلين رؤيتي أشرب قبلك .
ورفع قدحه الى شفتيه وشربه جرعة واحدة .. وقال لها :
ـ ربما كان هذا يبعث الطمأنينة في نفسك ..
وملأ قدحه للمرة الثانية .. واستطرد :
ـ أرجو أن تتناولي الشاي .. انه ليس منعشا فقط .. بل أن شربه كذلك تقدير لواجب الضيافة ..
فوقفت تنظر اليه في تبلد .. ثم تهالكت فوق المقعد وتناولت منه القدح .. وتناول هو قدحه ..
وفيما هي تحمل نفسها حملا على الشرب ، وهو يوشك أن يرتشف من قدحه .. قال لها بلهجته العذبة :

ـ الا تشعرين بفضول يا مدام جريجوري ، لمعرفة اسم مغوى ابنتي ؟ ..
فوضعت الانجليزية القدح بحركة سريعة ويد مرتعدة ، وحاولت أن تغمض نظرها ، بيد أنه سمرها بنظراته .. فقالت متلعثمة :

ـ لست فهمك .. ان .. ان حالتك شديدة الغرابة ! .
لم يفه النبيل الصيني بكلمة .. بل ابتسم لها ابتسامة باردة ، فنهضت وهي ترتعد ، وزاد « فو » ابتساما في وجهها ، فاندفعت صارخة نحو الباب وجعلت تطرقه في جنون ولوعة ، وسرعان ما أدركت عبث محاولتها ، اذ كان الباب منيعا محكم الاغلاق .. ثم انثنت مغلوبة على أمرها ، وواجهت « فو » بحالة من البؤس لا توصف ، وتدلت يداها الموجعتان مشلولتين الى جانبيها ..

وبسط « فو » مروحته . وراح يجلب الهواء بها الى وجهه .
وللمروحة عند الصيني قيمة كبرى .. فهو يستعين بها على كتمان عواطفه ، أو ابدائها ، واذا بلغ ثوران أعصاب الصيني مرحلة الخطر والانفجار ، كانت المروحة له بمثابة الصمام الضاغط . وكان عظام المحاربين الصينيين يحملون مراوحهم معهم الى ميدان القتال .. والمجرمون الصينيون يستخدمون مراوحهم وهم في ساحة الاعدام .. والفتاة الصينية تروح بمروحتها وهي تضع وليدها الاول ..

وكان « فو » في هذه اللحظة يروح بمروحته ظفرا وانتصارا ، ثم خاطبها في نبرات سريعة وبلهجة الظافر :

ـ لهذه الغرفة مداخل متعددة يامدام جريجورى . لكن لها منفذا واحدا ..
واطبق المروحة بحركة تنذر بالشر .. واستطرد وهو يشير بهـا :
ـ والمنفـذ الوحيد عن طريق هذا البـاب ، الذى يفضى الى « مخدع نومى » ..
كتمت المرأة صرخة كادت تفلت منها .. بيد انها لم تستطع أن تكتم انينا عميقا ..
وضحك « فو » .. وتقـدم خطوة نحوها .. وقال بلهجـة رقيقة :
ـ الا تحبين أن تسمعى ما عندى من أنباء ولدك ؟ .. أنبـاء طيبة ؟ .. انى وعدت أن اسمعك هذه الانباء .. وأنا هنا لتحقيق هذا الوعد ..

لم يخف عنها مغزى كلماته المرعبة الهائلة .. وزادها ذعرا اقترابه منها .. فقالت مبتهلة وهى تبعد عنه :
ـ اواه ! .. لا تعذبنى ! ..
فقال وهو يدنو منها ثانية :

هو بخير .. نوعا .. وقد خدشت يداه .. لكنه خدش يسير جدا .. وهو بكل خير .. وهو هنا ..
فقالت منتحبة :
ـ هنا ؟ .. هنا ؟ ..
فقال وهو يزداد اقترابا منها :
ـ هو على مسمع الصوت منك ..
فهتفت وهى تتطلع حولها فى جنون !
أواه يا ربى ! .. أين ؟ ..

ووقع نظرها على الباب الثالث . فهرعت اليه فى أعياء وجعلت تطرقه بيديها صائحة :
ـ بازيل ! .. بازيل ! ..
فقال « فو » برقة مؤلمة :

ـ لا تكونى عنيفة يا سيدتى العزيزة .. انا لم اقل انه هناك ، ولا يحسن أن يسمع صوتك ، لانه سيحزنه ويوجعه ..
فتطلعت الى « فو » مستفسرة . فبادرها بالتفسير القاسى :
ـ هو ليس حرا فى المجىء حتى تعطى الاشـارة فى الوقت

المناسب .. ولك انت أن تقررى ان كانت هذه الاشارة تعطى أو لا تعطى ! ..

أحست فلورنس جريجورى بأن قواها تضعضعت .. على أنه ما كاد يضع يده على ذراعها حتى تشددت وتعالت ، وقالت بلهجة وثيدة فى وجهه الباسم :

ــ يا لك من شيطان ! ..

فقال لها :

ــ ان الكلمات الخشنة لا تساعده يا مدام جريجورى .. بل شيء واحد فقط ..

وكاد وجهه يلامس وجهها .. فأخفت وجهها بين راحتيها .. وجعلت تنتحب جزعا ..

فقال « فو » :

ــ سأتركك ريثما يستقر قرارك ..

واتجه الى الباب الذى قرر لها أنه هو المنفذ الوحيد أمامها الى الخارج ..

أما هى فقد اندفعت نحو الابواب الاخرى فى جنون طارىء واشمئزاز صارخ .. وهتفت وهى تلهث وتنتحب :

ــ دعنى أذهب ! .. دعنى اذهب ! .

فراقبها « فو » قليلا . ثم قال بهدوء وهو لا يزال يبتسم :

ــ هذا الباب هو المنفذ الوحيد الذى لم يوصد . واذا استقر رايك على الدخول منه قبل أن أعود اليك رايت ولدك .. فان لم تفعلى عدت اليك على عجل لكى أساعدك فى الوصول الى القرار ..

فهتفت مدام جريجورى تحديا :

ــ أن زوجى يعلم أنى جئت الى هنا ! .. وسيكون هنا بين لحظة واخرى .. وعند ذلك .. آه ! .. أنا لست خائفة منك ! ..

فقال « فو » باسما :

ــ آه ! .. يسرنى ذلك ! .. ولا أريد الا أن ابث فى نفسك روح الثقة والطمأنينة والرقة ! .. لكننى أعلم أن زوجك المحبوب ، المحترم لايعرف انك هنا .. لا أمل لك بتاتا فى رؤيته ، والا لما اخبرتنى بذلك ، والا لسعيت الى المطاولة وكسب الوقت ، ولم تقولى شيئا عنه ..

فقالت بعنف :

ــ بل هو يعرف ! .. وسيكون هنا بين وقت وآخر .. واذا لم يسمح له بالدخول حطم أبوابك ! ..

فضحك الصيني ضحكة رقيقة .. وهز رأسه نحوها مدللا ملاطفاً ..
فاستشاطت غضبا .. وصاحت :
ــ يا لك من شرير !.
فقال « فو » بهدوء :
ــ انى أتجاوز عن محاولتك خداعى يامدام جريجورى . وهذا أمر طبيعى فى الواقع ..
ولما رآها تتطلع الى النافذة العالية قال لها :
ــ آه .. هذه النافذة تشرف على الفناء ، حيث توجد خادمتك المخلصة .. لكن المهندس ارادها كثيرة الارتفاع ، شديدة الضيق ..
ثم انحنى أمامها وأردف :
ــ والان .. سأتركك .. ولكن الى حين قريب ..
ودلف الى الغرفة المجاورة ، وأغلق الباب خلفه بحركة رقيقة ..

الفصل السابع والثلاثون

النـــاقوس

طاش عقلها .. وجن جنونها .. وسقط فى يدها . وراحت تدور بعينيها فى جوانب الغرفة وان كان الرعب قد أسدل غشاوة على بصرها
عالجت الابواب الا بابا واحدا .. وحاولت فى يأس المستميت فتح النافذة ، فارتدت عنها خائبة .. وهتفت :
ــ بازيل !.. بازيل !..
ثم أمسكت عن هذا النداء .. واتجهت الى الله ملاذ الانسان الاكبر اذا حزبه الامر وبرح به الخطب قائلة :
ــ رحماك ياربى !. ساعدنى وخذ بيدى !
ثم ارتقت المقعد بساقين مرتعشتين وحاولت أن تصل الى النافذة العليا الضيقة .. فاذا هى دونها بكثير .. وهتفت وهى تنتحب :
ــ كلا !. لا أستطيع !.
وتطلعت حولها خفية .. ثم شبت على أطراف أصابعها نحو النافذة وجعلت تنادى بصوت خافت :

ـ آه وونج !. آه وونج !.. هل تسمعينني ؟.. أسرعى بحق السماء :. استنجدى بهم !. ساعدينى يا آه وونج !. ساعدينى !. أنا وحدى يا آه وونج !. لكنه سيعود .. بعد قليل !. أسرعى !. أسرعى ؟. هل أنت هناك يا آه وونج ؟.

وانتظرت ..

فيا له من انتظار !.

لم تسمع سوى خفقان قلبها .. ولم تأنس من غرفة (فو) سوى السكون . وخيم على البيت والحديقة جميعا صمت القبر.

آه !.. ما هذا ؟..

صدر من النافذة صوت خافت لا يكاد يسمع .

سقط جسم عند قدميها .. فانحنت فوقه وهى تكتم عبرة غلبتها فاذا هو منديلها . واشتد اهتزاز يديها حتى لقد كادت تعجز عن فكه لكى ترى ما فيه من وسائل التراسل أو المساعدة التى جاءت بها (آه وونج) .

راحت اصابعها الباردة المتصلبة تعمل فى المنديل وقد سمرت عيناها جزعا والما فى باب غرفة (فو) وتلاحقت ضربات قلبها .. واذا جسم صلب صغير بين يديها .

جعلت تنظر فى عجب الى قنينة صغيرة اخرجتها من المنديل.. ثم زال عجبها بعد لحظة .. وادركت ما هى .. واشتد امتقاع وجهها .. وغاض الدم من شفتيها .

هذا سم ولا ريب !. فهل يجب أن تتناوله ؟. وهل تقوى ؟. وبازيل ؟. الابن الذى حملته .. ابنها وصديقها ؟. هل تتخلى عنه على هذا النحو ؟. هل تصون شرفها وتتركه فريسة للموت ولعذاب اشد هولا من الموت ؟. وهل يعظم ثمن حقا فى سبيل انقاذه من هذا العذاب الجهنمى ؟. وهل تغلو تضحية ؟. اذا انقذت نفسها بهذا الثمن الذى يدفعه من حياته ، فهلا تتلوث بعار لا يدانيه ذلك العار الآخر ؟

جعلت المرأة تبكى كالطفل المذعور .

ثم هل تقوى على الموت ؟. هل تقوى على مواجهة مثل هذا الموت هنا .. وحدها .. فى الصين ؟.

ما احلى الحياة !. وما ابهج الشمس فوق الحشائش السندسية !. فرحماك يا رب !.. وعونك !

سارت فى الغرفة باكية وهى تضم يدها الباردة على القنينة .

وفجأة ثارت كبرياؤها .. واهتزت كرامتها .

لا مناص لبازيل أن يقاسي .. وما كان لهذا الجسـد الذي حمله أن يتدنس ، حتى لأجله .

ولا بد لهذه الامومة الطاهرة أن تحتفظ بنقائها وطهرها حتى النهاية

حزمت أمرها .. واستقر رأيها .. واعتزمت أن تموت .

لكنها كانت تؤمل ألا يكون السم لاذعا مريرا .. فانتـزعت سدادة القنينة وشمت السائل .. فاذا هو خلو من الرائحة . ام أن الرعب قد امات حواسها ؟.

لم تكد أصابعها تحس القنينة وهي بين يديهـا .. وجعلت تتساءل هل يتعين عليها أن تشرب ما فيهـا الآن ؟. الا يمكن أن تأتي النجدة وقد ذهبت (آه وونج) ولا ريب لطلبها ؟. لكن هل تجسر على التريث والانتظار ؟. ان (فو) قد يعود بين لحظـة وأخرى .. سمعا !. هل هو قادم ؟. هل تحرك باب غرفته ؟. لا يجب أن يراها تشرب السم . والا حال دون ذلك .. لـكن هل يتعين عليها أن تموت الآن ؟.

وقع نظرها على قدح الشاي الذي تركته .. فخالجها امـل ضعيف . شأن الفريق يتشبث بالقش .

نعم .. نعم .. لتسكب السم في قدح الشاي . وتشربه . اذا لم يكن من موتها بد .

كان القدح مترعا . فتناولت جرعة منه وهي تغص بها .. وتطلعت في رعب وفزع الى غرفة (فو) . ثم سكبت محتـويات القنينة في قدحهـا .. ولم يدر بخلدها قط أن تسكبها في قـدح (فو) .. فقد كانت مضعضعة الحواس .. مشتتة الفكر .

ولفت المنديل حول القنينة وهي ترتعد ارتعادا مؤثرا والقتهما في احدى الاواني . ثم عادت على أطراف أصابعها الى المقعـد القريب من الطاولة . حيث كان القدح في متناول يدها ..وهمست تناجي ربها :

ـ اعني يا رب وهبني القوة اذا لم يكن من هذا مفر !.

جلست في مكانها منكسة الرأس مسمرة العينين في القـدح المسموم . ولما جاء (فو) لم ترفع رأسها .. فوقف لحظة يتفرس فيها وقد تجلى الكره والازدراء لهذه المرأة التي هي أم بازيل في معالم وجهه .

على أنه كان يرثي لهـا في أعماق نفسـه .. ولم يطب خاطره بتقديم هذه الضحية على مذبح ثأره .. ولئن كان يقدمها قـربانا

لأجداده وآلهته فان نفسه لتفثى برائحة الدم الذى يفوح فوق سكينه منها .
كان (فو) يرتدى الآن ثوبا فضفاضا من الحرير القرمزى موشاة حوافيه بريش الطاووس .. ولم تكن معه مروحته هذه المرة .
وقال لها بلهجة رقيقة :
ـ حسنا يا سيدتى العزيزة !.
وما كادت ترفع رأسها وتتطلع اليه حتى آنست منه تصميمه الجازم فانكمشت على نفسها وهى تتأوه ألما ..

وابتسم (فو) ودنا منها وقال بلهجة باطنهـــا سم لاذع وظاهرها شهد معطر :
ـ ألست أحظى بالقبول فى عينيك ؟. كلا ؟. يالك من سيء الحظ يا (فولى شانج) !. ان قلبى يمزقه برودك ! أيتها الحسناء، أيتها الوردة الانجليزية الشهيـــة !.. لا بأس !. لست من ذوى الكبرياء لحسن الحظ حتى يجرحنى صدودك !..
ثم زاد دنوا منها ، وأردف
ـ هناك مسألة هامة لم أذكرها . من العـــدل أن تفهمى شروطى كل الفهم .. ومن العدل ان أصارحك بأن ابنك يعلم أن تضحيتك لأجله ستمنحه الحرية وتخلى سبيله ..
نهضت فلورنس جريجورى .. وجعلت تتفرس فى وجهه وقالت :
ـ هل .. هل تخلى سبيله ؟.
فأومأ (فولى شانج) ايجابا .. ولم تشك لحظة فى وعده ..
وقال (فولى شانج) بهدوء :

ـ هذا مفهوم طبعا ، ومقرر . بعد ان توفى .. دينه ..
ارتعدت فلورنس ألما .. فابتسم (فو) . وراح يقول :
ـ انى استوفى دينى بالقسطاس . بلا زيادة ولا نقصـــان !. فضيلة بفضيلة !.. وقد كان بوسعى أن أثأر من ابنتك . ولـكنى لو فعلت لمـــا استوفيت الدين كاملا .. فأنتم فى دياركم ، وبين أهليكم ، تقدسون العذرية ، وتحلونها المحل الاسمى .. ونحن هنا نقدس الامومة ، ونرتفع بها الى أسمى مراتب الانسانية .. واذن؟ فما دام قد عدا على ما هو أقدس شيء فى عين الانجليزى الشريف، وهو ضعيف فى وطن ابنتى وفى بيتها ـ فســأعدو بدورى على ما أعده أسمى ، وأطهر ، وأنا مضيفك .

ثم استحال صوته فحيحا يقطر كرها .. واستطرد :
ـ ثم ان اذلال أخته ما كان ليحز فى نفسه بالقدر الكافى وهو لا يحبها حبا مطلقا .. ان حبه لك انت أمه هو المظهر الوحيد من مظاهر الرجولة فى ذاته البغيضة .. وقصارى ما كان يحدث ان يألم لعارها ثم يقف به الأمر عند حد الالم .. أما عارك انت فسوف يذكره مدى الحياة ، وهو يتلوى ويتضور !. وستفسد هـذه الذكرى حياته . وتذيقه فى كل ساعة من الآلام ما لا يقاس الموت الى جانبه ، وتحيل كل شبر من الارض جحيما يكوى اضلاعه !.

وكف عن الكلام وجعل ينتظر .. ثم دار حول الطاولة وطوق هذه المراة المصعوقة بساعديه ، واشار الى الغرفة المجاورة .
وقف كلاهما لحظة على هذا النحـو .. وشلت فلورنس وعجزت عن الحركة .

وانسابت من خلال النافذة موسيقى شجية سماوية .. وغرد أحد البلابل فى حديقة نانج بينج ، قرب المعبـد وبحيرة اللوتس .
وفجأة تخلصت فلورنس من (فو) وهى تهتف يأسـا .. فتركها .. وتهالكت فوق مقعد وتناولت قدح الشـاى بحركة طبيعية .. ورفعته ببطء الى شفتيها .

فقال (فو) برقة :
ـ آه !.. ان شفتى كذلك جافتان مضطرمتان !.. وساشرب انا ايضا !..

ورفع قدحه ثم وضعه فورا .. وقال :
ـ آه !.. أراك شربت فى غيابى من قدحك !.. ولثمت شفتاك حافته ! .
ثم تسلل خلفها وتناول القدح من يديها ورفعه فوق رأسها.. وواجهها قائلا :
ـ دعينى ايضا اشرب من القـدح الذى لمسته شـفتاك العذبتان !.

وصوب اليها نظرة حب ساخرة قاسية لكى يزيد فى عذابها .. وتجرع القدح متمهلا وهو يتطلع الى عينيها المتسعتين هلعا دون أن يخامره أدنى ريب فى محتـويات الشراب .. وراحت فلورنس جريجورى تراقبه وهى جامدة مصعوقة رعبـا ، لا تكاد تدرك أنه قد منحها الحرية على نحو لم يخطر لها أن تعاليجه ..
وقال (فو) وهو يضع القدح :

ـ هكذا ترين انى قد أبديت لك كل حفاوة وتكريم .. لانى لا أحب ما تحبون من سكر فى الشـاى .. وانى لأعجب حقـا كيف تفسدون لذة المذاق بهذه الطريقة !.

وصدرت حشرجة من حلقه ، واستطرد فى همس اجش :

ـ انى وجدته أسوأ مذاقا مما كنت أتصور .

وفجأة ترنح وتطاوح .. فتشبث بحافة الطاولة وهو يتساءل: ترى هل ثمل بنشوة الغضب المضطرم المكتوم ؟.

احس بالغرفة تدور .. وشعر بصداع شديد .. وخيـل اليه أن شريانا فى راسه يوشك أن ينفجر .. وزادت الغـرفة دورانا .. فتهالك فوق مقعد وقد تقلص وجهه ألما .

وجعلت مدام جريجورى تئن خوفا على نفسها ، وجزعا مما رأت من هذا النزع الهائل الذى سمر عينيها . ففهم « فو » .

تشبث بالطاولة بيدين متقلصتين كوجهه .. ومال نحوها وهو يغمغم بلغته أفظع ألوان السباب واللعنات .. وقدحت عينـاه شرر الحقد الآكل والبغض الدفين .

ألفى نفسه يموت كالكلب .. بعد أن تفوقت عليه هـذه الانجليزية .. فضحك ضحكة رهيبة مروعة هى أشد رهبـة وترويعا من حشرجته .

كانت ضحكة الطرب الشيطانى والتشفى الجهنمى .

فان الناقوس لن يدق الآن . ولن تعطى الاشارة . ولن ينال الاسير الانجليزى حريته .. وسيقضى عليه بالموت جوعا فى معبد (نانج بينج) !.

هل كانت تعرف هذا ؟. ليته يجد قوة لكى يعرفها !. بيد انه لم يجد فى هذه اللحظة سوى العبارات الصينية على لسـانه وفى ذهنه المحموم . وخانته الكلمات الانجليزية . ولم يبق له من كل ما نال طوال اقامته فى الديار الانجليزية سوى حقده المرير ..

الاجل هذه النهاية . وهذا الموت المزرى .. قد أقصاه جده (فوشنج يو) وأذاقه ألم البعد والاغتراب عن وطنه ؟.

اين سيفه العتيد ؟. ليذبحن به هذه الشيطانة الدخيلة حيث تقف ! من هى ؟. ولم هى هنا . فى هذه الغرفة التى تضم تراث اجداده ؟.. من هى ؟. آه !. لقد تذكر !. هى أم الخـنزير .. المخلوقة النجسة التى ولدت مغوى (نانج بينج) !. ـ

تحامل على قدميه بجهد جبار وهو يصرخ صرخة مخيفة ..

واندفع نحوها باسطا يديه المتقلصتين كأنهما مخلبان . وجبن نفسه جرا .

تراجعت أمامه مرعوبة . ورفعت ذراعها كأنما تتقى ضربة مصوبة اليها .. فانحدر السوار الثمين الى معصمها وكان له بريق خاطف .

عرف (فولى شانج) السوار . وعرفها أيضا .

تذكر اكسفورد . والابرشية . والارغن الذى أهداه الى الكنيسة والفتاة الانجليزية التى مال اليها وصادقها مصادقة بريئة .

اذن فهذا جزاء الاحسان !. وثمرة المروءة والسماحة التى زرعها فى انجلترا !.

غلت مراجل الغضب والحقد فى صدره . فأهوى على السيف صارخا وأمسكه . ثم انثنى الى المرأة حيث وقفت منكمشة لاهثة الانفاس . ودنا منها . فصرخت وفرت منه متخاذلة . فتبعها . ورفع السيف العظيم .. فشق به الهواء . فعاود الكرة ، وكرر الضربة . لكنه شق الهواء أيضا ...

دار حول الغرفة مرتين ، وهى تنتحب رعبا وهلعا ، وهو يحشرج غضبا ونزعا ..

آه !. ها هو ذا قد نالها !. فليبذل اذن جهده الاخير !.
رفع السيف بيديه معا . رفعه فوق رأسه . وضرب ..
لكن الضربة أخطأتها . واصابت الناقوس . مرة . ثم اثنتين !.
تدفقت الحياة فى كيانه ازاء هذا الخطأ المؤسى .
لقد أراد أن يقتل وان يفتك !. فابقى وانقذ !.
انقذ الشاب الانجليزى !.

حطمت هذه الحقيقة قلبه .. ذلك القلب الصينى القوى .. قلب النبيل العظيم (فولى شانج) ..
وقف لحظة جامدا . صامتا . رائعا فى هزيمته واندحاره ..
ثم هوى .. ولم تقم له قائمة !.

***

حين قويت فلورنس جريجورى على النظر حولها ، الفت الابواب والنافذة الرحبة مفتوحة ..
لم يدخل أحد الغرفة . وكانت وحدها مع الذى كان (فولى

شانج) ولم تسمع سوى صوت تغريد البلبل وهو يردد الحانه الشجية العذبة بين أفنان شجرة الياسمين فى الحديقة الوارفة ..

راحت تزحف من الغرفة وانية وهى تراقبه رعبا حتى آخر لحظة . ثم خرجت من الباب الذى دخلت منه ..
لقد شاخت فى هذه الغرفة ..

الفصل الثامن والثلاثون

بعد العاصفة

ما كادت فلورنس جريجورى تخرج من المنزل الى الحديقة وهى تسير كالمجنونة حتى قابلت ابنها آتيا الى الباب على غير هدى وهو لم يزل مقيد اليدين ..
لم يقو احدهما على الكلام ..
لكن امرأة صينية تسللت اليهما من خلال الظلام . وقالت لهما :
ـ هيا معى !..
وتوسطتهما .. وهمست :
ـ ولا كلمة !..
لكنها كانت بغير حاجة الى هذا التحذير فكلاهما كان عاجزا عن النطق ..

لم يقابلوا أحدا .. ولم يسمعوا صوتا سوى تغريد البلبل الصداح ..
ذلك شأن (فولى شانج) .. اذ أمر الخدم ان يبقوا فى أماكنهم فى اقصى الحديقة .. عند الابواب الخارجية لكى يفتحوها لمرور الاضياف ..

لكن (آه وونج) لم تتباطأ ولم تترك صاحبيها يتباطآن حتى وصلوا الى الشاطىء ..

على انها وقفت قبل موقع القارب بقليل وفكت قيود بازيل .. بل قطعتها بمدية كانت معها ..

ودلفت الأم وابنها الى القارب فى خطوات متعثرة .. ووثبت (آه وونج) بنشاط .. ثم تحرك القارب مبتعدا عن (كولون) .. واستندت الام وابنها احدهما الى الآخر .. بيد انهما لم

يتبادلا كلمة واحدة .. بل انكمشا على نفسيهما اعيــاء وذهولا لفرط ما عاناه كلاهما من الرعب والفزع ..

ولما وصل القارب الى (هونج كونج) نزل الثلاثة منه ونقدت (آه وونج) رجاله أجرهم .. ثم أشرفت هذه الخادمة الوفية على كل شيء حتى أوصلتهما الى الفندق ..

وقد ابلغت الخادمة هيلدا بنبأ حضورهما مقترنا بهذه الجملة التى صاغتها فى لهجة هى أقرب الى الامر :

ـ انهما منهوكان هذه الليلة ولا يمكن أن يكلما احدا .

ولم تتردد (آه وونج) فى ذكر هذه الجملة نفسها أمام روبرت جريجورى حين جاء مسرعا من المكتب على أثر تلقيه النبأ السار من هيلدا تليفونيا .

وتولت (آه وونج) نفسها اذاعة نبأ عودة بازيل جريجورى سالما مقترنا بالقصة التى اختلقتها تفسيرا لأسباب غيابه ..وكانت هذه القصة تلخص فى كلمات قلائل فحواها ان بازيل زلت قـدمه وأصيب برضوض فى ساقه ، فعهد الى أحد الوطنيين برسالة الى ذويه لابلاغهم أمره .. ولكن الرجل كان من مدمنى تدخـــين الافيون ، فأهمل ايصال الرسالة الى أربابها !.

وقد صدق بعضهم القصة .. وأنكرها آخرون .

وراح جون برادلى يتساءل عن نصيبها من الصحة .

على أن أنبـاء اليـوم التــالى طغت على كل أخبــار أسرة جريجورى وأنزلتها الى مرتبة ثانوية فيما حملت من أنباء جسام .. فقد تناقلت الألسنة نبأ وفاة مستر (فو) وابنته الوحيدة .

قيل انها توفيت فجأة ، وان الصدمة كانت أقــوى من أن تحتملها أعصاب والدها المترف .. فقضى نحبه على الاثر حـزنا عليها !

وقد صدق قليلون القصة .. وأنكرها الاكثرون .. لكن (فو) توفى فى ارض الصين .. وما كان هذا ليعنى (هونج كونج) وأهلها.

وما كاد القس جون برادلى يسمع هذا النبأ حتى هرع الى (كولون) فاستقبله (آه سنج) .. لكنه لم يقف على شيء يذكر.

وقد رأى صديقه المتوفى .. فركع قرب فراشه وصلى عليه صلاة قصيرة ..

ولما عاد الى داره قصد الى غرفته الخاصة وأغلق بابها عليـه وجثا أمام مصلاه ، وأطال الصلاة وهو محـــزون النفس موجع الفؤاد .

وقد استطاع بازيل أن ينجو من غضب أبيه لسببين .. عودته سليما من هذا الغياب المريب .. وابتهاج روبرت جريجوری بوفاة (فو) .

وقال الوالد لابنه فى صباح اليوم التالى وهمـا على مائدة الافطار :

ــ اين كنت بحق الشياطين ؟.. انك أزعجت العـائلة كلها !.. وأفسدت علينا الاعمال !.. انى سأحاسبك أيها الشاب على ذلك !..

فقال بازيل بغير انزعاج حقيقى :

ــ كنت .. أقوم برحلة قصيرة فيما وراء الجزيرة .

وانتهى العتاب عند هذا الحد .

وما كاد الوالد ينصرف حتى دفع بازيل طعامه .. فقد كان يتكلف الاكل الذى لفظته معدته ..

وكان فى لهفة شديدة لرؤية امه التى اعتكفت فى غرفتهـا بدعوى انحراف صحتها .. وفى نفس الوقت كان الشاب جازعا من هذه المقابلة .

كان شديد القلق والتلهف لمعرفة الحقيقة فى نبأ وفاة « فو » .. وقد خطر له أن « آه وونج » تعرف .. لكنه لم يجسر على سؤالها .

ومهما يكن .. فقد كان يتوق الى أن ترسل أمه فى طلبه . فان هذه الحالة المعلقة أثقل على أعصابه مما كان وهو رهين المعبد .

أما روبرت جريجورى فقد زالت متاعبه ومخاوفه .. ووصل الى مكتبه منتعش الخاطر .. وايدت دوائر الحـكومة نبأ وفاة « فو » . فاطمأن جريجورى .. وايقن أنه بزوال هذا الخصـم الجبار من طريقه لا تلبث هذه الكوارث التى لاحقته حينا من الزمن واندرت أعماله بالخراب أن تنقشع بنشاطه وادارته الحازمة انقشاع سحابة الصيف تحت أشعة الشمس .

ولما وصل الى النادى آخر النهار راح يتحدث متفكـها عن « جموح » ابنه وما يتعرض له الشباب فى دور النزق من الوان الاغراء واعرب عن اغتباطه بنجاة ولده .. وقرر أن يرد هـذا « الولد الشقى » الى انجلترا الوقورة صونا لاخلاقه من مغريات الشباب ! .

لم يقف روبرت جريجورى على الحقيقة .. ولن يقف ... وقد عاش طول حياته سطحيا لا يعنيه من الدنيا سوى العمل .. ثم كانت أسرته فى المرتبة الثانية من اهتمامه .

وكم فى هذه الحياة من أمثاله ! .

* * *

وفى الغرفة المثمنة الاضلاع بقى « فولى شانج » ممدا حيث فاضت روحه .. ولم يجرؤ واحد من خدمه على ازعاج رقدته وقتا طويلا .

كان مستلقيا على ظهره شاخص الوجه الى سماء الغرفة .. وما كاد يتلاشى وقع قدمى فلورنس جريجورى من البيت حتى تبدلت ملامح وجهه تبدلا عظـــيما .. فقد فارقته دلائل النزع وعذاب الموت .. وكست محياه ابتسامة مشرقة مضيئة أكسبته جمالا وجلالا .. ابتسامة الرجل الذى قام بواجبه حتى النهاية ..

الفصل التاسع والثلاثون

سر ....

استدعت فلورنس جريجورى بازيل .. فذهب اليها متثاقلا وازح النفس تحت أعباء جسام .

لم يكن بد من المقابلة .. وان كان كلاهما يخشاها ويجزع منها .. فقد كان الابن يعلم أن حسابه على يدى أمه أشد عسرا .. لكن جزعها كان أشد لانها بريئة ولانها أتقى معـــدنا وأدق حسا .

رأته مضعضع الحواس شديد الاعياء .. فقالت له فورا :

ــ لا بد لك من النوم والراحة ..

فأومأ برأسه وقال لها :

ــ نعم .. لا بد من ذلك .. بعد أن تنتهى حاجتك الى »

وخرجت « آه وونج » وتركتهما معا .

انتظرت فلورنس جريجورى ان يبدأ الحديث .. ولم تعوده من قبل مثل هذا الجفاء . لكنها كانت شديدة الاعياء .. وقد أمضت ليلها مسهدة تقلب النظر فى خطة « فولى شانج » ...

فلم تجدها مجردة من العدالة .. وقد رأتها خطة خشنة ، مروعة ، بدائية ، همجية . لكنها لم تستنكر عدالتها .

انتظرت الام .. فقال الابن بعد صمت طويل !

ـ هل أنت بخير يا أمي ؟ .

فأجابته :

ـ بل شديدة التعب .

ـ نعم . نعم . طبعا أنت كذلك . لكن ..

فقالت برقة :

ـ آه . نعم . أنا بخير .

ـ أواثقة ؟ .

ـ نعم يا بازيل ! .

فقال في اصرار :

ـ هل أنت بكل خير يا أمي ، وعلى اتم ما يرام ؟ .

فأجابت بلهجة التوكيد :

ـ نعم يا بازيل ..

ولم تتمالك أن ابتسمت في كآبة شديدة .. فقد رأت ان من سخرية القدر أن يقف هو امامها موقف المحاسب المستجوب .

فهمس في حرارة :

ـ الحمد لله ! .

نعم .. لهج لسانه بالشكر لنجاة أمه من عدوان أشد قسوة ورهبة مما اقترف في حق « نانج بينج » الشهيدة !. نانج بينج التي أحبته !.

ولم يلبث أن هزته رعده نفسانية حين خطر له أن أمه قد عرفت أنه غدر بفتاة ومثل بها حتى الموت ، بل ما هو ابشع من الموت ، وهي الفتاة التي أولته ثقتها وايمانها .. وحين رأى أن امه لن تفتأ تفكر في هذا وتنكره . وأن ذلك الصفاء الذي ساد حياتهما لا يلبث أن يتعكر . بل يذهب ! .

أدرك ان أمه لن تكن له بعد الآن سوى الاسف . والازدراء .. وانه لن يستطيع ما عاش أن يمحو هذا الشعور ويزيله من نفسها .. وتاقت نفسه الآن الى ان يطرد من نفسها هذا الاحساس ولو لحظة ويعود « ابنها المحبوب » كما كان ، ولو ساعة واحدة ! .

نظر اليها مستطلعا . فامتقع وجهها . فقد طالعت دلائل الخوف مجسمة في عينيه .. ووجد خوفه صدى في نفسها ! .

لقد دب دبيب النفور فى هذا اليوم بين قلبيهـــما . وحفرت بينهما هوة عميقة فرقت بينهما الى الابد ..

أدركت فلورنس هذه الحقيقة الاليمة . وطالعت خفايا قلبه وقلبها فساورها عذاب موجع لا يقاس به عذابها فى الغرفة المثمنة حين كانت مع « فولى شانج » وحدها . وتضعضعت نفسها حين رأت حقيقة الثأر الذى ناله « فو » . وهو حقا أجل وأعظم وأرهب مما فكر فيه ورسمه ! .

ليس الانسان بحاجة الى ان ينال ثأره بيديه ويحس آثاره المادية البارزة . فان العدالة الالهية لا تنام . ولئن استبـــطأها الانسان فلا يلبث سيفها ان يهوى ويأخذ المسيء بذنبه .

رأى بازيل جريجورى أسى أمه وعذابها يطل من نظراتها .. فسار الى النافذة .. ووقف يتطلع الى الميناء . والى «كولون» . وقال :

ـ آه ! . لا بأس . يقولون أنه مات . اعنى « فو » هل سمعت هذا النبأ ؟ .

ـ نعم .

ـ أتمنى ان يكون صحيحا .

ـ هو صحيح ..

فعاد اليها مسرعا . وقال لها :

ـ وكيف عرفت يا أمى ؟ . هل أنت واثقة ؟ .

فأجابت :

ـ انى رايته يجود بأنفاسه .

ما كاد الابن يسمع كلماتها حتى ركع أمامها وتناول يديها بين يديه

فسردت عليه القصة . أو بالاحرى حقائق الامس المجردة .

ولم تذكر نانج بينج ، ضحيته ، بكلمة واحدة بينهما . ولم يوجه اليه فلورنس جريجورى كلمة لوم أو عتاب . وكذلك تعاقب الام ابنها الذى وضعته . وأرضعته .

لم تستقص شيئا من تفاصيل غرامه أو اعتقاله وأسره .. ولم يذكر لها شيئا ..

ومن الخير أن فعلا ذلك .. فان الذكرى المشتركة بينهـــما كانت أشـــد وعرا وأغنى عن المزيد . وهى ذكرى لا تنمحى من النفوس .

ثم تكلم بازيل . فقال فى لهجة تشف عن القلق :
ـ ترى ماذا يحدث .. بعد ذلك . ؟ لقد كان له نفوذ شيطانى بين الصينيين .
ـ نعم .. أعرف ذلك . ماذا يحدث منهم ؟ . من راى « آه وونج » انه لن يحدث شىء .
فقال بازدراء :
ـ « آه وونج » ! .
ـ انها انقذت حياتى . وحياتك .
ـ بحيلة صينية .
فقالت مدام جريجورى بلهجة رصينة :
ـ انها أفادت .. وان « آه وونج » تعرف قومها .. وهى ترى انه لن يحدث شىء : فى الوقت الحالى على الاقل .. وسنغادر الصين فورا .. وأحسب أن هذا سيسر والدك .. فقد كان شديد الاهتمام بالعودة الى انجلترا للاشراف على شئون الشركة الجديدة التى أنشأها .. على أنه اذا قرر لسبب ما أن ينتظر هنا مدة ما فسأوعز الى هيلدا أن تحثه على العودة فورا .. ومهما يكن فلا مفر من أن تبحر أنت على الاقل بأول باخرة ..
فأومأ بازيل قائلا :
ـ نعم .. انى أميل الى الابحار بأول باخرة مريحة .
فقالت الام بلهجة التوكيد :
ـ سنبحر بها جميعا اذا استطعنا .
فقال فى رقة :
ـ هل هذا كل شىء يا أمى ؟ .
فسألته فى عجب وحيرة :
ـ كل شىء ؟ .
ـ كل ما تريدينه منى ؟ .
فأجابت فورا :
ـ آه ! . نعم يا عزيزى .
ـ اذن فسأذهب لكى أنال قسطى من النوم والراحة . فأنا فى أشد حالات التعب والاعياء .
ـ نعم .. اذهب ..
على انه ما كاد يصل الى الباب حتى عاد اليها وضمها الى صدره وهمس فى أذنها :

ـ بارك الله فيك يا أمى ! .
فقالت فى صوت متهدج :
ـ وبارك فيك يا ولدى ! .

ثم قبلها فى لوعة ووجد .. وابتعد عنها باكيا منتحبا .. فانتظرت قليلا حتى زال انفعاله وقالت له

ـ انى نسيت .. لا تقل شيئا لكائن من كان .
وابى ؟ .

ـ هو على الاخص . وهو قد وعدنى الا يلقى عليك سؤالا ما

فقال بازيل وقد تورد وجهه الما :

ـ أنت حقا صديقى الوفى فى الدنيا كلها ! .
فقالت باسمة :

ـ أنا أمك يابازيل .. عدنى ألا تذكر شيئا لأى انسان .. ليدفن هذا السر فيما بيننا فقط .

وقد دفن السر فيما بينهما حقا .. واغتبطا بهذا .. لكن كليهما كان موقنا أنه لن ينمحى من ذهنه ولن يبرح خاطره فى اليقظة أو فى المنام .. فهو سم سرى فى دمائهما .

الفصل الاربعون

العـــودة

ابحرت اسرة جريجورى من جزيرة « هونج كونج » فى الاسبوع التالى .. وودعهما خلق كثير .. لكن القس جون برادلى لم يشترك فى هذا الوداع .. فاستاءت هيلدا .. وحمد الله بازيل .. وفيما عدا مدام جريجورى ، فان احدا من أفراد اسرتها لم يقابل القس منذ أن زاره بازيل لاستشارته فى تلك الليلة المعهودة .. وقد زارته فلورنس بعد يومين من اقلاتها .. لكنها لم تخبره بشىء عن احداث « كولون » وانما قررت له انها جاءت لوداعه قبل عودتها واسرتها الى انجلترا كما جاءت لكى توصيه خيرا بخادمتها « آه وونج » التى رفضت أن تغادر وطنها .

وقد سر القس حين علم بنبأ اصرار « آه وونج » على البقاء فى الصين فهو يعلم أن الخادمة تعرف عن الاحداث الخفية التى

وقعت لهذه الاسرة ما لا يعرف هو او سواه ، وان ذهابها الى انجلترا سيكون منغصا لسعادة أفراد الاسرة وعبئا ثقيلا عليهم .. ولذلك لم يتردد فى قبول رجاء فلورنس جريجورى وأعرب عن تمام استعداده لايواء الخادمة فى داره ورعايتها جهد طاقته ..

وقد استحثها القس على العـــودة الى انجلترا فورا وباول باخرة مهما كانت المتاعب التى سيتعرضون لها .. وناشدها الا تعود هى او أحد من أفراد الاسرة الى الصين .. واختتم حديثه قائلا :

ـ أرجو أن تودعيهم بالنيابة عنى .. فقد تحتم على واجبات مهنتى ان أغيب أياما .. وما دمت قررت أن مستر توماس كاروثر سيبقى هنا للاشراف على أعمال الشركة فسأرعاه رعاية الاب حالما تغادرون الجزيرة .

ولما شيعها القس الى الباب قال لها :
ـ تذكرى أن ترحلوا فورا .. ولا يعد أحد منكم الى هنا بأى حال .. الى الابد ..
فقالت مدام جريجورى بلهجة الجد :
ـ سنرحل فورا .. ولن نعود أبدا ..
وقد برت مدام جريجورى بهذا الوعد .. فلم يعد أحد من أفراد أسرتها الى الصين سوى هيلدا التى انضمت الى توماس كاروثر بعد حين من الزمن وعقد قرانها عليه بعد أن أمضى مدة التمرين على ما يرام وأصبح مدير الشركة فى « هونج كونج »

وما كادت الباخرة التى أقلت الاسرة تغادر مرساها فى « هونج كونج » حتى وقف بازيل جريجورى على سطحـــها متأبطا ذراع أمه .. وجعلا يتطلعان الى معـــالم الجـــزيرة حتى اختفت عن أنظارهما ..
وقد تخلصا من الصين حقا .. لكنهما لم يتخلصا من ذيول المأساة التى شهداها بين أرجائها ..

ولم ينبس كلاهما بكلمة واحدة عن « فولى شانج » بينما كانت معالم الجزيرة تختفى عن العيان .. لكنهما كانا يعلمان أن فى هذا اليوم يتحرك موكب جنازة النبيل الصينى فى جلاله من « كولون » الى مثواه فى « تسى شوان » .

اجل .. فى هذا اليوم سار الموكب الجنائزى الى مسقط رأس النبيل المتوفى يتقدمه قرع الطبول المحزن وعزف الزمور الكئيب

وقد وسد الجثمان فى نعش فاخر وأحيط بجميع مظاهر الجلال والتوقير .. وتبعه نعش ثان أصغر وأكثر بساطة .. وسارت « سنج كونج ياه » خلف النعشين حافية القدمين مدثرة باخشن الثياب .. وكان ذلك آخر عهدها بالمسائل الدنيوية .. فقد بات مقضيا عليها اذا خرجت من هذه الرحلة الطويلة الشاقة على قيد الحياة أن تلتمس العزلة المؤبدة فى دير قريبتها الذى كانت تختلف اليه .

وما كادت الباخرة تبتعد عن المياه الصينية حتى اعترى مدام جريجورى تبدل ملحوظ .. فقد فارقتها بشاشتها ونضارتها السالفة . وانتابها وجوم وكآبة سلباها مظاهر الشباب التى كانت تتمتع بها حتى كان من يراها فى صحبة بازيل يحسبها اخته .. ودب اليها دبيب الشيخوخة فأصبحت تبدو للناس كما يجب أن تبدو .. أمه ما فى ذلك ريب .

على أن بازيل لازمها طوال الرحلة وكان يواليها برعايته المتصلة .. وقد ازداد تعلقا واتصالا .. وفى نفس الوقت كان كلاهما ينفر من صاحبه على غير وعى وينأى عنه رغم ارادته .

لقد اتصل قلباهما .. وتنافرت روحاهما .

احس بازيل انها تأسى لجريمته .. وانها تندد به فى نفسها وتزدريه . ومع انه لم يحل نفسه من هذه الجريمة ، ولم يفارقه وخز ضميره ، فقد ساءه منها هذا الاستنكار الباطنى وهذا الحرص الظاهرى على مرضاته وتكلف ادخال السرور على نفسه .

وكانت الام على حق فى هذا النفور الروحى الذى اكنته له .. فقد آنست منه بعض بوادر السخط والمقت التى ولدها فى نفسه ضميره المتمرد .. وحز فى نفسها أن تساوره الظنون فى صفحها المطلق عنه .. لكنها كانت تعلم أن هذه نتيجة محتومة ، لا سلطان للارادة عليها . .وبرغم ذلك فما كان اشد ثورانها النفسى عليه حين رأته يحاول أن يوقفها موقف المدان فى حساب ضميره الآثم ! وانه يلومها لانها لا تستطيع أن تنسى وأن تصفح مطلقا شاملا .

لقد زادهما هذا السر ارتباطا واتصالا .. لكنه باعد بين روحيهما وزادهما تنافر ونأيا .

وكان الابن يتعذب لعذابها .. ويفكر فى مآلها مهموما مكتئبا .. وكان بها رحيما مترفقا .. لكن سما زعافا كان يفسد ما بينهما .

كان حبهما وثيقا .. وتعاطفهما صادقا .. لكن كانت تخيم فوق رأسيهما سحابة يسيرة .. لا تزيد فى حجمها عن رأس رجل ميت .

لكنها كانت تزيد انتشارا كل يوم .

الفصل الحادى والاربعون

السـم

قصدت فلورنس جريجورى عقب عودتها الى انجلـترا الى مسقط رأسها فى « اكسفوردشير » ، آملة أن تجد فى ذكريات الايام الخالية ما يجبر قلبها الكسير ويبرىء روحها الجريحة .. بيد أنها وان اخفقت فى هذه المحاولة فقد تعزت بما اتخذت من الاصدقاء وما اندمجت فيه من مظاهر الحياة الجديدة .

وبعد عامين من اقامتها فى اكسفورد زارها بازيل لقضاء عطلة نهاية الاسبوع .. فأقام معها شهرا .. ثم تعرف بفتاة يتيمـة تدعى « اليس لى » وانتهى التعارف الى الخطوبة .. وأزف موعد الزفاف .

وفى أثناء ذلك دبت الشيخوخة الى فلورنس جريجورى .. وجلل المشيب شعرها .. فأسخطت هـذه الشيخوخة المبكرة زوجها ، وهو الذى كان يفخر بشبابها الدائم ونضارتها المتجددة .

وينبغى الا يتبادر الى الاذهان أن جريمة بازيل المـاضية هى التى حطمت فؤاد أمه . أو تجربتها المروعة فى الغرفة المثمنة .. غرفة استقبال « فولى شانج » .. وانما هو ذلك التنافر الذى نجم بينها وبين ابنها ، وتطور الى حد المرارة .

فقد كان ذلك السر الضخم المكتوم بينهما عبئا ثقيلا يرزحان تحته ، وشبحا ملازما لا فكاك لهما منه .

ومع أن الام كانت تندد فى ضميرها بجريمة ابنها ، فقد منحته صفحها الشامل ..

لـكنه هو لم يصفح عنها ..

وذلك ما كان يحز فى نفسها ويدمى فؤادها . لكنها لم تستطع أن تلومه على ذلك . وكانت تأسف لعجزها عن اقنـاعه بصفحها المطلق عنه ، وحبها الدائم له .

ثم تزايد فعل هذا السم النفسانى فى صدر بازيل ، فنال من حبه لامه ..

لـكن ذلك لم يكن كل ما بينهما ..

فان بازيل كانت تنتابه لحظات سوداء يروح يتساءل فيها ؟ ترى هل كانت أمه تتخلى عنه فى آخر لحظة ، وترفض ان تبقى على الحياة التى وهبته ، بذلك الثمن الضخم الفاحش الذى عرض عليها ؟ .. وهل كانت تضن عليه بهذه التضحية المروعة اذا لم يبق منها مهرب ؟ ..

كان يدور بخلده احيانا انها ما كانت تتردد فى الرفض البات المطلق فيأخذ يلومها فى نفسه . فلا تتمالك أمه وهى التى كانت تنفذ ببصيرتها الى أطواء نفسه ان تزدريه وتنكره ، ولا تملك أن تصفح عنه ..

وكذلك بدر « فولى شانج » بدور ثار اشد ترويعا وهولا مما رتب ودبر .. فانه متى ضنت الام بصفحها عن الابن الذى وضعته وأرضعته ، كانت الكارثة الانسانية مما يجل عن الوصف .

« الخـــاتمة »

حل يوم زفاف بازيل جريجورى الى عروسه ..

كانت مراسم الحفلة مقترنة بالبساطة والهدوء .. وتخللت اشعة الشمس الذهبية نوافذ الكنيسة ، وسقطت فوق الهيكـل والأرغن القديم المعهود .. وساد المكان المقدس جو من الجمـال والتناسق والجلال ..

وكان أفراد الاسرة جميعا راضين ناعمى البال .. الا بازيل جريجورى .. لكن أمه وحدها فطنت الى حالته .. أما شـهود الحفلة فكانوا كما هو المـألوف مولين اكبر عنايتهم الى العروس .

رأى بازيل فتاتين حوله قرب الهيكـل .. وفيمـا هو يعود ادراجه فى المشى وقد تأبطت عروسه ذراعه بيدها المترددة حياء وخجلا ، أحس يدا أخرى خفية تلمس ذراعه .. وشعر بوقر هذه اليد يبهظ ساعده ويؤذيه ..

كان يحب زوجته شديد الحب .. لـكن تعاسته كانت تجل عن الوصف .. فقد أيقن الان انهما لن يكونا وحدهما نهارا أو ليلا .. وان ذلك الشبح سيلازمه ملازمة الظل ويلاحقه الى حيثما ولى أو اتجه ..

وقد رأت الام وفهمت ..

وفيمـا كان العروسان يغادران الـكنيسة رن فى اذن بازيل صوت ناقوس صينى ، فانتفض وتعثر ..

وما كاد الظلام يحتويه بعد ساعات قلائل حتى لطم صـوت الناقوس سمعه مرة ثانية .

* * *

نم هادئا يا « فولى شانج » .. وطب نفسا .. فقد عوقب المجرم ! ..

لقد حطم فؤاد امه ، وحلت عليه لعنتك ..

لقد دوى اليوم فى اذنيه صوت ناقوسك ، يصب عليه اللعنة ؟ وينذر بالشقاء الأبدى .. فكان أوقع فى نفسه من هتاف الفرح ؟ وأناشيد الزفاف .

ولن يفتأ هذا الدوى يتردد فى سمعه ، قاسيا ، مـريرا ؟ ما ترددت أنفاسه بين جنبيه ! .

ويوم ترفـع اليه عروسـه الانجليزية وليدها الاول مزهوة ظافرة ، سيرى من خلال بسمتها المشرقة وجـه « نانج ينج » ويسمع رنين الناقوس الصينى اعلا من بكاء الوليد ..

نم قرير العين فى قبرك القاصى .. فقد تحقق ثأرك المروع ؟ ونلت أضعاف ما أردت .

« تمت »

هيئة قناة السويس

الحمولة الصافية :

سجلت الحمولة الصافية للسفن العابرة بالقناة خلال اكتوبر سنة ١٩٦٢ زيادة قدرها ٢٫٢٢٦٫٠٠٠ طنا اى بنسبة ١٣٫٩ ٪ ، حيث بلغ مجموعها خلال شهر اكتوبر سنة ١٩٦٢ ١٨٫١٨٥٫٠٠٠ طنا مقابل ١٥٫٩٥٩٫٠٠٠ طنا فى اكتوبر سنة ١٩٦١ .

وبتقسيم الحمولة الصافية طبقا لاتجاهى العبور يتضح انها قد زادت بالنسبة للسفن المتجهة جنوبا بمقدار ١٫١١٦٫٠٠٠ طنا أى بنسبة ١٣٫٩ ٪ (٩٫١٦٩٫٠٠٠ طن مقابل ٨٫٠٥٣٫٠٠٠ طن) وترجع تلك الزيادة الى الناقلات الفارغة. كما زادت بالنسبة للسفن المتجهة شمالا بمقدار ١٫١١٠٫٠٠٠ طنا أى بنسبة ١٤ ٪ (٩٫٠١٦٫٠٠٠ طن مقابل ٧٫٩٠٦٫٠٠٠ طن) . وذلك نتيجة لارتفاع الحمولة الصافية للناقلات المحملة .

وبتحليل الزيادة المسجلة فى الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال شهر اكتوبر سنة ١٩٦٢ ، بين السفن المحملة والفارغة والحربية مقارنة بمثيلاتها فى اكتوبر سنة ١٩٦١ :

يتضح الآتى :

السفن المحملة	+	٩٤١٫٠٠٠	طن
السفن الفارغة	+	١٫٢٩٧٫٠٠٠	طن
السفن الحربية	ـ	١٢٫٠٠٠	طن
المجموع		٢٫٢٢٦٫٠٠٠	طن



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٢١٠ الثمن